

تفسير القرآن

لعموم المسلمين

تأليف

أبي عبد الله مصطفى بن عبد الوهي

سورة العنكبوت

مكتبة مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مطلع هذه السورة المباركة وفيه البيان عن وحدانية الله عز وجل وأنه الحي القيوم وأنه أنزل الكتب لهداية الخلق وكذا الوعيد الشديد لأهل الكفر وبيان شيء من عظمته وقدرته وسعة علمه تبارك وتعالى .

قال الله عز وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿الْم﴾ أحرف مقطعة لا يعلم معناها إلا الله ومن العلماء من قال: إنها سبقت للتحدي، فكأن المعنى ألف ولام وميم أحرف تعرفونها ولكن لا تستطيعوا أن تأتوا منها بقرآن ولا بسورة ولا آية ^(١).

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه ^(٢) ﴿الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت، وفي الحديث: «أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون» ﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي

(١) وقد سبق التوسع في ذلك في أول سورة البقرة.

(٢) أيضا سبق تفسيرها في آية الكرسي من سورة البقرة .

يقوم بأمر غيره، فلا قيام لغيره إلا به وهو القائم بتدبير أمور خلقه وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ استفيد منه أن الله عز وجل في السماء، وذلك لأن الإنزال يكون من أعلى كما هو معلوم وكذا استدل بالآيات التي في معناها والتي فيها ﴿أَنْزَلْنَا﴾ [البقرة: ٩٩] ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنعام: ٩٢] - ﴿أَنْزَلَ﴾ [الأنعام: ٩٣] ونحو ذلك، وكذا آيات العروج ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ﴾ [المعارج: ٤] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ..﴾ [النحل: ٥٠] ونحو ذلك فكلها دالة على أن الله عز وجل في السماء. أما الكتاب فهو القرآن، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي مشتملاً على الحق، وما فيه هو الحق، ونزوله أيضاً بالحق لا بالباطل.

معنى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحتمل معنيين: وكلاهما صحيح.

الأول: أنه موافق للكتب التي تقدمته فموافقته لها تصديق لها. فالكتب المتقدمة فيها الدعوة إلى توحيد الله عز وجل والقرآن كذلك.

الثانية: أن مجيء القرآن تصديق للكتب السابقة، فقد أخبرت به وبشرت برسول الله ﷺ. فكان مجيئه تصديق لها، كما يقول الشخص مثلاً: إن فلاناً سيأتي فيأتي فلان فمجيئه تصديق للقائل.

فالكتب التي نزلت من عند الله أخبرت بأمور، منها خروج رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكان في الكتب المتقدمة - أيضاً - تحليل لبعض الأشياء وتحريم للبعض الآخر، فأخبر الله في القرآن الكريم بما كان فيها من تحليل وتحريم. فجاء الكتاب العزيز (القرآن الكريم) مصدقاً للكتب السابقة من هذا الباب. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾ وهي الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل نزول القرآن ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ دلالات للناس على طريق الحق والصواب. وعلى وحدانية الله عز وجل وقدرته وعلمه وأسمائه وصفاته.

والهداية. وكما تقدم لها معنيان:

هداية الدلالة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

* أما الهداية بالمعنى الآخر فهي هداية التوفيق كما في قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

فإن قال قائل هل هو هدى للكفار؟

فجوابه: نعم فالقرآن يدل الكفار على طريق الحق والصواب، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

• هذا، وهنا وجه للربط بين الآية والآية التي تقدمته فلأن الله عز وجل هو القائم بتدبير أمور خلقه فقد أنزل عليهم الكتاب بالحق وأنزل عليهم التوراة والإنجيل من قبل هدايات لهم وتبصرة لهم إذ هو القائم عليهم سبحانه وتعالى.

• وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي وأنزل الزبور الذي نزل على داود عليه السلام.

• وبشيء من التفصيل، أقول وبالله التوفيق: إن الفرقان يأتي بمعان متعددة في الكتاب العزيز - شأنه في ذلك شأن كثير من اصطلاحات الكتاب العزيز - من هذه المعاني:

• **الفرقان:** بمعنى القرآن كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

• **الفرقان:** ما يفرِّق به بين الحق والباطل. والهدى والضلال، والغى والرشد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨] وهنا يطلق أيضا على التوراة، وكقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

• **الفرقان:** يوم بدر لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَّى أَلَجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

والناظر إلى هذه المعاني يرى أنها ترجع إلى معنى واحد. وهو ما يفرِّق به بين الحق والباطل، فالقرآن يفرِّق به بين الحق والباطل، وكذلك يوم بدر، وكذلك التوراة.

ولكن الذي يظهر لي أن المراد بالفرقان في آية آل عمران هو الزبور، وذلك لأن الله جل ذكره ذكر الثلاث كتب فقال: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [٣] ﴿مِّن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]. ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ فانتظمت الآيات الكريمة أربعة كتب: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ جَحَدُوا بِهَا وَكَذَّبُوا بِهَا وَأَنكَرُوا وَأَنكَرُوا وَحَدَانِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَفَرَّدَ بِالْعِبَادَةِ﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب وقويُّ منيع الجنب عظيم السلطان لا يمنعه مما يريد مانع ولا يحول بينه وبين مراده حائل ولا يستطيع أن يعانده فيه أحدٌ ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ منتقم وانتقامه شديد ممن خالف أمره وكذب رسله وعصاه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [٥] أي لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء بل عليم بالعباد وبصيرٌ بهم يسمع كلامهم ويرى مكانهم ويطلع على نواياهم ويعلم ما يبدون وما يكتُمون وكذا فقد أحاط علمه بكل شيء في الأرض وفي السماء.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ معناه - والله أعلم - أنه سبحانه يصور الناس في بطون أمهاتهم، هذا أبيض وهذا أسود، وهذا أحمر وهذا أصفر وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا ذكي، وهذا غبي، وهذا ذكر، وهذه أنثى، وهذا جميل وهذا دميم و.....

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه، فلا تعبدوا معه غيره، وكذا هو الخالق والفعال لما يريد ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب بل هو الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل شيء وفيما يشرع لخلقه وفيما يصنع ويأمر وينهى.



بيان الآيات المحكمات والمتشابهات والموقف منها وسؤال أهل الإيمان الثبات

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ ۚ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾ ۝

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ واضحات جليات ظاهرات المعاني لا تشبه معانيها، ثم هي محكمات ليست بمنسوخات ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب الذي يرجع إليه عند الاختلاف ﴿وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ قد تشبه معانيها على بعض الناس وبشيء من التفصيل في هذا المقام، أقول، وبالله التوفيق:
لأهل العلم أقوال في المراد بالآيات المحكمات والمراد بالمتشابهات نورد منها ما يلي:

١- منهم من يقول: إن المحكمات هي آيات الحلال والحرام والأحكام والفرائض، والمتشابهات هي آيات الأمثال ونحوها.

٢- القول الثاني: إن المحكمات هي التي لم تُنسخ، والمتشابهات هي المنسوخة^(١).

٣- القول الثالث: إن المحكمات هي ما علم الناس تأويله، والمتشابهات ما لم يعلمه الناس كوقت الساعة وخروج يأجوج ومأجوج مثلاً ونحو ذلك.

• وهذا ثم أقوال أخر في هذا الباب.

والذي يظهر لي - والعلم عند الله تعالى - أن المراد بالمحكمات هن الآيات الواضحات البينات اللاتي لم تنسخ، وهي أصل الكتاب الذي يرجع إليه عند الاشتباه والاختلاف^(٢)، وهي آيات يعلمها وتأولها أكثر الناس، أما الآيات المتشابهات فهي التي تحمل جملة معان وتشبه معانيها على كثير من الناس، وهذا كما جاء في حديث رسول الله ﷺ «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات»^(٣) لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه.... الحديث^(٤). والله تعالى أعلم.

وكمثال للآيات المحكمات قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقوله تعالى في شأن عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ومن أمثلة المتشابهة قوله تعالى في شأن عيسى عليه السلام ﴿وَكَلَّمْنَاهُ﴾

(١) وهذا القول مروي عن قتادة عند الطبري (٦٥٧٧) بإسناد حسن.

(٢) إن ظهر لأحد اختلاف في شيء.

(٣) وفي رواية: (مشبهات).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٥١، ٢٠٥٢)، ومسلم (حديث ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً.

أَلْقَاهَا إِلَى مَرِّمٍ وَرُوحٍ مِّنْهُ ﴿١﴾ فهذا الذي قد يشتهه معناه على البعض يُردُّ إلى المحكم فتندفع الإشكالات ^(١).

هذا، والقرآن الكريم كله محكمٌ باعتبار ومتشابه باعتبار آخر فهو محكم كما قال سبحانه: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا ثُمَّ فَضَّلْنَا﴾ أي: أجملت ثم بينت ووضحت، وكذلك أحكمت في نظمها ووصفها وإتقانها. وتصديق بعضها لبعض وتشابهت آياته في حسنها وجمالها ودلالاتها.

• أما لماذا لم يأت القرآن كله محكم ؟

• فجوابه، تلك إرادة الله والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك، ثم إن بعض أهل العلم ذكروا من فوائد إيراد المتشابه: امتحان قلوب العباد في التصديق، وبيان فضيلة الراسخين في العلم؛ إذ يقولون عند ورود المتشابه: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، وإثابة المجتهدين للوصول إلى الحق على اجتهداهم، وإعمال العقل في تدبر آيات الكتاب العزيز، والله تعالى أعلم.

• ثم بين الله سبحانه وتعالى أحوال بعض الناس وموقفهم تجاه آيات القرآن، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴿٢﴾ مِيلٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَمِيلٌ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، وَفِيهَا أَيْضًا شَكٌّ يَمَّا يُخْبِرُ اللَّهُ بِهِ فَهَوْلَاءَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، زَاغُوا عَنِ الْحَقِّ ﴿٣﴾ فَيَتَّبِعُونَ مَا كَشَبَهُ مِنْهُ ﴿٤﴾ أَي: يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ وَيَتْرَكُونَ الْمُحْكَمَ ﴿٥﴾ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴿٦﴾ طَلَبًا لِإِخْلَالِ النَّاسِ وَصَرْفِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ وَصَرْفِهِمْ عَنِ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ .

• فالفتن تطلق على الصرف والتحويل ، فتن الشخص صرف عن الحق إلى الباطل ، ولها معانٍ أخر.

• ومن أمثلة ما ذكر أن بعض اليهود يعمدون إلى آيات الحث على الصدقة كقوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿٧﴾ فيقولون إن الله فقير ونحن أغنياء لأنه يستقرضنا .

(١) وقد سُقت لذلك أمثلة في كتابي (أصول التفسير وقواعده).

والنصارى يعمدون إلى قوله تعالى في شأن عيسى عليه السلام ومريم عليها السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ فيستدلون بذلك على أن الله له ولد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً والخوارج يتبعون قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَكِينَةً وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ويفهمونها بأفهامهم السقيمة ويتركون قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ والمرجئة يعمدون إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنذِبْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ ويتركون العمل، ويتركون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. ونحو ذلك.

وكل ذلك لأمرين: ذكرهما الله عز وجل في كتابه الكريم .

أحدهما: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾، ابتغاء صرف الناس عن الحق إلى الباطل، وعن الإسلام إلى الكفر وابتغاء تشكيك الناس في دينهم .

الثانية: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: المراد هنا تحريفه عن وجوه الحق والصواب إلى ما تهواه نفوسهم وتريده شهواتهم.

هذا، وأتوسع هنا في بيان معاني (التأويل) فأقول ، وبالله التوفيق:

التأويل يطلق على أشياء منها :

١ - حقيقة الأمر التي يؤول إليها كما قال يوسف عليه السلام: ﴿يَتَأَبَّى هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] ، وكقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وكقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

وأصل ذلك من آل الشيء إلى كذا إذا صار إليه ورجع . وهذا الغالب في الكتاب العزيز.

٢ - **التفسير والبيان :** ومنه قول النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٣٢٨ / ١) بإسناد حسن وسيأتي قريباً إن شاء الله.

- ومنه قول الملا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف : ٤٤] فمحتمله بتفسير الأحلام.
- ومنه أيضاً أقوال العلماء كالطبري رحمه الله إذ يقول: القول في تأويل قول الله عز وجل....
- ومنه قول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»^(١) يتأول القرآن أي: يمثله ويعمل به، والله أعلم.

٣- صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر لقريئة تدل على ذلك^(٢).

قال الشنقيطي رحمه الله^(٣): وحاصل تحرير مسألة التأويل عند أهل الأصول أنه لا يخلو من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح.

الأولى: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره بدليل صحيح في نفس الأمر يدل على ذلك، وهذا هو التأويل المسمى عندهم بالتأويل الصحيح، والتأويل القريب كقوله ﷺ الثابت في الصحيح: «الجار أحق بصقبة»^(٤) فإن ظاهره المتبادر منه ثبوت الشفعة للجار، وحمل الجار في هذا الحديث على خصوص الشريك المقاسم حمل له على محتمل مرجوح، إلا أنه دل عليه الحديث الصحيح المصرح بأنه إذا صرفت الطرق وضربت الحدود فلا شفعة.

الحالة الثانية: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنه الصارف دليلاً وليس بدليل في نفس الأمر، وهذا هو المسمى عندهم بالتأويل الفاسد والتأويل البعيد، ومثل له الشافعية والمالكية والحنابلة بحمل الإمام أبي حنيفة- رحمه الله -

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ٢/ ٢٨١)، ومسلم (٤/ ٢٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

(٢) قال الشنقيطي رحمه الله «أضواء البيان» (١/ ٢٣٤): معناه المتعارف في اصطلاح الأصوليين وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل على ذلك.

(٣) أضواء البيان (١/ ٢٣٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٥٨)، (٦٩٧٧) من حديث أبي رافع رضي الله عنه مرفوعاً، (وروي بالسين في قوله سقبه) ويطلق السقب على القرب والملاصقة.

المرأة في قوله ﷺ الثابت في الصحيح : «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل» ^(١) على الكبيرة والصغيرة ، وحمله أيضاً المسكين في قوله تعالى: ﴿سِتِينَ مِسْكِينَ﴾ على المد فأجاز إعطاء ستين مئداً لمسكين واحد.

الحالة الثالثة: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل أصلاً، وهذا يسمى في اصطلاح الأصوليين لعباً ، كقول بعض الشيعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] يعني : عائشة رضي الله عنها ..

وأعود إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: وما يعلم وجه الحق والصواب في تفسير كتابه كاملاً إلا الله ، والمعلم من علمه الله ، فإذا علمنا الله عز وجل شيئاً علمناه ، وقد دعا رسول الله ﷺ لابن عمه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ^(٢) .

• هذا وجهور العلماء على أن الوقف لازم عند لفظ الجلالة أي: أن القارئ يقف عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ .

• وقوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ أي: بمحكمه ومتشابهه، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه . وسواء علينا فهمنا معناه أم لم نفهمه ، فقد صدقنا به وهنا تظهر فضيلتهم، فضيلة الراسخين في العلم فعلمهم حملهم على الإيثار عند ورود المتشابه فيقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ ﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فإنهم - إن أشكل عليهم شيء في كتاب الله لا يتذبذبون ولا يتشككون بل هم مؤمنون في كل حال مستيقنون عند كل مقال يرد إليهم من الكبير المتعال ، لا تعزيرهم الشكوك ولا تجرفهم الشبهات،

(١) أخرجه أحمد (١٦٥/٦)، وأبو داود (٢٠٨٣)، بإسناد صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها وله شواهد، وانظر (كتابنا الصحيح المسند من أحكام النكاح).

(٢) أخرجه أحمد «المسند» (٣٢٨/١) بإسناد حسن، وفي «صحيح البخاري» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ضمنى النبي ﷺ إلى صدره وقال: «اللهم علمه الحكمة» وفي رواية للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءاً قال: «من وضع هذا؟» فأخبر فقال: «اللهم فقهه في الدين».

ويعلمون أن ما قاله الله صدق ، وما وعد به حق ، وما قضى به عدل .
• وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَذْكُرْ إِلَّا أَفْئِدَةً لَا تُؤْمِنُ ﴾ أي: وما يتعظ وما يعتبر إلا أصحاب العقول النيرة الرشيدة الذين يفهمون عن الله عز وجل مراده ويتأثرون بالآيات ويأخذون منها العبر .

• فعلى المسلم إذا مرت به أية اشتبه عليه معناها أن يقول كما قال الراسخون في العلم ﴿ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] ثم يسأل أهل الذكر لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧] وعليه أن يحذر من الذين يتبعون هذا المتشابه لقول النبي ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « إذا رأيت الرجل يتبع المتشابه ويترك المحكم ، فأولئك الذين سمي الله عز وجل فاحذروهم »^(١) .

وفي الباب أيضاً حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارءون فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه »^(٢) .

وعليه أن يحذر من مثيري الفتن مُتَّبِعِي المتشابه لما صح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ - إلى قوله-: ﴿ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] قالت: قال رسول الله ﷺ : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم » .



(١) صحيح أخرجه البخاري (٤٥٤٧) .

(٢) إسناده حسن ، وإن كان فيه بعض الاختلاف ، راجع كتابي التسهيل لتأويل التنزيل . وأخرجه عبدالرزاق (٢١٦/١١) .

بعض سبل الرسوخ في العلم

هذا، ويتأتى الرسوخ في العلم بأمور:
أولها وآخرها توفيق الله عز وجل ، ثم بعد ذلك أمور منها :
• سؤال الله عز وجل ذلك، فقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

[طه: ١١٤]

تقوى الله عز وجل ، فالله سبحانه يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [٢] **[الطلاق: ٢، ٣]** .

• العمل الجاد الدءوب؛ لتحصيل العلم الشرعي فهو نوع جهاد والله سبحانه يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٦٩] **[العنكبوت: ٦٩]** ، وهذا ابن عباس رضي الله عنه مع دعاء رسول الله ﷺ له بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١) يقف على أبواب الصحابة (كجابر بن عبد الله رضي الله عنه) في الليلة الباردة شديدة البرد تسفي الرياح الرمال على وجهه من أجل البحث عن الفقه في الدين^(٢) .

• التواضع في طلب العلم، فلن ينال العلم مستحي ولا مستكبر، كما قال قائل السلف رحمهم الله تعالى، وهذا نبي الله موسى عليه السلام - رغم فضله وتكليم الله له - يذهب إلى الخضر - عليه السلام قائلًا له: ﴿هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُسُلًا﴾ **[الكهف: ٦٦]** .

وهنا تشرع الرحلة في طلب العلم، كما كان الشأن في سلفنا رحمهم الله عز وجل.

(١) تقدم بيان أن إسناده حسن ، وسيأتي إن شاء الله .

(٢) صحيح أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٩٢٥) بإسناد صحيح، وسيأتي إن شاء الله . . .

*التركيز على مصادر العلم الصحيحة (وهي كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ)
الثابتة الصحيحة) فالآية يرجع تفسيرها وينظر في أقوال أهل العلم من المفسرين من
أهل السنة والجماعة فيها ، وتحقق الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم
في تفسيرها ، وكذلك حديث رسول الله ﷺ ، تجمع طرقه وينظر في أسانيد وأقوال
العلماء فيه تصحيحاً أو تضعيفاً، وكذلك أقوال أهل علل الحديث فيه هل أعلوه أم
صححوه، وأقوال أهل الفقه وتصحيح نسبة هذه الأقوال إلى قائلها من صحابي أو
تابعي أو من بعده وترجيح ما يقتضي الدليل ترجيحه، والاستئناس بأقوال أهل العلم
المعاصرين بعد ذلك ، فقد قال الله تعالى: ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾
[الأنبياء: ٧] وبالله تعالى التوفيق ومنه يستمدُّ العون والسداد.

و ثمَّ أمور آخر مبسوطه في محالها .

وقول أهل الإيمان: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ معناه يا ربنا يا من مننت
علينا بالهداية ﴿ لَا تُزِغْ ﴾ لا تُمَلِّ قلوبنا، لا تجعلها تنحرف عن الحق والصواب بعد إذ
وفقتنا وهديتنا لطريق الحق والصواب والإيمان ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ وتفضل
علينا برحمة من عندك ترحمنا بها في الدنيا وتنجينا بها من عذابك في الآخرة فلن يدخل
الجنة أحد إلا برحمة الله . ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ المتفضل عن من تشاء بما تشاء .

• وفي هذه الآية من الفوائد ما يلي:

أولاً: مشروعية التوسل بسابق إحسان الله عز وجل على العبد.

وذلك من إقرار أهل الإيمان بأن الذي هداهم هو الله فقالوا: يا ربنا يا من مننت
علينا بالهداية ورزقتنا إياها مُنَّ علينا بالثبات ولا تُزِغ قلوبنا ولا تضلها بعد هدايتها .
وهذا باب عظيم من أبواب التوسل بين يدي الدعاء ، تقول يارب قد أكرمتني
وعلمتني وزوجتني وتفضلت عليَّ بصنوف النعم فيارب أجب دعوتي وعافني مما
ابتليتني به . وبمثل هذا ينتفي عنك الجحود ، جحود نعم الله عليك .

ثانياً: في الآية فائدة ألا وهي التوسل إلى الله عز وجل بأسائه الحسنی، وقد قال

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهنا أولوا الألباب يقولون: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨) فدعوا الله باسمه الوهاب وسألوه به أن يهب لهم رحمة من عنده. وينبغي أن نختار من أسماء الله الحسنى اسماً يوافق المسألة التي نريدها ﴿وَهَبْ لَنَا...﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿كما في قول عيسى عليه السلام...﴾ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿[المائدة: ١١٤]. وكما في قول موسى عليه السلام: ﴿... فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وكما في قول النبي ﷺ: «اشف وأنت الشافي» (١).

وقوله عليه السلام: «... هازم الأحزاب واهزمهم وزلزلهم» (٢) ... ونحو ذلك، فهذا يتنافى مع ما يصنعه كثير من الخطباء ويبين خطأهم حيث يقول قائلهم: (أذِلَّ الشرك والمشركين برحمتك يا أرحم الراحمين)، فلا يليق أن تسأل الله أن يذل باسم الرحمة كما لا يليق أن يقول قائل: ارحمني فإنك شديد العقاب، ولا يليق أن يقال: اعف عني يا منتقم، فليفهم هذا المقلدة من الخطباء الذين قلَّ فقههم!!!!

ثالثاً: أهل الإيمان يعلمون أن ما هم فيه من خير وهدى وإيمان، إنما هو من فضل الله عز وجل عليهم ويقرون له بذلك ويسألون الله الثبات، وذلك مأخوذ من قول أولي الألباب ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ فالذي هداهم هو الله وكذا فأولوا العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أقرؤا الله بذلك، وخافوا على أنفسهم وسألوا الله الثبات على الإيمان حتى الممات فهذا هو الخليل إبراهيم عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وكذلك نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام خطيب الأنبياء يقول

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ١٠ / ٩١٣١)، ومسلم (مع النووي ١٤ / ١٨٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٢) أخرجه البخاري (١١ / ١٩٣) مع الفتح، ومسلم (١٢ / ٤٧) مع النووي (من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه).

لقومه: ﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأهل الإيمان بصفة عامة يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ويقول الراسخون في العلم منهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، ويقول إمامهم وحامل لواء الحمد لهم: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»^(١) وكانت أكثر أيمانه عليه الصلاة والصلاة: «لا ومقلب القلوب»^(٢).

رابعاً: من الفوائد الرد على المعتزلة الذي يقولون إن الله عز وجل لا يضل أحداً، فمقولتهم خاطئة، فالله سبحانه يعلم من يستحق الهداية فيهديه ومن يستحق الضلال فيضلّه، والأدلة على ذلك في غاية الكثرة منها:

- قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].
- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

[الأنعام: ١٢٥]

- ومنها قول الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

[آل عمران: ٨]

- ومنها قول رسول الله ﷺ: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاعه»^(٣).

- ومنها قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] بل

(١) أخرجه أحمد (١٨٢/٤)، وابن ماجه (٢٣، ١٣) بإسناد صحيح من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٣/١١) من الفتح، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٢/٤) بإسناد صحيح من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه مرفوعاً، وقد تقدم.

- قال إبليس: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].
- وقال سبحانه: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ فَكْلٍ هَادِي لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

[الأعراف: ١٨٦]

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].
- والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، والله الأمر من قبل ومن بعد.
- ثم يعلن أهل الإيمان عن إقرارهم بالبعث، ومن ثم فهذا يتضمن سؤال الله عز وجل أن يشبّتهم وأن يهديهم وأن يرحمهم وأن يجيرهم من عذاب النار فيقولون:
- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.
- والمعنى:** ياربنا إنك جامع الناس - الأولين منهم والآخرين - في يوم لا شك في مجيئه ووقوعه، أقررنا لك بذلك يا ربنا، فأنت أخبرتنا به، وأنت لا تخلف الميعاد.



هزيمة أهل الكفر وعدم انتفاعهم بأموالهم وأولادهم

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠ كَذَابِ عَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣﴾.

يبين الله عز وجل أن أقوال أهل الكفر وأولادهم لن تنفعهم بشيء يوم القيامة، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله عز وجل فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۝ وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وكقول الكافر: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۝٢٨ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۝٢٩﴾.

﴿وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠ أي: أن أهل الكفر هم حطب النار، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۝ وكما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ۝﴾.

* وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ لم ينتفعوا بأموالهم ولا عسائيرهم . ولم تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً لما ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ جحدوها وأنكروها وزعموا أنها سحر، فقد قالوا عن موسى وأخيه هارون عليهما السلام ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي: فعاقبهم الله بسبب ذنوبهم التي ارتكبوها وجرائمهم التي اقترفوها وشركهم وجحودهم وتحولت نعم الله عليهم إلى نقم كما قال تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وهكذا دوماً فالمعاصي سبب زوال النعم.

قال سبحانه في شأن قوم سبا، وكيف وأن نعم الله زالت عنهم بسبب كفرهم وإعراضهم. ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خُمٌ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

وقال سبحانه في شأن مكة وأهلها: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ عقابه سبحانه وتعالى شديد كما قال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أخبر يارسول الله أهل الكفر الذين كذبوك وعاندوك وحاربوك، أخبرهم بأن الهزيمة ستحلُّ بهم وسيجمعون ويُدفع بهم إلى جهنم يوم القيامة فيفترشون النار، وبئس ما يفترشونه وأصل المهاد من المهد، وهو فراش الطفل كقول قوم مريم عليها السلام ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ فالكفار يمتهدون النار كما

قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ .
 وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ قد كان لكم يا أهل الكفر ويا أهل الإيمان أيضاً ﴿آيَةٌ﴾ عبرة ودلالة على أن الله سينصر نبيه ويُعزُّ دينه ويُعليه وذلك مما حدث يوم بدر من التقاء الفئة المؤمنة مع الفئة الكافرة، الفئة المؤمنة وهي رسول الله ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه يوم بدر، والفئة الكافرة أهل الشرك ومن صحبهم يوم بدر، فالفئة المؤمنة كانت تقاتل في سبيل الله ، لإعلاء كلمته ولإعزاز دينه ولتوحيد عِزِّ وجل والفئة الكافرة تقاتل في سبيل الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ ففيه وجوه أحدها: أن الله عزَّ وجل كثر وزاد عدد المسلمين في أعين المشركين مع أن المسلمين كانوا أقل من المشركين، وذلك لتخويف أهل الشرك منهم .

الوجه الثاني: أن المسلمين رأوا أهل الشرك ضعفهم في العدد مع أنهم في الحقيقة ثلاثة أضعافٍ .

وينبغي أن يُستحضر في هذا المقام قوله تعالى من سورة الأنفال ، وهي في عزوة بدر ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَدْنَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿[الأنفال: ٤٣، ٤٤] . فيتأتى هنا وجه ثالث من أوجه الجمع: أن الحالات تفرّعت فصوّر الله المسلمين للمشركين بصورة في وقت من الأوقات ، وكذلك صور الله المشركين للمسلمين بصورة في نفس الوقت ، ثم صور الله المسلمين للمشركين بصورة أخرى في وقت آخر، وصور المشركين للمسلمين بصورة أخرى أيضاً، فأحياناً يُقلل المشركين في أعين المسلمين حتى يتجرأ

المسلمون عليهم، وأحياناً يُكثّرهم حتى يجأر المسلمون إلى ربهم بالدعاء والاستنصار، وأحياناً يقلل الله عز وجل المسلمين في أعين الكفار حتى يتجرأ الكفار على الذهاب لمقاتلة المؤمنين، ويكون ذلك كاستدراج لأهل الكفر، وأحياناً يُكثّر المسلمين في أعين الكفار ليقذف في قلوب المشركين الوهن والرعب، هذا وذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور. ونظيره في المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعِلُونَ ذُنُوبَهُمْ إِلَّا نَسْوَاجًا لَّالِجَةً﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.

[الصفات: ٢٤]

وثم أوجه آخر للجمع قال بها بعض العلماء، والله تعالى أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ مفاده أن المنتصر من نصره الله، وليس النصر عن كثرة عددٍ أو عددٍ، إنما النصر من عند الله ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ﴾ النصر الذي نصر الله نبيه يوم بدر ونصر أصحابه وهم قلة ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ لعظة ودلالة على أن النصر من عند الله، عبرة ودلالة ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لأهل الفهم الذين يفهمون عن الله أمره، ويعلمون قدرته.



تزوين حب الشهوات للناس ، وبيان أعظم هذه الشهوات والتذكير بما هو أفضل من ذلك مما أعدّه الله لعباده الصالحين وبيان بعض صفات أهل الصلاح

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ
وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ
حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤ قُلْ أُوْنِيْبُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا
عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ
مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيْرٌ بِالْعٰبِدِ
۝١٥ الَّذِيْنَ يَقُولُوْنَ رَبَّنَا إِنَّا ءَاْمَنَّا بِأَعْظَمَ مَا لَنَا ذُنُوبًا وَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ۝١٦ الصّٰدِقِيْنَ وَالصّٰدِقِيْنَ وَالْقٰنِئِيْنَ
وَالْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ .

قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ ذهب جمهور العلماء إلى أن الذي
زينها هو الله سبحانه وتعالى ، وهذا رأي جمهور أهل العلم ، وهو الصحيح لقول
الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾
[الكهف: ٧] ، ويشهد لذلك أيضاً قول رسول الله ﷺ : «لما خلق الله الجنة قال
لجبريل : اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لا
يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حنفها بالمكاره ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها

فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد. قال: فلما خلق الله النار قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها»^(١).

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي زينها هو الشيطان وقولهم هذا مرجوح إلا أن يُنزل على أن الشيطان سبب كما هو مطرد، والله تعالى أعلم. وقوله تعالى: ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بالنساء لعظم الافتتان بهن ولأن فتنتهن أخطر فتنة على الرجال، قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»^(٢).

وقد قال النبي ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر

(١) أخرجه أبي داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي (٣/٧)، وأحمد (٣٣٢/٢)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد حسن.

وأخرج ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٧٩) بإسناد حسن إلى أسلم (والد زيد) أنه قال: رأيت عبد الله ابن أرقم جاء إلى عمر بن الخطاب (بحلية) من حلية جلولاء - آنية من فضة على نطع - فقال: اللهم إنك ذكرت هذا فقلت: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَيِّنَ﴾ حتى ختم الآية **[آل عمران ١٤]**، وقلت: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ **[الحديد: ٢٣]** فإننا لا نستطيع (إلا أن) نفرح بما زيننا، اللهم فاجعلنا ننفعه في حقه وأعوذ بك من شره وهذا كما قدمنا إسناده حسن.

*وأخرج ابن جرير الطبري في «التفسير» (أثر ٦٦٩٥) بإسناد منقطع إلى عمر قال: لما نزل ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ **[آل عمران ١٤]**، وقلت: الآن يا رب حين زينتها لنا فنزلت: ﴿قُلْ أُوْنِيَكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ **[آل عمران: ١٥]**.

وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٠١/١/٢).

وله شواهد عن عمر يصحح بها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠).

كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء^(١) وأخرج الإمام أحمد رحمه الله من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر الدنيا فقال: «إن الدنيا خضرة حلوة فاتقوها واتقوا النساء» ثم ذكر نسوة ثلاثاً من بني إسرائيل امرأتين طويلتين تُعرفان، وامرأة قصيرة لا تُعرف فاتخذت رجلين من خشب وصاغت خاتماً فحشته من أطيب الطيب المسك وجعلت له غلقاً فإذا مرت بالملأ أو بالمجلس قالت به فنفخته ففاح ريحه^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَالْبَيْنِ﴾ أي وكذلك زين للناس حب البنين، وكثيراً ما يُفتن الآباء بالأبناء فالولد مبخلٌ مجبنة، يكون سبباً في جبن أبيه وتخلفه عن الجهاد في سبيل الله، فيتأخر الأب عن الجهاد في سبيل الله خوفاً على ولده من بعده من الضياع، ويمتنع الأب من الإنفاق في أوجه البر والخير خشية الفقر الذي يخشى أن يتسرب إلى ولده، ويجزع الأب ويحزن لمرض ولده بما يحمله في كثير من الأوقات على الجهل والاعتراض على الشرع، وكم من ولدٍ قد مات فحمل موته أمّه على لطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، وقد يحمل الولد أباه على الكسب المحرم من أجله.

وقد يرهق أبويه طغياناً وكفراً، كما قال الله سبحانه في شأن الغلام الذي قتله الخضر: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

[الكهف: ٨٠]

وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وصدق سبحانه إذ يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ابْنٌ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ أي وزين للناس

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤٦/٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه بسند صحيح.

حبُّ القناطير المقنطرة ، أي المعقودة الحاضرة، وقيل القناطير المضعّفة، فالقناطير . جمعٌ والمقنطرة جمع الجمع. وقال بعض أهل العلم كقتادة^(١)، إن المقنطرة يُراد بها المال الكثير بعضه على بعض قلت، والله أعلم المراد بها ها هنا الذهب والفضة المجموع بعضه إلى بعض المدخر المتراكم الحاضر.

* ووجه الافتتان بذلك أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تحمل صاحبها على الإعراض عن طريق الله سبحانه وتعالى كما تحمله على الطغيان والبغي .

* قال الله سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ ۝٦ ۚ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ ۚ ۝٧ ۚ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۚ ۝٨ ۚ ﴾ [الإسراء: ٨٣].

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۚ ۝٢٧ ۚ ﴾ [الشوري: ٢٧]، ألا ترى إلى قارون لما آتاه الله المال كيف صنع ، قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ قُرُونًا كَتَبَتْ لَهُمْ مِنْ قَدَرِهِمْ فَبَغَوْا عَلَيْهِمْ ۚ وَآيَاتُهُ مِنْ الْكُتُوبِ ۚ ۝٧٦ ۚ ﴾ [القصاص: ٧٦].

* وأظن القارئ لا يخفى عليه حديث الثلاثة: (الأقرع والأبرص والأعمى الذين ابتلاهم الله عز وجل)^(٢).

(١) الطبري (٦٧٢٥).

(٢) حديث الثلاثة نفر من بني إسرائيل أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا الله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال: لون حسن وجلد حسن قد قدرني الناس قال: فمسحه فذهب عنه فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك ؟ قال: الإبل - أو قال: البقر هو شك في ذلك ، إن الأبرص والأقرع قال أحدهما : الإبل وقال الآخر : البقر - فأعطي ناقه عشاء، فقال : يُبارك لك فيها ، وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال: شعر حسن ويذهب هذا عني قد قدرني الناس، قال: فمسحه فذهب ، وأعطي شعرا حسنا ، قال: فأى المال أحب إليك ؟ قال: البقر، قال فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها، وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال : يرد الله بصري فأبصر به الناس ، قال: =

وقوله: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: وكذا زُيِّن للناس حبُّ الخيل المسوَّمة، قيل معناها المعلَّمة بعلامات والتي يقتنيها الملوك والأغنياء والكبراء للمباهاة والمفاخرة، والتي يسميها البعض المطهمة، وقيل معنى المسومة الراعية، أي السائمة وتكون هذه الخيول فتنة لصاحبها إذا ربطها أو ركبها فخراً ورياءً وسمعةً ونواءً لأهل الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمِ﴾ أي وكذلك الأنعام زينت للناس، التي هي (الإبل والبقر والغنم والماعز) قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَبَيَّهَ أَنْزَوْجٌ مِنْ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ^(١) قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نِعْمُوني يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١٤٣) وَمِنْ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ هذه الأنعام تكون فتنة لصاحبها إذا ربطها أو ركبها فخراً ورياءً وسمعةً، ونواءً لأهل الإسلام، وكذلك الأنعام تكون فتنة لصاحبها إذا لم يؤد حق الله فيها، فتأتيه يوم القيامة تطؤه بأخفافها وأظلافها وتنطحه بقرونها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى

فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأبي المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم؛ فأعطاه شاة والدًا فأنج هذا، وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت به الجبال في سفره فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيراً أتبلغ به في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأي أعرفك ألم تكن أبرص يقُدُّرك الناس فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا فردَّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت به الجبال في سفره فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، وقال له: قد كنت أعمى فرد الله بصري وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك.

(١) يعني الذكر والأنثى، كال كبش والنعجة، والجدي والعنزة، والجمل والناقة والثور والبقرة.

يقضي الله بين العباد ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْحَرْثُ﴾ أي: وكذلك زين للناس حب الحرث، حب الزروع والثمار، حب الحداثق ذات البهجة والبساتين، حب الخضرة والنضرة والأشجار.

فهذا إذا شغل صاحبه عن الجهاد في سبيل الله ولم يؤد حق الله منه كان فتنة على أصحابه ووبالاً عليهم. وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ أي: المذكور من قبل من صور الشهوات ﴿مَتَكُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ ما يتمتع به الناس في دنياهم ويتلذذون به، ثم إنه زائل وفان، فله أمدٌ ومنتهى، ينتهي استمتاع الشخص به بوفاة وبانقضاء الحياة

(١) أخرج مسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»، قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها - ومن حقها حلبها يوم وردها - إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أو فر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مرّ عليه أو لاه رُدَّ عليه أخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقضاء ولا جلعاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مرّ عليه أو لاه رُدَّ عليه أخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» قيل: يا رسول الله فالخيل؟ قال: «الخيل ثلاثة: هي لرجل وزر وهي لرجل ستر وهي لرجل أجر، فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رياءً وفخراً ونواءً على أهل الإسلام فهي له وزر، وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في سبيل الله لم ينس حق الله في ظهورها ولا رقابها فهي له ستر، وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات ولا تقطع طولها فاستنت شرفاً أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات».

الدنيا ينتهي كل هذا تماماً. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ ، أي والله عنده الثواب الحسن في المآب ، أي في الآخرة وفي المعاد الذي وعد الله به وهو يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ﴾ ، قل لهؤلاء الذين حببت إليهم هذه الشهوات أخبركم بخير من هذه الشهوات ، ﴿لِّلَّذِيْنَ اتَّقَوْا﴾ أي أعد الله للمتقين ، الذين اتقوا الشرك واتقوا الكبائر واتقوا المعاصي ، فخافوا ربهم واتقوا عقابه ، أعد لهؤلاء ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّتْ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهي ، ﴿أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] وثم أنهار أخر.

وقوله تعالى: ﴿خٰلِدِيْنَ فِيْهَا﴾ لا يخرجون منها ولا يُزالون عنها ولا تفتنى ولا تبيد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مطهرة من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس والبزاق والمخاط والحقد والمكر وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا، وذلك كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُوْرِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾.

[الحجر: ٤٧]

وكما قال سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُوْنَ فِيْهَا لَهَوًا وَلَا نَفْسًا وَلَا سَمَآءًا ۚ﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]. وكما قال النبي ﷺ^(١): «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض لكل امرئ منهم زوجتان كل واحدة منهما يرى مع ساقها من وراء لحمها من الحسن، يسبحون الله بكرة وعشيًا لا يسقمون ولا يمتخطون ولا يبصقون، أنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ووقود مجامرهم الألوة ورشحهم المسك».

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يحل الله عليهم رضوانه فلا

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

يسخط عليهم بعده أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُ بِالْعِبَادِ﴾ لا تخفى عليه خافية منهم ولا تخفى عليه أعمالهم ولا أقوالهم ولا نواياهم. ثم بين الله عز وجل صفة هؤلاء الذين أعد لهم هذا الجزاء الحسن المتقدم ذكره فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا﴾ صدقنا بك وبوحدانيتك وإلهيتك وقدرتك وأسماءك وصفاتك وربوبيتك وكذا صدقنا بملائكتك وكتبك ورسلك وبوعدك ووعدك وقضاءك وقدرك، وبكل ما ذكرته لنا فيا ربنا لإيماننا وتصديقنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ استرها وامحها ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ اصرفه عنا ولا تقربنا منه ولا تقربه منا وهذا توسل منهم بإيمانهم بالله فكأنهم قالوا: يا ربنا قد آمنّا بك فلايماننا بك اغفر لنا ذنوبنا... فهم قد توسلوا إلى الله عز وجل بإيمانهم به؛ لطلب المغفرة منه سبحانه، والوقاية من عذاب النار.

ونحوه قول أهل الإيمان: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، فتوسلوا إلى الله بإيمانهم بما أنزل واتباعهم الرسول ليكتبهم مع الشاهدين.

• وقول أولى الألباب: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ رَبَّنَا ﴿١١٣﴾ وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾.

[آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]



بعض صفات أهل الصلاح وأعمالهم

ويبين الله سبحانه وتعالى صفات أخر للذين أكرمهم بنعيمه وأدخلهم جناته وأحلّ عليهم رضوانه ، فقال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على قضاء الله وقدره ، والصابرين على طاعة الله عزّ وجل ، والصابرين الممتنعين عن معصية الله عزّ وجل .
﴿الصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم ونواياهم .

﴿وَالْقَنِينَ﴾ المطيعين ، والذين يطيلون القيام في الصلاة كذلك فالقنوت من معانيه الطاعة وطول القيام .

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ الباذلين أموالهم الذين يخرجونها ويضعونها في وجوه الحق والبر كما أمرهم نبيهم ﷺ . وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ المستغفرين آخر الليل ، وقيل في الثلث الأخير منه ، ولا يمنع أن يستغفروا في أي وقت ، ولكن الاستغفار في أوقات السحر أفضل ، كما قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] ، وذلك لفضيلة وقت السحر ، كما جاء عن رسول الله ﷺ: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل فيقول : هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟! حتى يطلع الفجر»^(١) .

هذا وإن كانت التوبة مفتوحة في كل وقت للتائبين قال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل

(١) أخرجه البخاري (١٢٨/١١) ، ومسلم (مع النووي ٣٦/٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ولفظ البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» وللحديث ألفاظ أخر قريبة .

حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١).

لكن كما هو معلوم فالله فضل بعض الأوقات على بعض، وبعض الشهور على بعض، وبعض الأيام على بعض، وبعض الليالي على بعض، وبعض القرون على بعض... والله الأمر من قبل ومن بعد.



(١) أخرجه مسلم (مع النووي ٧٦/١٧) من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً.

شهادة الله عز وجل لنفسه بالوحدانية وشهادة الملائكة وأولي العلم بذلك وبيان أن الدين المقبول هو الإسلام

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ سَلَامَةٌ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِثَايِتٍ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ معناه شهد الله عز وجل لنفسه بالوحدانية، أنه إله واحد لا شريك له، وكذلك شهدت له الملائكة الكرام بذلك ، وشهد له أهل العلم بذلك فهذا قوله: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ وكذلك شهد الله عز وجل لنفسه بأنه قائم على عباده يدبر لهم أمورهم ويقضي لهم حوائجهم ويحكم فيهم بالعدل ، وشهدت له الملائكة وأهل العلم من خلقه بأنه قائم على خلقه بالقسط فهذا قوله: ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل، وشهدت له الملائكة وأولوا العلم بأنه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يغلب الحكيم في كل شيء وفيما يشرع . وفي الآية الكريمة فضيلة لأهل العلم فقد قرن الله سبحانه وتعالى شهادة أولي

العلم وشهادة الملائكة مع شهادته سبحانه وتعالى على أنه سبحانه قائمٌ بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فهذه خصوصية عظيمة للعلماء جزاهم الله خيرًا ورفع الله قدرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا﴾ يُفيد أن الدين المرضي المقبول عند الله هو الإسلام، الذي هو التوحيد والإيمان بالرسول واتباعهم فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتموا بمحمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ﴾ فيه إيضاح حال أهل الكتاب بعد مبعث النبي ﷺ ونزول القرآن عليه فقد كانوا - أعني أهل الكتاب - أمة واحدة جماعة واحدة في الظاهر، فلما جاءهم رسول الله ﷺ بالوحي الذي أوحاه الله عز وجل إليه، منهم من آمن وصدق واتبع، ومنهم من أصر على كفره وعناده حسدًا منه لرسول الله ﷺ، وبغيًا منهم وظلمًا واعتداءً على من آمن وصدق برسالة الرسول ﷺ.

فقد كانوا يبغيونها عوجًا، ويريدون بقاء الناس في الضلال واتباع الهوى، وكانوا يريدون البقاء على ما هم فيه من ظلم الكبراء والأثرياء للمستضعفين الفقراء، فلما جاء النور وبُعث الرسول ﷺ آمن من آمن وكفر من كفر فحصلت الفرقة وحصل الخلاف فهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ﴾ فهم اليهود والنصارى اختلفوا بعد مجيء النبي ﷺ والقرآن بغيًا من بعضهم على بعض وظلمًا من بعضهم لبعض فتوعدهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَأْتِ اللَّهَ يَكْفُرْهَا﴾ يَكْفُرُهَا وينكرها ﴿فَاتَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا تُعجزه محاسبة خلقه، بل يحاسبهم جميعًا ويحاسبهم على ما ظهر منهم وما خفي وهو سريع الحساب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ إن جادلوك، وإن جادلَكَ أهل الكتاب فيما دعوتهم إليه من توحيد الله عز وجل والإيمان بك وبما جئت به ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾

استسلمت لله وانقدت له وأذعنت وسمعت وأطعت لربي وخالقي، ووحدته فلن أشرك به شيئاً ﴿وَمَنِ اتَّبَعَ﴾ والمؤمنون بي والمتبعون لي أيضاً أسلموا وجوههم لله . وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فيه لأهل العلم قولان:

أحدهما: إنه إعراض عن المحاجة، والمعنى: إذا جادلوك بالباطل بعد أن بينت لهم الدلائل وأوضحت لهم الحجج، فأعرض أنت عنهم وأسلم وجهك لله، ومن اتبعك أيضاً فليسلم وجهه لله.

• **ومن قال:** إنه محاجة، والمعنى: فإن نازعوك يا محمد فقل: أنا مستمسك بطريقة إبراهيم عليه السلام وأنتم تعلمون أن طريقته حق بعيدة عن كل شبهة وتهمة . والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ﴾ يا رسول الله ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ مشركوا مكة ومن حولها ﴿ءِاسْلَمْتُمْ﴾ اسألهم استسلمتم لله ووحدتموه وأقررتم بما أنزل واتبعتم الرسل، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا﴾ فقد وفقوا للحق والصواب، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن أعرضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ الذي عليك هو إبلاغهم وإنذارهم كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ وقوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رُسُلِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ومن العلماء من قال: إن الآية منسوخة بآية السيف من سورة التوبة، ومنهم من قال: بأنها محكمة ولكن وجهها، وسيأتي ذلك في محله إن شاء الله. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وسيحاسبهم على ما صدر منهم من أقوال وأفعال وعلى ما انعقدت عليه قلوبهم.



بعض الأدلة على عموم رسالة النبي ﷺ

هذا، وفي الآيات المتقدمة دليل على عموم بعثة رسول الله ﷺ وثم أدلة أخرى.

فأولاً الدليل من آل عمران:

هو قوله تعالى: ﴿.... وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ﴾.

[آل عمران : ٢٠]

ودليل من سورة أخرى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾

[الفرقان : ١]

وأدلة من السنة : قول النبي ﷺ : «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من

هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار»^(١).

وقول النبي ﷺ : «... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس

كافة»^(٢).

وما ثبت عن رسول الله ﷺ من أنه عليه السلام عاد غلاماً يهودياً - كان يخدمه -

فقال له النبي ﷺ : «أسلم..» الحديث^(٣).



(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه، ولفظه : كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض

فأتاه النبي ﷺ ، يعوده فقعد عند رأسه فقال له : «أسلم» فنظر إلى أبيه وهو عنده ، فقال له : أطع أبا

القاسم رضي الله عنه ، فأسلم ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : «الحمد لله الذي أنقذه من النار».

الوعيد الشديد لأهل الكفر وقتلة الأنبياء وقتلة الأمرين بالقسط من الناس

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْنَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ
مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ
نَّصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يجحدونها وينكرونها ويكذبونها،
﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: ومن صنيعهم مع كفرهم قتل الأنبياء بغير
حق أي أنهم كفره وقتله، قتله للأنبياء فضلاً عن سائر الخلق، إذ الله قال:
﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: ويقتلون أئمة الهدى
بعد الأنبياء والأمرين بالعدل والحق أيضاً.

هذا ، وفائدة التقييد بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والله أعلم لبيان شناعة قتل النبيين
وعظم هذا الجرم ، فقاتل النبي أعظم الناس جرماً وأشدّهم إساءة ، وهذه الآية -
والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ، فمن المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر فإنه كافر، وليس
له برهان مطلقاً ولا حجة على وجود إله يستحق أن يعبد غير الله سبحانه وتعالى،
وإنما قيدت بهذا القيد ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ لبيان شناعة الشرك والمشرک، وأن الشرك
ليس عليه دليل ولا برهان لا عقلي ولا شرعي، ومن ثم استحق المشرک أليم العذاب

وعظيم العقاب.

وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بالعذاب الأليم المؤلم الموجه الذي أعدّه الله لهم ، وهو عذاب جهنم والعياذ بالله.

﴿أُولَئِكَ﴾ الكفرة وقتلة الأنبياء وقتلة الأمرين بالقسط من الناس، أولئك القتلة هم الذين حبطت أعمالهم ، بطلت أعمالهم وذهب ثوابها ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من دون الله أو يدفعون عنهم عذاب الله .

هذا، ولمزيد من الإيضاح لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أقول وبالله التوفيق: معنى الآية - والله أعلم - أن ثواب أعمالهم ذهب في الدارين، وأفسدوا أعمالهم التي عملوها بشركهم بالله عز وجل وقتلهم الأنبياء بغير حق وقتلهم الأمرين بالقسط من الناس.

أما حبوط الأعمال في الدنيا: فإبدال المدح بالذم، والثناء باللعن والحزى ، ويدخل فيه - كما قال بعض العلماء -: ما ينزل بهم في الدنيا من القتل والسبي وأخذ الأموال والاسترقاق إلى غير ذلك من أنواع الذل والصغار.

• **وأما حبوطها في الآخرة:** فإبدال النعيم بالجحيم ، والثواب بالعذاب الأليم، وضياح أجر كل ما صنعوه من خير في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وكما قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]. والله أعلم.

• هذا ، وفي الآية الكريمة ترهيب للذين يؤذون الدعوة إلى الله ويحاربونهم. والله أعلم.



رفض فريق من اليهود التحاكم إلى التوراة وبيان أن المعتقد الفاسد يجر إلى عمل فاسد

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ
مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا
جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيه تعجيب من حال هؤلاء اليهود الذين ادعوا أنهم
يؤمنون بالتوراة فهاهم يدعون إلى التحاكم إليها ويرفضونها، وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا
نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي أوتوا شيئاً من العلم بالكتاب ، وهو التوراة ﴿يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ
اللَّهِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ يدعون إلى التحاكم إلى التوراة
والتي يزعمون أنهم آمنوا بها، ومع ذلك يرفضون التحاكم إليها فقلوه: ﴿ثُمَّ يُتَوَلَّى﴾
ثم ينصرف ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: ينصرفون معرضين عنها رافضين لها
وللتحاكم إليها أما الذي نازعوا فيه ، ومن ثمَّ طُلب منهم التحاكم إلى التوراة فلم
يوضح في هذه الآية الكريمة، وإنما وُضِّح في مقامات أخر فمن المحتمل أن يكون
ذلك هو أمر النبي محمد ﷺ وأمر نبوته، ومحتمل أن يكون أمر الخليل إبراهيم عليه
السلام وكونه مسلماً، ومحتمل أن يكون ما دعوا إليه من أمر الإسلام والإقرار به،

ومحتمل أن يكون الطعام الذي كان حلالاً على إسرائيل وحرّمه إسرائيل على نفسه ،
ويمحتمل أن يكون أمر رجم الزاني والزانية ، إلى غير ذلك ، وكل ذلك محتمل فكله قد
دعى اليهود إلى التحاكم إلى التوراة فيه فأعرضوا، والله أعلم.

ثم أعود مستعيناً بالله عزّ وجل فأقول إن السبب الذي من أجله رفض اليهود
التحاكم إلى التوراة وأعرضوا عنها هو معتقدهم الفاسد، قال تعالى في بيان ذلك
السبب ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإعراض ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ لأنهم قالوا ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أي أننا لن نستمر في العذاب كثيراً، ولا انفكّك لنا عن العذاب هذه المدة
من الأيام القليلة المعدودة وهي الأيام التي عبدنا فيها العجل^(١)، فقالوا سواء استقمنا
أم لم نستقم وسواء تحاكمنا أم لم نتحاكم إلى التوراة فلا بد أن نعذب هذه المدة التي
عبدنا فيها العجل.

وكما سألهم رسول الله ﷺ من أهل النار، قالوا: نمكث فيها قليلاً ثم نخلفوننا
فيها فهذا المعتقد الفاسد جرّهم إلى عمل فاسد. فسوء المعتقد يجرّ إلى سوء العمل
والعياذ بالله.

أما قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ فمعناه وثبتهم على دينهم
الباطل ما خدعوا به أنفسهم من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات ﴿ فَكَيْفَ ﴾
بهم وكيف يكون حالهم ﴿ إِذَا جُمِعَ لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهو يوم القيامة. يُجمع فيه
الأولون والآخرين لا شك في وقوعه، ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ وأخذت
كل نفس جزاء عملها كاملاً مستوفى ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ لا يبخسون ولا
ينقصون شيئاً من حقوقهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً
يُضَاعِفْهَا ﴾ وكما قال: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾.



(١) كذا قال غير واحد من المفسرين كفتادة وغيره.

بيان أن الملك لله عز وجل يؤتية من يشاء وينزعه ممن يشاء وبيان شيء من قدرة الله عز وجل

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُؤْتِيهِ الْيَلَّ فِي النَّهَارِ وَتُؤْتِيهِ النَّهَارَ فِي الْيَلِّ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

أما قول: ﴿اللَّهُمَّ﴾ فمعناه يا الله، فهي متضمنة النداء ، ولذا لا يقال: يا اللهم بل يقال: ﴿اللَّهُمَّ﴾ وقوله: ﴿مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ أي يا مالك الملك فكل شيء في الكون أنت مالكة، تتصرف فيه بما تشاء وتقضي فيه بما تريد لا راد لقضائك ولا معقب لحكمك، وكل ملك وما ملك أنت مالكة، ومالك أمره فلا يؤتى أحد ملك شيء إلا إذا آتيته فقوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي تتفضل على من تشاء بأن تملكه ما تشاء ، فلا ملك إلا وأنت يا ربنا الذي تفضلت عليه وجعلته ملكا سواء كان صالحا كداود عليه السلام وغيره إذ الله قال في شأن داود عليه السلام: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وقال تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ وقال تعالى في شأن طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وقال في شأن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا﴾ وكذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ

إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴿ فلا ملك إلا بتمليك الله له ولا ممكن إلا بتمكين الله له .

ولذا فلا يجوز لأحد أن يتسمى بملك الأملاك لحديث رسول الله ﷺ: «إن أخنع اسم عند الله عز وجل رجل تسمى بملك الأملاك»^(١) وقوله تعالى: ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ مفاده أنه لا يتحول أحد من الملك ولا يُسلب ملكه إلا إذا قضى الله عليه بذلك، فهو سبحانه ينزع الملك ممن يشاء، وكذا يا ربنا فأنت ﴿وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ﴾ تجعله غالباً عزيزاً ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ تهين من أردت له الإهانة وتجعله ذليلاً ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ الخير كله في يديه سبحانه ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدير ربي على فعل كل شيء يريد قدير على سلب الملك من هذا وإعطائه لهذا قدير على إعزاز هذا وإذلال ذاك وقوله ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي تدخل الليل في النهار وتدخل النهار في الليل، فيأخذ الليل من وقت النهار، يطول الليل ويقصر النهار أحياناً وأحياناً يقصر الليل ويطول النهار وكذا يا ربنا ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ولأهل العلم في ذلك أقوال، منها:

- تخرج المؤمن من صلب الكافر، وتخرج الكافر من صلب المؤمن، فالكافر ميت والمؤمن حي، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠]، وقد أخرج الله إبراهيم إمام التوحيد من آذر، وآذر كافر.

- وأيضاً نوح مؤمن خرج منه ولده الكافر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]. مع قول النبي ﷺ: «الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً»^(٢).

(١) البخاري (٦٢٠٥) ومسلم (٢١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٢) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «أما الغلام فطبع يوم طبع كافراً».

• وكذلك خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه من صلب أبي طالب وأبو طالب كافر وهكذا.

* تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنواة من النخلة ، والنخلة من النواة.

* تخرج الدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة . وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء.

ومن الواضح أن هذه الأقوال ترجع لبعضها ، وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ تتفضل بالرزق الواسع على من تشاء لا مانع يمنعك ولا محاسب يحاسبك ، فإنك سبحانه تعطى القدر الذي تريده أنت وخزائنك لا تفنى ولا تبيد ، ويدك ملأى سحاء الليل والنهار وأنت ذو الفضل العظيم.



النهى عن موالاة الكفار والأمر بطاعة الله ورسوله وموالاة أهل الإيمان والتذكير بمراقبة الله عز وجل

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ
تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ
(٢٨) قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُتَحَضِّرًا وَمَا
عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا
وَيَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ
تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآية
الكريمة فيها النهي عن اتخاذ أهل الكفر أولياء وأنصارًا وترك موالاة أهل الإيمان ،
وفيها من ثمَّ تحريم ذلك والتحذير منه وثمَّ آيات كثيرة في هذا المعنى منها:
قول الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿[النساء: ١٤٤]﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿[المتحنة: ١]﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿[المائدة: ٥١]﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿[الأنفال: ٧٣]﴾.

وأعود قائلاً، قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا يوالي أهل الإيمان أهل الكفر ولا يناصرونهم ويتركوا مناصرة أهل الإيمان وموالاتهم فأهل الإيمان أحق بالولاية والمناصرة وأولى بها ، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ ومن يتخذ الكافرين أنصاراً وأولياءً ويترك ولاية المؤمنين ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ قال بعض أهل العلم أي ليس من ولاية الله في شيء، وليس له عهد عند الله أن ينصره وقال آخرون: ليس من حزب الله في شيء. وثم معنى آخر ، ليس من شرع الله في شيء في هذا الباب ، أي ليس لمتبع لشرع ربه عز وجل في هذا الباب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا مِنْهُمْ تَقَنُّةً﴾ إلا أنه يجوز لكم شيء من ذلك ، فتجعلوا بينكم وبين شرورهم وقايةً، كأن تظهروا لهم وقت استضعافكم وخوفكم من شرورهم ما يدفع الله به الشر عنكم مع طمأنينة قلوبكم بالإيمان.

وكما يذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه «إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم»^(١) ومعنى نكشر نبتسم أو نضحك ، فالكشر هو بدو الأسنان عند التبسم . وقد يدخل

(١) وقد ورد هذا عن أبي الدرداء من وجوه لا تخلو من مقال انظرها في تفسيري (التسهيل لتأويل التنزيل).

في هذا الباب قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وقول رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها في شأن رجل رآه مقبلاً عليه «بئس أخو العشيرة» فلما قدم ألان له القول، ولما سألته عائشة عن ذلك قال ﷺ: «إن شرَّ الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه». وقد قال الطبري رحمه الله تعالى في معنى الآية الكريمة. إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألستكم وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل.

وقال قتادة^(١): في تأويلها: نهى الله المؤمنين أن يوادوا الكفار أو يتولوهم دون المؤمنين، وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، الرحم من المشركين من غير أن يتولوهم في دينهم إلا أن يصل رحمًا له في المشركين.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ الجمهور على أن النفس هي الذات هنا والله أعلم، والمعنى هنا والله أعلم ويحذركم الله عقاباً من عند نفسه وهي كقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين غضب الله وعقابه وقايةً وعلى أية حال فصفة النفس ثابتة لله عز وجل من وجوه قال عيسى عليه السلام ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

وفي الحديث: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه..»: وثم استدلال آخر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أي: إلى الله عز وجل المرجع والمآب فيجازي كلاً بعمله، هذا، ويجدر التنبيه على أنه تجوز بعض المعاملات من أهل الكفر كزيارة مريضهم أحياناً أو البيع والشراء لهم ومنهم ونحو ذلك مما وردت به الأدلة. وقد عاد النبي ﷺ غلاماً يهودياً كان يخدمه فمرض وعرض عليه الإسلام، وعاد النبي ﷺ عمه أبا طالب حين حضرت أبا طالب الوفاة وقد قال تعالى:

(١) الطبري (٦٨٤٠) بإسناد حسن عن قتادة.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، وقد أهديت لرسول الله ﷺ شاة من يهودية فأجاب الدعوة وأكل منها، وفي البخاري^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فُتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمُّ فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لي من كان هاهنا من يهود» فجمعوا له، فقال: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟» فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان، فقال: «كذبتُم بل أبوكم فلان»، قالوا: صدقت. قال: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال: «من أهل النار؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا» ثم قال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا؟» قالوا: نعم قال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: إن كنت كاذبًا نستريح وإن كنت نبيًّا لم يضررك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لعموم خلق الله، ولن اتبعك من أهل الإيمان ﴿إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ﴾ من موالاة أو محبة أو بغض لأهل الكفر أو لأهل الإيمان ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ وليس هذا فحسب ولكن ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكل شيء في السموات أو في الأرض قد أحاط الله به علمًا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا﴾، أي: واذكروا يوم القيامة يوم تجد كل نفس عملها حاضرًا كاملاً موفرًا، لا ينقص منه شيء كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ تراه النفس أيضًا فيرى كل شخص

(١) البخاري (٣١٦٩).

أعماله السيئة التي عملها ، وإن كانت النفس لا تحب ذلك بل ﴿تَوَدُّ﴾ تحب ﴿لَوْ أَنَّ﴾
بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ﴿وَبَيْنَ﴾ عملها السيئ ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ غاية ومسافة بعيدة ، لا تدرك
عملها السيئ، ولا يدركها عملها السيئ كما في الآية الأخرى ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ﴾
يَدْلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنَ الْقَرِينُ ﴿وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾
وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ذو رأفة ورحمة بالعباد وذو لطف بهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ هذه الآية كما قال بعض أهل العلم: حاكمة على كل من ادعى محبة الله عزَّ
وجل فالذي يدعي محبة رسول الله ﷺ باتباع رسول الله ﷺ ، فإنه إذا اتبع رسول
الله ﷺ أحبه الله عز وجل وغفر له ذنوبه ، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾
بالعباد. وقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لأهل الإيمان بك ولغيرهم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿أي: إن أعرضتم عن طاعة الله وطاعة
رسوله ﷺ فقد سلكتم سبيل أهل الكفر، فمن شأنهم التولي والإعراض عن طاعة
الله وطاعة رسوله ﷺ والله لا يحب الكافرين والمعنى: لا تتولوا عن طاعة الله وطاعة
رسوله ﷺ فتشابهوا الكفار في هذا التولي ومن ثم لا يحبكم الله عزَّ وجل .



اصطفاء الله عز وجل بعض أنبيائه ورسله من بين الخلق

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ
وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿

يبين الله عز وجل أنه اصطفى هؤلاء المباركين والرسل الكرام على العالمين أما
وجه اصطفاء آدم عليه السلام فبالآتي:

١- خلقه الله بيده.

٢- سواه ونفخ فيه من روحه.

٣- أمر الملائكة بالسجود له.

٤- أسكنه جنته.

٥- جعله أباً للبشر.

• ووجه اصطفاء نوح عليه السلام، فإن الله سبحانه جعله أول رسول إلى
أهل الأرض، وأطال الله عمره وأحسن الله عمله، وفي الحديث: «خيركم من طال
عمره وحسن عمله»، وأنجاه الله عز وجل وأصحاب السفينة، وجعلها الله آية
للعالمين، وسماه الله عبداً شكوراً، واستجاب الله دعوته على قومه، ثم هو من أولي
العزم من الرسل.

أما آل إبراهيم عليه السلام فقد قيل: إنهم من كانوا على دينه، وقد قيل: إنهم
إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومنهم محمد ﷺ وعليه فالنبوة من بعدهم فيهم،

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً^(١) بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨] ، ثم إننا نصلي عليهم في كل صلاة .

ومن آل إبراهيم : خير البشر محمد ﷺ ، وقد قيل : إن المراد بآل إبراهيم هو إبراهيم نفسه^(٢) .

وعليه فلا إبراهيم عليه السلام مناقب منها : أن الله أنجاه من النار وجعلها عليه بردًا وسلامًا ، والثاني: أن الله جعله أبًا للأنبياء ، وأتم الكلمات التي ابتلاه الله بها . وجعله الله إمامًا للناس ، واتخذه الله خليلاً ، وكانت النبوة في ذريته كما سبق .

• **أما آل عمران فقد قيل هنا :** إن المراد بعمران هو عمران والد موسى وهارون ، وعلى ذلك فآله منهم موسى وهارون ، وقد اصطفى الله عز وجل موسى عليه السلام على الناس برسالاته وبكلامه .

• **وقيل :** إن المراد بعمران هنا: عمران والد مريم عليها السلام ، وعلى ذلك فوجه اصطفاء آل عمران : أن الله عز وجل جعل مريم وابنها آية للعالمين ، وعلى العموم فكل المذكورين اصطفاهم الله عز وجل بالنبوة .

*** هذا وثم قول آخر في الاصطفاء بالجملة ألا وهو : إن المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا.....﴾ هو دين آدم ونوح ، فهو دين الإسلام ، هو خير الأديان ، ولا يقبل الله عز وجل دينًا سواه ، لكن القول الأول أوجه؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير^(٣) والله تعالى أعلم .

(١) أي : كلمة التوحيد .

(٢) شاهده قوله تعالى: ﴿وَبَقِيََّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ وَنُوحٌ وَمُوسَىٰ وَهَارُونُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] ، أي : مما ترك موسى وهارون على ما ذكره عدد من العلماء ، ومنه قول الشاعر:

يُلاقِي من تذكر آل ليلي كما يلقي السليم من العِدَادِ

أي : من تذكر ليلي نفسها ، لكن رغم كل هذا ، فالتفسير الذي يفيد : أنهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد ﷺ أولى ، والله أعلم .

(٣) أي: أن الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ ، فإذا فسرت على هذا السياق أولى من أن تُفسر على أن الله

* هذا وأشهر الأقوال في المراد ﴿الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم أي العالمين في زمانهم ، وثُمَّ قولٌ آخر مفاده أن المراد بالعالمين جميع الخلق كلهم إلى يوم القيامة، والقول الأول أشهر ، وعليه الأكثر ألا وهو أن المراد: عالمي زمانهم ، وذلك حتى يستقيم الجمع بين الآية الكريمة وبين قوله تعالى في أمة محمد ﷺ : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل»^(١) .

* ونحو هذا التفسير يُفسر به قوله تعالى - في شأن بني إسرائيل - : ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] أي : عالمي زمانهم أيضاً.



⁼ اصطفي دين آدم (بتقدير كلمة دين) حيث إن الأصل عدم التقدير، ولا يصار إلى التقدير إلا إذا دعت الحاجة إليه، وإن كان المعنى الثاني صحيحاً أيضاً، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه أحمد «المسند» (٣/٥)، والترمذي (حديث ٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والحاكم في المستدرک (٨٤/٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

المراد بالآل

هذا ، ولعله من المناسب هنا بين المراد بالآل ، ومن هم آل محمد ؟
فأقول ، وبالله التوفيق: اختلف العلماء في المراد بآل محمد على أربعة أقوال مشهورة:

*** أولها: أن الآل (آل محمد ﷺ) : هم من حرمت عليهم الصدقة^(١) ، ودليل هذا القول ما يلي:**

١- قول النبي ﷺ : « إنا آل محمد لا نأكل الصدقة »^(٢) .

٢- قول زيد بن أرقم رضى الله عنه : ... ولكن أهل بيته (يعني : أهل بيت رسول الله ﷺ) من حُرِّم الصدقة بعده .. قال^(٣) : وهم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس .

٣- قول النبي ﷺ « إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس وإنما لا تحل لمحمد ولا لآل محمد »^(٤) .

٤- قول النبي ﷺ لما ضحى بالكبش^(٥) : « بسم الله اللهم تقبل من محمد ومن آل محمد ومن أمة محمد » ، والعطف يقتضي المغايرة ، وثم أدلة أخرى لأصحاب هذا القول .

*** والقول الثاني : أن آل محمد هم ذريته وأزواجه ؛ لقول النبي ﷺ : « اللهم صل**

(١) وسيأتي بيان من هم الذين حرمت عليهم الصدقة ، إن شاء الله تعالى .

(٢) صحيح وسيأتي .

(٣) القائل هو زيد بن أرقم رضى الله عنه .

(٤) صحيح وسيأتي إن شاء الله تعالى .

(٥) صحيح وسيأتي إن شاء الله تعالى .

على محمد وأزواجه وذريته»^(١) ، وفي الأحاديث الأخرى : «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»^(٢) ، فالحديث الأول يفسر الثاني .

ولقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : «ما شيع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام»^(٣) . ولقول النبي ﷺ : «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»^(٤) ، ونحو ذلك .

• **والقول الثالث:** أن المراد بالآل : من هم على دينه وملته في عصره وفي سائر العصور، واستدل لذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] ، وبقول النبي ﷺ : «إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي إنما وليي الله وصالح المؤمنين»^(٥) .

• **والقول الرابع:** أن المراد بالآل : هم الأتقياء من أمته ؛ لقول النبي ﷺ : «إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين ، وثم أدلة أخرى، هذه أشهر الأقوال في تفسير الآل .

• والذي يظهر - والله أعلم - أن القول الأول - وهو أن المراد بالآل : من حرمت عليهم الصدقة - هو الأولى والأصح ، وإن كانت ككثير من اصطلاحات الكتاب العزيز تتعدد معانيها حسب السياق الذي وردت فيه ، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّنْ بَعْضٍ﴾ فمعناه والله أعلم - : أن هذه الذرية بعضها ينصر بعضاً ، ويؤيده ويصدقه ويعاضده في الدين ويتبع منهجه في الإخلاص والتوحيد كما قال يوسف ﷺ : ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف : ٣٨] ، وكما قال يعقوب عليه السلام لبنيه حين حضرته الوفاة ، وهو ما ذكره الله في كتابه حيث قال سبحانه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] .

(١) (٢) كلاهما صحيح وسيأتيان إن شاء الله

(٣) (٤) (٥) كلها صحيحة وستأتي كلها إن شاء الله .

فهي أمة متعاضدة موحدة مخلصنة تتواصى بالتوحيد والإخلاص، ونظيره قوله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] ، وذلك بسبب اشتراكهم في النفاق.

- **وقيل:** إن المعنى ذرية بعضها من ولد بعض والله تعالى أعلم.
- أما الذرية فتطلق على الأبناء ، وتطلق على الخلق ، وتطلق على الصغار من الأبناء.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوال عباده ودعائهم عليم بنواياهم وأحوالهم وسميع لأقوال هؤلاء الذين اصطفاهم وعليم بأحوالهم ونواياهم، ولذا فقد اصطفاهم إذ هو سميع بكل شيء عليم بكل شيء ، فهو عليم بهم حيث جعل رسالته فيهم كما قال سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فالحاصل أن الله سبحانه إنما يصطفي لنبوته ورسالته من يعلم عنه الاستقامة في قوله وعمله ونيته ، والله أعلم.



قصة حمل امرأة عمران بمريم عليها السلام وولادتها وكفالتها وشيء من فضل الله عليها

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي
بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا
حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ
عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ۞ ﴾ أي اذكر قول امرأة عمران ، وليس هو
عمران والد موسى عليه السلام إنما تشابه أسماء فإنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم
والصالحين منهم هذا ، ولم يرد في تعيين اسمها حديث عن رسول الله ﷺ ولا آية من
كتاب الله عز وجل وإن كان المفسرون يذكرون اسمًا لها فيقولون هي (حنة بنت
فاقوذ) فالله أعلم.

وعلى أية حال فالعبرة مأخوذة من قصتها وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ۞ ﴾ أي اذكر
قولها ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ۞ ﴾ أي يا رب إِنِّي نذرت الجنين الذي في بطني
خالصًا لك ، لعبادتك ولخدمة محرابك ووجه ذلك أن المرء إنما يريد ولده للأنس به

والاستنصار والتسلي ، ومنهم من يريده كي يُذكر به بعد موته وأن يستغفر له كذلك ، فكان من شأن امرأة عمران لما منَّ الله تبارك وتعالى عليها بالحمل أنها نذرت أن حظها به من الأنس متروك لله ونصيبها منه متروك لخدمة بيت الله عز وجل .

أهل الإيمان يعملون الصالحات ويسألون القبول

ثم لما نذرت زوجة عمران هذا النذر سألت ربها عز وجل القبول قائلة ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لأقوالى ودعائى وتضرعى ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بنيتى وما يدور فى نفسى .

وهذا شأن أهل الإيمان يعملون الصالحات ويسألون الله عز وجل القبول، كما قال الخليل إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، وهما يرفعان القواعد من البيت ، أي بينان الكعبة ويرفعان جدرانها ﴿ رَبَّنَا تُقَبِّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وهؤلاء عباد الرحمن يبيتون لربهم سجداً وقياماً ومع ذلك يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان ٦٥، ٦٦] .

• وهذا هو عبد صالح ﴿ فَتَنَّا أَتَاءَ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ ومع ذلك ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩] .

• وهذا المحدث الملهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل ما فعل من خير ويقول : «وددت أن ذلك كفاف لا على ولا لى» ^(١) .

• وهؤلاء أهل التقى والإيمان بصفة عامة، يقول الله عز وجل فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ أي لما ولدت امرأة عمران ووضعت ما فى بطنها كانت المولودة بنتاً ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ فربنا خير شاهد

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٠) .

وعليهم، فقالت امرأة عمران ﴿وَلَيْسَ الذَّكَو كَالْأُنْثَى﴾ أي في القوة والجلادة والصبر والمقدرة على خدمة المسجد، وهذا الذي أرادته امرأة عمران بنذرهما، فإن كان ثم تفضيل للذكر على الأنثى في هذا المقام فهو في هذا الجانب جانب القوة والجلد وخدمة المسجد.

- ثم أوجه آخر لتفضيل الذكور على الإناث ليس محلها هنا، منها: قوامة الرجل على المرأة، وكون الأنبياء والرسل عليهم السلام رجالاً و.....
- أما قوله تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، فقد يحمل على النفع في الآخرة، بقيام الرجل على بناته وإحسانه تربيتهن يأتي مع رسول الله ﷺ كما قال عليه السلام: «من عال جاريتين حتى تبلغا؛ جاء يوم القامة أنا وهو (وضم أصابعه)»^(١).

وقد يكون النفع في الدنيا أيضًا، فكم من رجل انتفع ببناته، وكن سبباً لسعادته في الدنيا، وكم من رجل أُرهِق طغياناً وكفرًا بسبب بنيه الذكور، ولا يخفى في الباب حديث الطفل الرضيع الذي كانت ترضعه أمه، وحديثه في «الصحيحين»^(٢) وفيه: «... وكانت امرأة ترضع ابنًا لها من بني إسرائيل، فمر رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه - قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعة - ثم مرَّ بأمة، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقلت: لم ذلك؟ فقال: «الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقت زنيته ولم تفعل»^(٣).

- أما قولها: ﴿وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ﴾ هكذا اختارت امرأة عمران هذا الاسم

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (ص ١٩٧٦-١٩٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) وفي رواية وهي تقول: «حسبي الله ونعم الوكيل».

لا بنتها والظاهر أن عمران عليه السلام لمن يكن على قيد الحياة آنذاك، والظاهر أنها وُلدت يتيمة بدليل استهام أقربائها على كفالتها كما سيأتي إن شاء الله.

• أذكر ذلك فقد يطرح سؤال ، حاصله هل التسمية حق للأم أم حق للأب؟ أم حق للابن؟

• والظاهر لي ، والله أعلم أن الأب والأم إذا اتفقا على اسمٍ ولم يكن في الاسم ما يُشين الولد أو يهينه جازت التسمية .

• أما إذا اختلفا فالقول قول الأب إذا لم يكن الاسم مُشيناً للابن أما إذا كان الأب ميتاً فالأم هي التي تسمي ولدها والله أعلم.

• هذا ، وتشرع التسمية فور الولادة ، وذلك لقول امرأة عمران حين وضعت مريم عليها السلام: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] ، ولما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ولد لي الليلة ولد سميت به باسم أبي إبراهيم »^(١) . ولما ثبت من أن أنس ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبدالله^(٢) .

• **وثبت أيضاً أن رجلاً قال :** يا رسول الله وُلد لي الليلة ولد فما أُسميه ؟ قال : « سم ولدك عبد الرحمن »^(٣) وقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي أطلب منك يا رب وألجأ إليك وأستجير بك كي تحفظها وتنجيها وتسلمها وتحفظ ذريتها وتسلمهم من الشيطان الرجيم.

ومن معنى ﴿أُعِيدُهَا﴾ أَمْنَعُهَا وَأَجِيرُهَا.



(١) أخرجه مسلم (ح ٢٣١٥) ، وأبو داود (٣١٢٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٨٦) ، ومسلم (١٦٨٤ / ٣) وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعويذات للصبيان (بنين أو بنات)

هذا ويشرع تعويد الصبيان (بنين أو بنات) وهناك تعويذات مشروعة ينبغي أن يفعلها الرجل لحفظ بنيّه والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، من هذه التعويذات ما يلي:

* قبل الولادة عند جماع الرجل لزوجته فليقل : « بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا » ، وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «أما لو أن أحدكم يقول حين يأتي أهله: بسم الله اللهم جنبني الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا، ثم قُدر في ذلك ، أو قضي ولدٌ لم يضره شيطان أبداً»^(١) .

* **ومنها :** عند الولادة لقول امرأة عمران لما وضعت مريم عليها السلام : ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

* **ومنها :** الاستمرار في تعويذهم عند طفولتهم لما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة»^(٢) .

* **ومنها :** كف الصبيان وحفظهم عند المساء لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في «الصحيحين» وفيه : أن النبي ﷺ قال : «إذا كان جنح الليل أو أمسيتم فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من الليل فحلوهم ، فأغلقوا الأبواب ، واذكروا اسم الله ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، وأوكوا قربكم،

(١) أخرجه البخاري (مع الفتحة ٩/ ٢٢٨) ، ومسلم (مع النووي ٥/ ١٠) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (مع الفتحة ٦/ ٤٠٨) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

واذكروا اسم الله وخمروا آيتكم، واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً، وأطفئوا مصابيحكم»^(١).

* وتعليمهم سائر الأذكار التي يحفظهم الله تبارك وتعالى بها . هذا ، وقوله ﷺ: «لم يضره شيطان أبدا».

قال بعض العلماء: أي لا يضره بشر، وقيل: لا يضره بذنب لا يتوب منه ، أي: أنه إذا أذنب وفق للتوبة ، والله أعلم .

* وقد استجاب الله عز وجل دعوة امرأة عمران فقد رزقها الله عز وجل بمريم عليها السلام ، التي اصطفاه الله وطهرها واصطفاه على نساء العالمين، وجعلها وابنها آية للعالمين ، وثبت عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان؛ إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرءوا إن شئتم : ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢) [آل عمران : ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ تقبل الله عز وجل نذر امرأة عمران ، وتقبل مريم عليها السلام واستجاب دعاء أمها فيها - كما بينت - ﴿بِقَبُولِ حَسَنٍ﴾ ، يعني والله أعلم: وأثاب أمها ثواباً حسناً على هذا النذر الذي أخلصت فيه لله عز وجل واستجاب دعوتها وجعل ابنتها من الصالحات الطيبات المخلصات النقيات المؤمنات ورضيها وفاءً للنذر الذي نذرته ، وسلك بها مسلك السعداء وطريق الأتقياء.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ فالمراد : أنه سبحانه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ، وأعطاهها منظرًا جميلاً وحسناً وبهاءً ، والله تعالى أعلم.

ثم من الله عز وجل على مريم عليها السلام بأن جعل زكريا عليه السلام كافلاً

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ١٠ / ٨٨) ، ومسلم (مع النووي ١٣ / ١٨٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٢٣٦٦).

لها ، فتربت في بيت نبوة طاهرٍ وكريمٍ فقلوه تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعله الله كافلاً لها، ثم إن الله عزَّ وجلَّ منَّ على مريم عليها السلام بمنَّةٍ وأكرمها بكرامةٍ ، قال تعالى: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال فريق من العلماء: أن المراد بالرزق (فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء) وذهب آخرون إلى أن المراد بالرزق: العلم ، والقول الأول عليه أكثر العلماء ، لكن تقييد الرزق بأن يكون فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف يحتاج إلى دليل ، والآية تفيد أعم من ذلك ، والله أعلم.

• فیسألها زكريا عن هذا الرزق الحسن الذي يأتيها ومن أي وجه جاءها؟ وكيف أتاها ﴿أَنِّي لَلَّذِي هَذَا﴾ فتجيب عليها السلام بقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ولنعم ما قالت عليها السلام ورضى الله عنها.

• فاستفاد زكريا عليه السلام من كفالاته لمريم ، فذكرته والذكرى تنفع المؤمنين، ذكرته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ، وهذا من فوائد الجليس الصالح يُذكر بالله عزَّ وجلَّ ، فكما أن مريم عليها السلام لما كفَّلها زكريا عليه السلام فتربت في بيت نبوة ونشأت فيه ، فاقبست من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولما منَّ الله عزَّ وجلَّ عليها بالرزق ورأى ذلك زكريا عليه السلام استفاد هو الآخر من ذلك فدعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ فَدَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى ﴿آل عم — ران: ٣٨، ٣٩﴾ ، فاستفاد كل منهما من الآخر.

• وبمجالسة الصالحين يرزق الله العبد محبتهم ، ومن أحب قوماً حُشر معهم .
• وبمجالسة الصالحين نقبَس من أخلاقهم وطيب نجواهم التي يتناجون فيها بالبر والتقوى ، والأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، ومن ثمَّ يؤتينا الله أجراً عظيماً.

• وبمجالستهم تسمع آذاننا الخير ، وترى أبصارنا المعروف ، وتخطو أرجلنا إلى الإحسان.

شيء من قصة زكريا عليه السلام وتبشير به بغيره عليه السلام

قال الله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۖ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝٤١﴾ .

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أي: وعندما رأى زكريا عليه السلام رزق الله عز وجل داراً على مريم عليها السلام، وسألها ﴿أَنِّي لَلرَّحْمَنِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فعند ذلك دعا ربه عز وجل ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ من عندك يارب ، يا من رزقت مريم بغير حساب، يا من لا يعجزه شيء هب لي من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ نسلًا صالحًا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ سميع لدعائي ولا يخفى عليك تضرعي ورجائي ، سميع ومجيب يا ربي!

وقد بين زكريا عليه السلام سبب هذا الطلب ، وسيأتي ذلك في سورة مريم بتفصيل إن شاء الله وعمومًا فإنه يستحب الدعاء بالولد الصالح، قال عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

هذا ، وقد أجاب الله عزَّ وجل دعاء نبيه زكريا عليه السلام قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ ﴾ قال بعض العلماء: ناداه جبريل عليه السلام ، وقال هذا القائل قد يطلق الكل ويُراد البعض كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ . وقال آخرون: بل ناداه غير جبريل عليه السلام ، فالله أعلم .

الحاصل أن الملائكة نادته ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ ﴾ نادته على حال حسن ﴿ قَائِمٌ يُصَلِّي ﴾ وفي موطن حسن ﴿ فِي الْمَحْرَابِ ﴾ وهو دار العبادة ، وهو أشرف المجالس وأكرمها .

ففيه إشارة إلى فضل الجلوس في المساجد وأن الخير يتنزل فيها فالملائكة لم تناد زكريا عليه السلام وتبشره بحيي في سوق من الأسواق ، ولا في خلاء لقضاء الحاجات ، ولا في نادٍ للعب ، ولا في مسرح ، ولا في شارع من الشوارع ، بل نادته وهو قائم يصلي في المحراب ، ففيه فضل المسجد وأن الخير يتنزل فيه ، وقد قال النبي ﷺ : « والملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي يصلي فيه ، تقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ... ما لم يحدث ما لم يؤذ »^(١) .

هذا ، وعن المحراب ، وهو الفتحة المكورة في قبلة المسجد فلا أعلم فيها شيئاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ حظراً أو إباحةً والحديث الذي يثيره البعض (نهينا عن اتخاذ المذابح) ويقصدون بها المحاريب لا يصح بحال والذي يمكن أن يقال أن مسجد رسول الله ﷺ لم ينقل إلينا أنه كان به محراب ، هذا الذي قد يطلب له المستند أما إذا دعت إلى المحراب حاجة (الفتحة المكورة) لتوسيع المسجد أو لبيان القبلة أو لتوفير صفٍّ في المسجد فأرجوا أن لا يكون به بأس والله أعلم .

أما عن ذكر المحاريب في الكتاب العزيز فقد ذكرت في غير موطن قال تعالى في شأن سليمان عليه السلام ، والجن الذين يعملون تحت يديه: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ ﴾ وقال تعالى في شأن داود عليه السلام: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ

(١) البخاري بنحوه (٤٤٥) .

إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٦١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴿٦٢﴾ أَعُوذُ ذَاكِرًا بِشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لَزَكْرِيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَدَاءِهِمْ لَهُ ، لَقَدْ نَادَوهُ قَائِلِينَ ﴿٦٣﴾ أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴿٦٤﴾ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاكَ يَا زَكْرِيَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَبَشَّرَكَ بِيَحْيَى ﴿٦٥﴾ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴿٦٦﴾ أَيُّ مُؤْمِنًا بَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيُّ أَنْ يَحْيَى سَيُؤْمِنُ بَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ، وَخُلِقَ بِكَلِمَةٍ ﴿٦٧﴾ كُنْ ﴿٦٨﴾ أَطْلُقْ عَلَى عِيسَى «كَلِمَةُ اللَّهِ» كَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِأَنَّهُ خُلِقَ بِكَلِمَةٍ ﴿٦٩﴾ كُنْ ﴿٧٠﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿٧١﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٢﴾ .

* **وقال آخرون:** إن معنى كون عيسى كلمة من الله أي معجزة وآية من عند الله.

* **وقال آخرون:** أطلق على عيسى عليه السلام «كَلِمَةُ اللَّهِ» لأنه كان يبرئ الأكفم والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله فإله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿٧٣﴾ وَسَيِّدًا ﴿٧٤﴾ ، في شأن يحيى عليه السلام معناه السيد الذي قد ساد قومه وهو الذي يرجع إليه قومه ، ويتتهون إلى قوله ، وقيل: السيد هو الكريم ، وقيل: هو الفقيه العالم، وقيل: هو الشريف في العلم والعبادة ، ويجوز تسمية الإنسان سيِّداً.

• لقول الله تبارك وتعالى في شأن يحيى: ﴿٧٥﴾ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾ .

• وقال النبي ﷺ لأصحابه يوم بني قريظة لما قدم سعد بن معاذ رضي الله عنه: «قوموا إلى سيدكم» ^(١) .

• وقال النبي عليه الصلاة والسلام في شأن الحسن رضي الله عنه: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٨٠٤) ، ومسلم (حديث ١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٧٤٦) ، وأبو داود (٤٦٦٢) ، والترمذي (٣٧٧٣) ، والنسائي في

- وقال عمر رضي الله عنه في شأن أبي بكر وبلال : «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» ^(١) .
- أما قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾ ، فلاهل العلم فيه أقوال ، وهي :
- الحصور الذي لا يأتي النساء (فهو ما معه إلا مثل الهدبة) ^(٢) .
- وقيل : الحصور الذي لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن .
- وقيل : الحصور الممنوع من الفواحش والقاذورات ، فأصل الإحصار المنع .
- أما أثر عبد الله بن عمرو بن العاص ففيه : (ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنوب غير يحيى بن زكريا) ، ثم قرأ سعيد : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ . ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال : الحصور ما كان ذكره مثل ذي ، وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف إصبعه السبابة .

وسنده صحيح موقوفاً، لكن لعل عبد الله بن عمرو تلقاه من الإسرائيليات ، فهو برواية الإسرائيليات . والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي أن يحيى سيكون نبياً ومن الصالحين كذلك، وإن كان الأنبياء كلهم على صلاح ولكنها هنا درجة أعلى فالصلاح أعم .
فبشر زكريا بيحيى ، وبشر بإيمان يحيى ونبوته وعفته وصلاحه . هذا ، وقد سأل زكريا ربه عز وجل أن يرزقه بيحيى فلما بُشِّرَ - بيحيى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُونُ لِّيْ غُلَامًا مِّنْ أَوْفَىٰ بِرَبِّكَ وَأَعِزَّنِي فِي الْوَالِدَيْنِ إِنِّي أَخَافُ الْكَفْرَ﴾ ، وقد تقدم بي السن ﴿وَأَمْرًا لِّيْ بِعَاقِرٍ﴾ عقيم لا تلد ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

= (الفضائل ٦٣) ، وغيرهم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(١) صحيح ، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٠١٤) ، وابن سعد في «الطبقات» (١٦٦/١/٣) .
(٢) أخرج الطبري بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب أنه قال: (ليس أحد إلا يلقى الله عز وجل يوم القيامة ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا كان حصوراً معه مثل الهدبة)؟ الطبري في «التفسير» (٦٩٨٢) وصح عن عبد الله بن عمرو موقوفاً عليه نحو التفسير المذكور عن ابن المسيب للحصور وقد روي عن ابن عمرو عن النبي ﷺ ، ورجح ابن كثير أنه موقوف على ابن عمرو من قوله ، وهذا الذي رجحه ابن كثير رحمه الله هو ما تطمئن إليه نفسي وانظر هذه المصادر : «الزهد» لأحمد (١١٤١) ، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤٨٣/٢) ، «وتفسير الطبري عند الآية المذكورة» .

فتبارك الله فعلاً لما يريد ، فكما خلقت سبحانه وتعالى فإنه يخلق يحيى والله على كل شيء قدير .

• وهنا قد يطرح سؤال حاصله ما سبب تعجب زكريا من البشارة بيحيى وقد دعا ربه بذلك؟

• وأجاب بعض العلماء على ذلك بأجوبة منها:

• **الجواب الأول:** أنه أجيب بعد زمنٍ من دعوته ، وهذا الجواب ضعيف لأن زكريا قد دعا بذلك عند الكبر وكما هو واضح في سورة مريم عليها السلام .

• **الجواب الثاني:** أنه تعجب من سرعة إجابة الله عز وجل دعاءه .

• **الجواب الثالث:** أنه سأل مستفسراً هل سيرزق بالولد من زوجته هذه أم أنه سيتزوج بأخرى؟!

• **الجواب الرابع:** هل سيردُّ شاباً مرة ثانية أم سيرزق وهو شيخ كبير .

• **الخامس:** أن زكريا عليه السلام طلب مزيداً من الحديث للاستمتاع به والله تعالى أعلم .

هذا ، ويستفاد من قصة زكريا عليه السلام عدم اليأس من رحمة الله عز وجل ، بل يواصل العبد الدعاء لا ينقطع رجاءه في الله عز وجل ، فزكريا عليه السلام وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً وبلغ من الكبر ومع ذلك كله يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] ، ورب العزة سبحانه لا يخيب دعاءه ؛ بسلام اسمه يحيى .

• وهذا يعقوب عليه السلام يؤخذ ولده يوسف قرة عينه ، ويذهب به إلى غيابة الحب ، ثم يُخرج منها ، ويذهب به إلى بيت العزيز حتى يشب ويتعرعر ويبلغ أشدة ، كل ذلك وهو بعيدا عن أبيه ولا يعلم عنه أبوه شيئاً ولا يعرف له طريقاً ، ثم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ، ثم يدخل السجن فيلبث فيه بضع سنين ، ثم يُخرج من السجن ، ويبقى على خزائن الأرض حفيظاً عليماً ، ثم يأتي إخوانه من مصر إليه ، ومع ذلك كله يقول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَبْنَئِ أَوْ هَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ

وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾
[يوسف: ٨٧] فيرد الله عز وجل إليه ولده بعد طول غياب ، وعقب طول سنين .

• وهذا نبي الله أيوب عليه السلام يلبث به بلاؤه ثمانية عشر سنة حتى يرفضه القريب والبعيد فيدعو ربه وهو يعلم أن الله عز وجل يجيب السائلين ، فيقول عليه السلام : ﴿أَنِّي مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ **[الأنبياء: ٨٣]** فيستجيب الله عز وجل له ، ويكشف ما به من ضرٍّ ويؤتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من الله سبحانه وذكرًا للعابدين ^(١) .

• وهذا نوح عليه الصلاة والسلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ صابرًا على تكذيب قومه له وأذاهم إياه ، ومع ذلك كله لا ييأس من استجابة الله لدعائه فيقول : ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ **[القمر: ١٠]** ، فيفتح الله السماء بهاء منهمر ، وتُفجر الأرض عيونًا فيلتقي الماء على أمر قد قدر ، وينجيه الله بحمله على ذات ألواح ودسر ، وغير هذا كثير .

• هذا ، وقول زكريا عليه السلام : ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي : علامة أستدل بها على أن زوجتي قد حملت فأجابه الله عز وجل بقوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ النَّاسَ وَلِلَّهِ أَلِيَّةٌ﴾ أي : أستدل بها على أن زوجتك قد حملت أنك ستمنع من الكلام - إلا من ذكر الله - ستمنع وأنت صحيح بلا مرضٍ ولا آفة كما قال تعالى : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ النَّاسَ وَلِلَّهِ أَلِيَّةٌ﴾ .

• وقوله : ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ أي : إلا إشارة سواء بالعينين أو بالشفوتين أو بالجوارح أو إيماء أما الكلام فلا .



(١) صحيح وقد تقدمت الإشارة إليه .

الأمر بالإكثار من ذكر الله عز وجل وشيء من فوائد الذكر

وقوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ فيه حث على الإكثار من ذكر الله عز وجل فذكر الله له فوائد عظيمة وجليلة ولا يكاد يُرخص لأحد في تركه، إما بالقلب أو باللسان ، ولو رخص لأحد في تركه لرخص لتركها عليه السلام (لما مُنع من الكلام) ولكن الله عز وجل قال له : ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ .

[آل عمران : ٤١]

• وكذلك لو رخص لأحد في تركه لرخص للرجل يكون في الحرب، ولكن الله عز وجل قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَيُكْفَى فَاثْبَتُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

• وقد كان عليه السلام يذكر الله على كل أحيانه ^(١) ، وأولو الألباب يذكرون الله عز وجل قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم .

• وقد طلب موسى عليه السلام من ربه عز وجل أن يؤيده بهارون عليه السلام معللاً ذلك بقوله : ﴿كَيْ سَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٢) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) [طه : ٣٣-٣٥] .

• وأمر الله سبحانه بكثرة الذكر فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

• وقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢) .

[البقرة : ١٥٢]

• وقال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال : ٤٥].

(١) أخرجه (مسلم مع النووي) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

- وقال عز وجل : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَآلْيَوْمَ الْآخِرِ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].
- وقال عز وجل : ﴿وَالَّذِكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذِكِرَتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].
- وجعل الله عز وجل طمأنينة القلب في ذكره عز وجل ، فقال : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].
- وبين النبي ﷺ أن أهل الذكر هم السابقون ، فقال عليه الصلاة والسلام : «سبق المفردون» ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ، قال : «الذاكرون الله كثيرا والذاكرات»^(١).
- وبين عليه الصلاة والسلام أن رطوبة اللسان تتأتى ، بذكر الله عز وجل ، فقال عليه الصلاة والسلام : «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عز وجل»^(٢).
- وأهل الذكر يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، قال رسول الله ﷺ : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(٣).
- ومجالس الذكر تحفها الملائكة ، وتغشاها الرحمة ، وتنزل عليها السكينة ويذكر الله عز وجل أهلها فيمن عنده ، ويغفر الله عز وجل لهم^(٤).
- ومن جالس الذاكرين غفر له معهم وإن كان من الخطائين^(٥).
- وبالذكر تغفر الذنوب وتحط الخطايا ، وترفع الدرجات ، وتقال العثرات

(١) أخرجه مسلم (مع النووي ١٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٣) ، وأحمد (١٨٨/٤) ، والترمذي (٣١٤/٩) مع التحفة) ، وابن حبان

«موارد الظمان» (٢٣١٧) من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه ، وإسناده صحيح ..

(٣) أخرجه مسلم (١٢٠/٧) ، والبخاري (مع الفتاح ١٤٢/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

(٤) انظر : «صحيح مسلم» (مع النووي ١٧/٢٢).

(٥) ففي «الصحيحين» : «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

وَيُمَلَأُ الْمِيزَانَ وَيَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَثْقُلُ الْمِيزَانَ ، وَتُدْخِرُ الْكَنُوزَ فِي الْجَنَانِ ، وَتَخْنَسُ الشَّيَاطِينَ ، وَيَرُدُّ كَيْدَ السَّحَرَةِ وَالْحَاسِدِينَ ، وَتُوسِعُ الْأَرْزَاقَ ، وَتُدْفَعُ الْبَلِيَّاتِ ، وَيَذْكُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَبْدَ وَيُجِلُّهُ رِضْوَانَهُ ، وَيَسْكُنُهُ فَسِيحُ جَنَانِهِ .

• وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ أي وصل لربك آخر النهار وأوله. هذا والتسبيح أحياناً يطلق على التسبيح المعهود بقولنا (سبحان الله) وأحياناً يطلق على الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ والمراد صلاة الصبح وصلاة العصر وأحياناً يطلق على صلاة النافلة (صلاة السنة) ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما لو كنت مسبحاً لأتممت .

• وقوله تعالى: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ أي آخر النهار. وقيل من زوال الشمس (أي من زوالها عن منتصف السماء، ويكون ذلك ظهراً) إلى غروبها . و﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى والله أعلم.



جواز تكليم الملائكة بني آدم

- هذا ، وفي الآيات المتقدمة إمكانية مخاطبة الملائكة بني آدم.
- فهذا هي الملائكة تنادي زكريا وهو قائم يُصلي في المحراب : ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِبَيِّنَةٍ﴾ .
 - وكذلك مخاطبات جبريل لرسول الله ﷺ التي لا تكاد تحصى .
 - وسؤاله له عن الإسلام والإيمان والإحسان بحضرة أصحاب رسول الله ﷺ ، وقول جبريل لرسول الله ﷺ : «ما تعدون أهل بدر فيكم...» ^(٢) . الحديث ، وقول رسول الله ﷺ لعائشة : «يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام» قالت : وعليه السلام ورحمة الله ترى ما لا نرى يا رسول الله ؟!!! ^(٣) .
 - ودخلت الملائكة على لوط وعلى إبراهيم عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات : ٢٤] .
 - وهذه الأحاديث لا تحصى .
 - وغير الأنبياء كذلك ، فعمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت الملائكة تُسَلِّمُ عليه ^(٤) .
 - وفي قصة الأقرع والأبرص والأعمى جاءهم الملك ليبتليهم ، والله تعالى أعلم .

(١) أخرجه مسلم (حديث ٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٩٢) من حديث رفاعة بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً .

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٦٨) ، ومسلم (٢٤٤٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

(٤) أخرجه مسلم (مع النووي ٨/٢٠٦) من طريق مطرف قال : بعث إلى عمران بن حصين في مرضه الذي توفي فيه ، فقال : إني كنت محدثك بأحاديث لعل الله أن ينفعك بها بعدي ، فإن عشتُ فاكم عني ، وإن مت فحدّث بها إن شئت : إنه قد سَلَّمَ عليّ ، واعلم أن نبي الله ﷺ قد جمع بين حجب وعمره ، ثم لم ينزل فيها كتاب الله ، ولم ينه عنها نبي الله ﷺ حتى قال رجل فيها برأيه ما شاء . صحيح ، وسيأتي إن شاء الله ..

عود إلى قصة مريم عليها السلام وتبشيرها بعيسى صلى الله عليه وسلم

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤٢ يَمْرَيْمُ اقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ٤٣ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤ ﴾

الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ٤٦ ﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٤٧ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ واذكر قول الملائكة لمريم عليها السلام : ﴿ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ اختارك واجتباك وليس معنى أن الملائكة كلمتها أنها أصبحت من الأنبياء ، ولقد قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ وقد يكون الوحي أحياناً بمعنى الإلهام. هذا ، وقد ذكر في الآية الكريمة اصطفاء ان وتطهير : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أما الاصطفاء الأول : فالاصطفاء

هو الاختيار، فقال بعض أهل العلم: إن المراد منه: أن الله عزَّ وجل اختارها من بين نساء زمانها لخدمة المسجد والبقاء في المحراب - ولم يكن هذا يحدث لنساء زمانها - فساعدتها ذلك على كثرة العبادة والتفرغ لها، وزادها ذلك شرفاً ورفعة، ثم إن الله تبارك وتعالى رزقها من ذكره وشكره وحسن عبادته - سبحانه وتعالى - ما لم يرزق نساء زمانها، وهذا من عظيم فضل الله سبحانه وتعالى.

وأيضاً كملها الله سبحانه وتعالى، فقد قال رسول الله ﷺ: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٍ وَلَمْ يَكْمَلِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ...» الحديث.

• **أما التطهير، فالمراد به - والله أعلم -**: تطهير من الشرك والأدناس والذنوب والمعاصي والأغلال والأحقاد ونحو ذلك..

• **أما من قال**: إنه تطهير من الحيض والنفاس فقوله ضعيف، فالحيض كتبه الله على بنات آدم، ومريم داخلة فيهن.

• **وكذلك قول من قال**: إنه تطهير من مسيس الرجال ومن الحيض والنفاس، فمريم عليها السلام لم يمسه رجل فيما علمنا، لكن هل يقال على من تزوجت ومسها زوجها إنها غير مطهرة؟! كلا، فأزواج النبي ﷺ قال الله عز وجل في شأنهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

[الأحزاب: ٣٣]

• وكذلك فاطمة رضي الله عنها من سيدات نساء أهل الجنة، ومع ذلك تزوجها على رضي الله عنه ووضعت له أولاداً.

ثم لم يرد لنا دليل عن المعصوم ﷺ يفيد أن مريم لم تحض ولم تنفس، والله تعالى أعلم.

• **أما الاصطفاء الأخير فمعناه - والله أعلم -**: التفضيل، والمراد: أن مريم عليها السلام فضلها الله على نساء العالمين، وجعلها إحدى سيدات أهل الجنة، واصطفاه الله سبحانه لولادة عيسى عليه السلام، وجعلها وابنها آية للعالمين.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

قال بعض أهل العلم فيه: على نساء العالمين في زمانها.

أو أنها اصطفت على نساء العالمين في بابٍ من الأبواب إذ الله جعلها وابنها آية للعالمين، وجعلها صديقة، وجعلها إحدى سيدات نساء أهل الجنة.

• وهي الوحيدة التي ذكر اسمها في القرآن من النساء، فلم يذكر في القرآن أي اسم لامرأة إلا مريم عليها السلام.

• وأيضاً تمثل لها جبريل عليه السلام بشراً سوياً فكلمها وكلمته ونفخ فيها ووهب لها غلاماً زكياً إلى غير ذلك.

• وقوله تعالى: ﴿يَمْرِيءُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أطيعي ربك عز وجل وأطيلي القيام في الصلاة بين يديه واخشعي لربك ﴿وَأَسْجُدِي﴾ لربك ﴿وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ادخلي في عداد المصلين، أو صل مع المصلين.

• **وقال بعض العلماء:** قدم السجود على الركوع لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، كما أن الساجد أقرب إلى ربّه من الراكع كما في الحديث «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد» أخرجه مسلم^(١). هذا، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن (الواو) في قوله ﴿وَأَزْكِي﴾ لا تفيد ترتيباً فالله أعلم.



(١) مسلم (٢٠٠/٤).

النعم تستلزم شكرا

هذا ، ويستفاد من الآية الكريمة أن النعم تستلزم مزيدًا من الشكر، وهذه بعض الأدلة على ذلك :

• لما أنعم الله عز وجل على موسى عليه السلام باصطفائه على الناس برسالات وبكلامه أمره الله عز وجل بمزيد من الشكر. قال الله سبحانه: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال سبحانه: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾

[الأعراف: ١٤٥]

• ولما أنعم الله عز وجل على مريم عليها السلام بالاصطفاء والتطهير، والاصطفاء أمرها بالقنوت والسجود والركوع ، قال تعالى: ﴿يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٣] يَمْرِيئُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿[آل عمران : ٤٢، ٤٣].

• ولما منَّ الله سبحانه على نبينا محمد ﷺ بالرسالة وجاءه الوحي، قال الله عز وجل له : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ ۚ ۝١ قُلِ الْبَلِّ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ يَصْفَهُ ۚ أَوَانْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرِثَلِ الْقُرْآنِ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَاذْكُرْ أَتَمَّ رَبِّكَ وَبَبْتَ لَإِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٨].

• وكان عليه الصلاة والسلام يقوم حتى ترم قدماه ويقول: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

• ولما منَّ الله سبحانه على أزواج نبيه محمد ﷺ بالزواج منه عليه الصلاة والسلام قال الله سبحانه وتعالى هن: ﴿يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ مِنْ يَّاتٍ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [٣٠] وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ

- صَلِحًا تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿[الأحزاب: ٣٠، ٣١].
- وقال الله سبحانه : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم : ٧].
 - ولما منَّ الله سبحانه على يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وآتاه الله الحكيم صبيًا قال الله له : ﴿يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم : ١٢].
 - ولما حفظ الله المؤمنين من أهل الكفر وكف أيديهم عنهم قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة : ١١].
 - وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الذي أخبرناك به يا رسول الله من أخبار زكريا ومريم عليهما السلام أمور لم تكن شهادتها ولا قرأت عنها ولكنها أوحيناها إليك فهذا قوله : ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نخبرك به بطريق الوحي ، نزل عليك جبريل عليه السلام به .
 - وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ حاصل معناه - والله أعلم - : أنك ما كنت حاضرًا يا محمد عندما اختصم القوم في تربية مريم عليها السلام وكفالتها ، فقد تنازع القوم كلُّ يريد أن يكفلها ، واختصموا في ذلك ، فاتجهوا إلى القرعة فيما بينهم ، فألقوا أقلامهم في اليم .
 - **قال بعض العلماء :** ألقوا جميعًا الأقلام في الماء ، فمن ثبت قلمه كفلهما ، ومن جرى قلمه مع الماء الجاري لم يكفلها ، فجرت أقلامهم جميعًا وثبت قلم زكريا عليه السلام ، فكفلها زكريا عليه السلام .



بعض دلائل النبوة

هذا ومن دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ إخباره بأمر قد حصلت من قبله ولم يكن شهدا ولا قرأ عنها ولكن الله أخبره بها أصدق الأخبار ، وكثيرا ما يرد مثل هذا في الكتاب العزيز، كقوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ وكقوله تعالى في شأن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ومثله كثير جدًا فالله أعلم.



الأدلة على جواز القرعة في المشكلات

وفي الآية دليل على جواز القرعة في المشكلات ، وعلى ذلك جملة من الأدلة كقوله تعالى في شأن يونس عليه السلام : ﴿ فَسَاهِمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ وكون النبي ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ^(١) .

وقول النبي ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها » : الحديث ^(٢) .

وقول النبي ﷺ : « لو تعلمون ما في النداء والصف الأول لاستهتم عليه » ^(٣) .

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة اقترعت الأنصار سكنى المهاجرين فطار سهم عثمان ابن مظعون لأم العلاء ^(٤) .

وفي « صحيح البخاري » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ عرض على قوم اليمين فأمر أن يسهم بينهم في اليمين أيهم يحلف ^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيُمْ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ المعنى ، والله أعلم واذكر قول الملائكة عليهم السلام لمريم عليها السلام ، وبعد أن أنبتها الله عز وجل نباتاً حسناً : ﴿ يَمْرِيُمْ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أطلق عليه كلمة لأن الله خلقه من غير أب وإنما خلقه بكلمة ﴿ كُنْ ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى

(١) سيأتي تحريمه إن شاء الله في سورة النور (حديث الإفك).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) أخرجه البخاري (مع الفتح ٩٦/٢) ، ومسلم (مع النووي ١٥٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٨٧) من حديث أم العلاء رضي الله عنها .

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٧٤).

عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾ هذا ، وقد سماه الله عزَّ وجلَّ قبل أن يولد ﴿٢﴾ اِسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴿٣﴾ وأكرمه الله عزَّ وجلَّ وأكرم مريم عليها السلام به ﴿٤﴾ وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿٥﴾ .

أما وجاهته في الدنيا عند الله سبحانه وتعالى فيما اجتباها به ربه من النبوة والرسالة والإنجيل الذي أنزله عليه ، وأيضا عند الناس بما أجرى الله على يديه من شفاء الأسقام (الأكمه والأعمى والأبرص) وإحياء الموتى بإذن الله وكونه مباركا أينما كان عليه الصلاة والسلام .

• **أما وجاهته في الآخرة فمنها :** علو منزلته في الآخرة ؛ لأنه من أولى العزم من الرسل وشفاعته فيمن يشفعه الله فيه ، والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ فهذه منزلة عظيمة عليه كريمة لعيسى عليه السلام ، وقد قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ .

ثم إن الله عزَّ وجلَّ منَّ عليه بآية عظيمة فأنطقه في المهد ، قال تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ والمهد هو فراش الصبي الرضيع وتفصيل كلام عيسى عليه السلام في المهد مبسوط في سورة مريم عليها السلام إذ قال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ .



بعض من تكلموا في المهد

هذا ، وقد تكلم عددٌ في المهد والذي تحصل لي بالأدلة الصحيحة منهم.

١ - عيسى عليه الصلاة والسلام ^(١) .

٢ - غلام جريج ^(٢) .

٣ - غلام أصحاب الأخدود ^(٣) .

(١) قال الله سبحانه : ﴿ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ (٧) يَتَأَخَذَ هُنُوتَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ (٨) فَاشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ (١٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا ذُمْتُ حَيًّا ﴾ (١١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (١٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿ (مريم : ٢٧ - ٣٣) .

(٢) أخرج البخاري (٣٤٣٦) ، ومسلم (ص ١٩٧٦ - ١٩٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ، وكان في بني إسرائيل رجل يُقال له : جريج كان يُصلي فجاءته أمه فدعته فقال : أجيبيها أو أصلي فقالت : اللهم لا تُمتنه حتى تُريه وجوه المومسات ، وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته ^(*) فأبى فأنت راعيًا فأمكنته من نفسها فولدت غلامًا فقالت : من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبّوه فتوضأ وصلى ، ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : الراعي ، قالوا : نبني صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين . وكانت امرأة ترضع ابنًا لها - من بني إسرائيل - فمر رجل راكب ذو شارة فقالت : اللهم اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله ... » الحديث .

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ... »

فذكر الحديث ، وفيه : « ... فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخذت وأضرمت النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها ، أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : يا أمه اصبري فإنك على الحق » .

وأخرجه أيضًا الترمذي (٣٣٤٠) وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأخرجه أيضًا ابن جرير الطبري في « التفسير » (٨٥ / ٣٠) .

(*) في رواية فقالت : لأفتنن جريجًا ، وفي رواية مسلم : « وكانت بغية يتمثل بحسنها فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم ، فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأنت راعيًا كان يأوي إلى صومعة فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت : من جريج ... » الحديث .

٤ - ابن ماشطة فرعون^(١).

٥ - الطفل الذي كانت ترضعه أمه فرأت جباراً فقالت : اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك ثديها ، وقال : اللهم لا تجعلني مثله... الحديث^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٣٠٩ / ١) من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كانت الليلة التي أُسرى بي فيها أتت عليّ رائحة طيبة فقلت : يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ فقال : هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون إذ سقطت المدرى من يديها فقالت : بسم الله فقالت لها ابنة فرعون : أبي ؟ قالت : لا ، ولكن ربي ورب أبيك الله ، قالت : أخبره بذلك ؟ قالت : نعم فأخبرته فدعاها فقال : يا فلانة وإن لك رباً غيري ؟ قالت : نعم ربي وربك الله عز وجل ، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها ، قالت له : إن لي إليك حاجة . قال : وما حاجتك ؟ قالت : أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفنا ، قال : ذلك لك علينا من الحق ، قال : فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع ، وكأنها تقاعست من أجله ، قال : يا أمه اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فافتحمت ».

وهذا الراجح عندي فيه أنه صحيح ، وإن كان بعض أهل العلم تكلم في سماع حماد بن سلمة من عطاء بن السائب ، وأنه بعد الاختلاط إلا أن جمهور المحدثين على أنه روي عنه قبل الاختلاط ، وإن ذكر البعض أنه روي عنه بعد الاختلاط أيضاً ، لكن يفهم من كلامهم أن جُل روايته عنه قبل الاختلاط ، فضلاً عن هذا فإن الحديث مصحوب بقصة ، وقد ذكر البعض أن الحديث إذا كان مصحوباً بقصة دل ذلك على ثبوته وخاصة إذا كان فيه ما يشعر بالرفع كحالنا هذا ، ففيه : « مررت ليلة أُسري بي ... فضلاً عن هذا فلبعض فقرات الحديث شاهد بإسناد ضعيف عند ابن ماجه من طريق سعيد بن بشير (وهو ضعيف) عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ببعض معناه ، فالحديث يصح . والله أعلم .

هذا ، وفي آخر الحديث عند أحمد موقوفاً على ابن عباس أنه قال : (تكلم في المهد أربعة صغار عيسى ابن مريم عليه السلام ، وصاحب جريج ، وشاهد يوسف ، وابن ماشطة فرعون) ، وهذا موقوف على ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) صحيح ، وتقدم في ثانيا حديث غلام جريج .

أما على سبيل الحصر (بما في ذلك من ضعيف وصحيح) فقد أوصلوا الذين تكلموا في المهد إلى أحد عشر ، نظمهم السيوطي في قوله :

تكلّم في المهد النبي محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم

=

هذا ، وقوله عز وجل ﴿وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكهل ما بين الشباب والشيخوخة ، وقيل من ناهز الأربعين .

ولذكر تكليمه الناس في كهولته فوائد ، منها :

١ - أنه عليه السلام كما أنه كان معجزة في تكليمه للناس في المهد ، فإنه سيكلمهم بالوحي والنبوة في كهولته ، وهذا وجه إعجاز أيضًا .

٢ - أنه عليه الصلاة والسلام كان طفلاً وسيكون شاباً ، ثم كهلاً ففي هذا دليل على أنه يسري عليه ما يسري على البشر ، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم : ٥٤] ، وعلى ذلك فلا يكون عيسى رباً بحال من الأحوال ، ففي الآية رد على النصارى إذن .

٣ - أنه سيعيش حتى يكون كهلاً ، وفي هذا أيضًا إعجاز لكونه إخبارًا بالغيب وتبشيرًا لأمه بأنه سيعيش حتى الكهولة عليه السلام . ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ قالت مريم عليها السلام متعجبة من هذه البشارة : من أي وجه يأتيني الولد ولم يمسسني بشر بجماع ، فلست بمتزوجة وكذا فالحمد لله لم أرتكب فاحشة عيادًا بالله من الفواحش ، وهذه الآية كقولها : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فأجيب عليها السلام ، ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إن شاء خلق إنسانا بغير أب كعيسى عليه السلام أو بغير أم كحواء عليها السلام أو بغير أب ولا أم كآدم عليه السلام ، وغير ذلك أيضًا ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ إذا أراد أمرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ على الوجه الذي يريده الله عز وجل .



وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم	ومُبري جريج ثم شاهد يوسف
يقال لها تزني ولا تتكلم	وطفل عليه مُر بالأمّة التي
وفي زمن الهادي المبارك يختم	وماشطة في عهد فرعون طفلها

ذكر شيء من شأن عيسى عليه السلام وقصته وشيء من فضل الله عليه

قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ
رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي
الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ
وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ
رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ .

ذكر الله عز وجل بعض نعمه على عيسى عليه السلام وبعض ما تفضل به عليه ،
فقال سبحانه ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ قيل : المراد بالكتاب
في هذا المقام الكتابة ، وقيل المراد عموم الكتب التي تقدمته قالوا : فقد علم الله عز
وجل عيسى عليه السلام الشرائع المتقدمة أما ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ فلها معانٍ ، ومن
معانيها هنا والله أعلم وضع الشيء في موضعه اللائق به والمناسب له فإذا تكلم تكلم
بالكلمة في موضعها ، وإذا سكت سكت في موضع السكوت ، وإذا عمل عملاً كان
العمل مناسباً للمقام أما ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ فهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه

السلام ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ الكتاب الذي أوحاه الله إلى عيسى عليه السلام. وهذا الذي ذكر من تعليم عيسى عليه السلام الكتب المتقدمة التي أنزلها الله عز وجل ، وكذا تعليمه التوراة والإنجيل من أعظم النعم. فالعلم مع الإيمان والتقوى من أعظم نعم الله عز وجل بل أعظمها.

وكذا فقد من الله عز وجل على عيسى عليه السلام بأن جعله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي وجعله الله عز وجل رسولاً إلى بني إسرائيل ، بل هو من أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولكن عيسى عليه السلام كان رسولاً إلى قومه خاصة وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. ومن قول النبي محمد ﷺ «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»^(١) أما قوله ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي وقد جئتكم مؤيداً بمعجزة من ربكم وبرهان على أني رسول الله إليكم ، وبرهان على وحدانية الله عز وجل وقدرته، وهذا البرهان له صور منها ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أصنع وأصور من الطين أشكالا على هيئة الطير ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. فيتحول بعد نفخي فيه إلى طير حقيقي يطير كسائر الطيور ، وذلك بإذن الله عز وجل ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ وأشفي الأعمى فيتحول إلى مبصر ، فالأكمه من ولد أعمى ، وقيل هو الذي يبصر ليلاً ولا يبصر نهاراً. وكذا أشفي ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ والبرص بياض معروف بالجلد عجز الأطباء عن إيجاد دواء له ، أفعل ذلك أشفي ﴿الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ بإذن الله وكذا ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يقول عليه السلام للميت قم، أو كن حياً، أو بأي لفظ يهديه الله إليه فيحيا الميت ويتكلم ويتحرك بإذن الله ويفعل ما يفعله الأحياء ، وكل ذلك بإذن الله.

هذا ، وقد قال بعض أهل العلم: إن الله عز وجل من على الأنبياء بمعجزات من جنس ما برع فيه أهل زمانهم من العلوم ، ولكنها فاقتها بكثير ، ولايضاح ذلك

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وقد تقدم.

أقول، وبالله التوفيق:

إن قوم موسى عليه السلام لما تفوقوا في السحر أيد الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بالعصا التي تحولت إلى حية تسعى ، وأيده الله بأنه عليه السلام أمر بإدخال يده في جيبه فإذا هي تخرج بيضاء من غير سوء.

• وكذلك قوم عيسى عليه السلام لما كانوا متفوقين في الطب أيد الله عز وجل نبيه عيسى عليه السلام بمعجزات : إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه ، والأبرص ، ونحو ذلك.

• وكذلك أهل مكة لما برعوا في البلاغة والشعر أيد الله سبحانه نبيه محمد ﷺ بالقرآن وتحداهم الله عز وجل أن يأتوا بسورة من مثله ، بل بآية من مثله . والله تعالى أعلم.

• وقوله: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ، حاصله أن من نعم الله على عيسى عليه السلام ، ومن المعجزات التي أيده بها أنه يُخبر الناس بما سيأكلون مما لم يطلعوا عليه ولم يطلع هو عليه إلا بإذن الله) ويُخبر القوم بما يدخرونه في بيوتهم من الطعام وغيره.

• وذكر بعض العلماء أن المراد بذلك الطعام الذي سينزل في المائدة التي جاءتهم من السماء ، يخبرهم به قبل نزولها ، ويخبرهم بالطعام الذي سيخفونه منها ويذهبون على بيوتهم والقول الأول أقوى ، والله أعلم.

• والآية الكريمة كقول الصديق يوسف عليه السلام للسجينين ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِهِتَأْوِيلُهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي في هذه المعجزات التي أتيتكم بها من عند الله دلالة لكم على أني رسول من عند الله إليكم ، وفيها دلالة لكم على قدرة الله عز وجل ووحدانيته إن كنتم مصدقين بالمعجزات مُقرين بوحدانية الله وقدرته .

• وقوله : ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ لها معنيان .

الأول : مؤمناً بالتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، تلك التي تقدمتني وسبقتنني .

الثانية : أن مجيئى تصديق للتوراة ، فقد جاء في التوراة أن الله سيبعثني فمجيئى تصديق لها . والله أعلم .

وقوله: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فقد كانت هناك أشياء حُرِّمَتْ على بني إسرائيل قبل مجيئ عيسى عليه السلام، فجاء عليه السلام بتحليلها وإباحتها ولأهل العلم في ذلك قولان.

أولها: أن الذي حُرِّم عليهم هو الذي حرَّمه الله عليهم بذنوبهم التي ارتكبوها ومعاصيهم التي اقترفوها ، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وكما ورد في قوله تعالى: ﴿فَيُظْلَمُونَ أَلَّا يَحِلَّ لِمَنْ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [١١٠] وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوْا وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء ١٦٠، ١٦١]. ونحو ذلك.

الثاني : أن المراد بقول عيسى عليه السلام : ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران : ٥٠] أن المراد هنا بالذي حرَّم عليهم هو ما حرَّمه عليهم أحبارهم وافتروا على الله عز وجل القول بتحريمه.

• فعلى القول الأول فالمراد بتحليله لهم هو نسخ الحكم الأول ، فالذي كان محرماً بالنص جاء تحليله بالنص أيضاً.

• وعلى القول الثاني فالمراد بالتحليل كشف افتراءات الأحبار الذين أدخلوا في الدين ما ليس منه وبيان حِلِّ ما حرَّموه ولا مانع من أن تنتظم الآية الكريمة المعنيين معاً، والله تعالى أعلم .

وقوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بمعجزة من ربكم ودلالة على أن الله

بعثني إليكم ، ودلالة على أن هذه الأشياء التي كانت محرمة أبيحت لكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ اجعلوا بينكم وبين غضب الله وعقابه وقايةً ، وأطيعوني ففي طاعتكم لي واتباعكم لي وقاية أيضاً من عذاب الله فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ثم قال عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ، منعكم على بنعمة فكل نعمة أنا فيها وكذلك كل نعمة أنتم فيها إنما هي من الله فهو الذي يرينا بنعمه، وهو سيدنا ومتولي أمورنا ، وهو معبودنا الذي نعبد جميعاً ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ اسمعوا له وأطيعوا وتقربوا إليه بكل ما أمركم به وانهوا عما نهاكم عنه وصلوا لله واسجدوا واركعوا ، واسألوه ، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فهذا هو الطريق الذي لا إغوجاج فيه ، الطريق الذي يوصلكم إلى جنات الله عز وجل ومرضاته.



**مَكَرُ أَهْلِ الْكُفْرِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَفَظَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ ،
وَسَلَامَتَهُ مِنْ مَكْرِهِمْ وَرَفَعَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٥٣ ﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ٥٤ ﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ٥٥ ﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِي مَتَّى أَتُوفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ بِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٥٦ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٥٧ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ فلما شعر عيسى عليه السلام وعلم ووجد منهم الكفر، أي من أهل التكذيب من بني إسرائيل بدأ عليه السلام يميز الصفوف، ويعرف من معه ممن هو عليه، يُميز المؤمن من الكافر، والصالح من الطالح وقال: ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ من ذا الذي ينصرتني حتى أبلغ رسالة ربي، ومن ذا الذي ينصرتني ويعينني ويؤازرنني ويشد عضدي في دعوتي إلى الله.

وقال آخرون من أهل العلم: إن (إلى) بمعنى (مع) كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم فالمعنى من أنصاري مع الله. ونحوه جائز من الشرائع، أي ونحو ما قاله عيسى عليه السلام روى عن النبي محمد ﷺ أنه قال: «ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل»^(١).

وقال موسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ ﴿٣١﴾ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ سَحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَاصِرًا ﴿٣٥﴾.

[طه: ٢٩ - ٣٥]

وقال النبي ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك (بأي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب)»^(٢).

فلما قال عيسى ذلك، لما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ بادر الحواريون بإعلان إيمانهم وتصديقهم لعيسى عليه السلام ومؤازرتهم له قائلين ما أخبر الله به عنهم ﴿قَالَ الْمَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أما عن الحوارى فمن معانيه الناصر وحوارى الرجل هو: صفوته وخلاصته، وقال بعض العلماء: إنه مأخوذ من الحور، وهو البياض عند أهل اللغة، وقال البعض: إن الحوارى: الوزير، وقيل: هم أصفياء الأنبياء.

وقيل: إنهم سموا بالحواريين لبياض ثيابهم، والله أعلم.

وقيل: إن النساء أطلق عليهن الحواريات لبياضهن، والله أعلم.

هذا، وقد قال النبي ﷺ: «لكل نبي حوارى وحوارى الزبير»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٦٩٢٥)، وابن ماجه حديث (رقم ٢٠١) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه الترمذي (حديث ٣٦٨١)، وأحمد (٩٥/٢)، وابن حبان (٢١٧٩) وعبد بن حميد في «المنتخب» (٧٥٧)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٣١٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١/ ١٩١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٣) أخرجه البخاري (٤١١٣) ومسلم (٢٤١٤).

أما قولهم: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ نؤازرك في دعوتك إلى الله ونعاونك ونشد عضدك ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ صدقنا بوحدانيته وقدرته وأقررنا بذلك وأيقنا به وعملنا وتكلمنا بمقتضى ذلك ﴿وَأَشْهَدُ﴾ يا نبي الله، يا عيسى عليك سلام الله ﴿يَأْتِنَا مُسْلِمُونَ﴾ موحدون لله مستسلمون لأمره ومتهنون عما نهانا عنه راضين به ربًّا ثم أعلن الحواريون عن إيمانهم، ودعوا ربهم عز وجل بأن يثبتهم على الإيمان ويلحقهم بأهل التوحيد يوم القيامة فقالوا ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ يا ربنا آمنا بعموم الكتب التي أنزلتها، والتي منها الإنجيل الذي أنزلت على عيسى عليه السلام ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهو عيسى عليه السلام ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ فأثبتنا مع الشاهدين لك بالوحدانية ولرسلك بالرسالة، والشاهدين لك بأنك رب الناس وملك الناس وإله الناس، لم تتخذ صاحبة ولا ولدًا وليس لك شريك في الملك ولك الأسماء الحسنی والصفات العلی.

وقيل: إن المراد بالشاهدين أمة محمد ﷺ ونعم أمة محمد ﷺ شاهدةٌ لربها عز وجل بالوحدانية وشاهدة على سائر الأمم، ولكن هل هي المرادة في الآية الكريمة، الله أعلم بوجه الصواب من ذلك.

وفي الآية الكريمة نوع من أنواع التوسل بصلاح الأعمال فكأنهم قالوا يا ربنا لإيماننا بما أنزلت واتباعنا للرسول اكتبنا مع الشاهدين. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾ ليس هو بعائد على الحواريين الذين أعلنوا عن إيمانهم، وإنما هو عائد على الكفار من بني إسرائيل وذلك لأن الله عز وجل أثنى على الحواريين، فكأن عيسى عليه السلام لما أحس من بني إسرائيل الكفر بدأ يطلب نصره صالحهم، فقال: من أنصاري إلى الله، فقال الحواريون له نحن أنصار الله، وبقيت فئة أخرى كافرة تمكر كما ذكر الله تبارك وتعالى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾ أي بدأ كفار بني إسرائيل في التدبير

للفتك بعيسى عليه السلام، وصلبه وتمالؤوا على ذلك، ولكن الله عز وجل سلّمه وحفظه ورفعته إليه ونجّاه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ثم قال تعالى مخبراً عن بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب حين تمالؤوا عليه، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً فأَنهوا إليه أن ها هنا رجلاً يُضل الناس، ويصدهم عن طاعة الملك، ويفند الرعايا ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم، ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا به وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله من بينهم، ورفعته من روضة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى عليه السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعته من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾.

وقال الطبري رحمه الله: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ وأما مكر الله بهم فيما ذكر السدي: إلقاءه شبه عيسى على بعض أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى، وهم يحسبونه عيسى، وقد رفع الله عز وجل عيسى عليه السلام قبل ذلك.

وقال ابن جرير أيضاً: وقد يحتمل أن يكون معنى (مكر الله بهم): استدراجه إياهم ليلغ الكتاب أجله كما بينا ذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾

[البقرة: ١٥]

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ خير من يدبر الأمور ويكيد لأعدائه ويستدرجهم وينصر أوليائه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) **وَإَكِيدًا**.

وقد تفسر الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي واذكر قول الله عز وجل لعيسى عليه السلام: وفيه طمأننة لعيسى عليه السلام ﴿يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فللعلماء فيه أقوال، وذلك لدفع ما قد يرد من إشكال حول ذكر الوفاة قبل الرفع إلى الله تعالى، فأقول وبالله التوفيق في ذلك وجوه:

١- ذهب بعض العلماء إلى أن معنى الوفاة هنا النوم، وقد ورد ذلك في كتاب الله عز وجل، قال الله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالْأَيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فعلى ذلك فمعنى متوفيك: منيمك.

٢- بعض أهل العلم يرى أن معنى متوفيك: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل: توفيت مالي من فلان أي: قبضته.

٣- وقال بعض العلماء: أماته الله ثم بعثه ثم رفعه، وهذا القول فيه نظر لقوله: ثم بعثه؛ إذ لا دليل عليه.

٤- القول الرابع - وهو الأوجه والأقوى عندي - أن الواو لا تفيد الترتيب في كثير من الأحيان، بل تفيد مطلق التشريك، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، فمن المعلوم أن التسليم يكون قبل الاستئناس.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩].

وأيضاً استدل على أن الواو لا تقتضي الترتيب بقول الشاعر:

ألا يا نخله من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

أي: عليك السلام ورحمة الله.

فعليه يكون المعنى: إني رافعك إلى ومتوفيك إذا جاء الأجل الذي قدرته لوفاتك. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىٰ﴾ كقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ومنجيك من خبث الذين كفروا ومنجيك وحافظك من شرهم ومكرهم، وذلك برفعي إياك إلى السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ وهم الحواريون من أصحابك وهم أيضًا النصارى الذين آمنوا برسالته^(١)، وصبقوا ما أخبرهم به من رسالة أحمد ﷺ، ويدخل فيهم أيضًا المسلمون من أمة محمد ﷺ فهم متبعي جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي غالبيين للذين كفروا وهم كل من كفر برسالة عيسى عليه الصلاة.

أما الذين كفروا فهم كل من كفر برسالة عيسى عليه الصلاة والسلام وهم اليهود، ويدخل أيضًا من آله عيسى عليه السلام، أو جعله ابنًا لله، أو قال: إنه ثالث ثلاثة، ويدخل فيهم أيضًا: مشركو قريش، وكل من كفر بالله العظيم.

* أما دفع الإشكال الوارد من غلبة بعض الأمم الكافرة لبعض الأمم المسلمة مع قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] فلذلك وجوه:

(١) ولا يدخل فيهم النصارى الذين ألوهه، فإن هؤلاء كفار كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

ولا يدخل أيضًا النصارى الذين قالوا: إنه ابن الله، فإنهم مشركون، قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْتَ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

ولا يدخل أيضًا النصارى الذين قالوا: إنه ثالث ثلاثة، فإن الله تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

*** منها أن يُقال:** إن غلبة أهل الإيمان لأهل الكفر إنما هي بالحجة والبرهان، فحجة الذين آمنوا غالبية وحجة الذين كفروا دأضة عند ربهم.

*** ومنها أن يقال:** إن متبعي عيسى حق الاتباع منصورون على أعدائهم من الكفار في الدنيا على الدوام، وإنما يعتريهم في بعض الأزمنة والأماكن ما يعتريهم لتقصيرهم في اتباعه عليه الصلاة والسلام، ومخالفتهم بعض أمره عليه الصلاة والسلام وأمر رسول الله محمد ﷺ.

ويقال أيضًا إن الذي يعتريهم في بعض الأزمنة والأماكن هو من باب المخصوص من العموم، فالعموم أن لاتباع الرسل النصر بإذن الله، وقد يبتلي الله بعض عباده ببعض أعدائه لرفع درجات عباده واتخاذ الشهداء منهم.

*** ولا شك أن عيسى سينزل آخر الزمان فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام، وثم أقوال آخر لأهل العلم في هذا الباب.**

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يا أهل الإيمان، ويا أهل الكفر ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ومنه اختلافكم في شأن عيسى عليه السلام فسأقضي بينكم فيما نسبتموه إلى عيسى عليه السلام وأجازى كلا بما قال واكتسب والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جحدوا وحادانية الله عز وجل وزعموا أن له ولد أو زعموا أن عيسى هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة، إلى غير ذلك من صدور الكفر ﴿فَاعَذِّبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بتسليط بعض أعدائهم عليهم في الدنيا، وقد يحمل هذا على أقوام مخصوصين أعني الذين عوجلوا بالعذاب في الدنيا، وقد يحمل على نوع من أنواع العذاب، كالقتل والأسر والسلب والسبي والأوجاع والأسقام والجزية والإذلال والصغار ونحو ذلك.

أما صور العذاب في الآخرة فتعذيب بالنار وجلد بالسياط ودفع إلى الجحيم وعرق يلجم أهله إلجامًا و.... أعاذنا الله والمسلمين من ذلك.

قدرة الله عز وجل على خلق ما يشاء

وقد خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم

والمثل المضروب لخلق عيسى عليه السلام قال الله عز وجل :

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥٩ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٦٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ

٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ٦٣﴾ .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه في شأن عيسى عليه السلام وفي شأن غيره

﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ نقص عليك ونخبرك ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ التي أنزلنا عليك ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ وهو القرآن الكريم .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وجه المماثلة في بيان قدرة الله عز وجل على الخلق والإنشاء، فكما أن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام من تراب بدون أب ولا أم، بل قال له كن فكان، فكذلك سبحانه وتعالى خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب. فالقادر على أن يخلق بشراً بلا أب ولا أم قادرٌ بطريق الأولى، أن يخلق بشراً من أم بلا أب.

فإن استجزتم أن تتخذوا عيسى ابناً لله وحاشا لله لكونه ولد من غير أب فلتستجيزوا بطريق الأولى أن تتخذوا آدم ولداً لله ومعلوم بالاتفاق أن هذا باطل فالدعوى في عيسى أشد بطلاناً؛ وحاشا لله أن يتخذ صاحبة ولا ولداً، وسبحانه وتعالى عما يشركون.

وقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك في شأن عيسى عليه السلام وفي شأن غيره هو الحق الذي جاءك من عند الله فلا تكونن من الشاكين والمرتابين فيه.

آية المباهلة

قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ

تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ

ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ من جادلَكَ في أمر عيسى عليه السلام وكذبكَ بما جئت به ﴿فَقُلْ﴾ لهؤلاء المجادلين المنكرين ما جئت به في شأن عيسى عليه السلام: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أخرجه

مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]. فلما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً^(١).

وقوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نلتعن، وأصل الابتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره.

﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ندعو الله أن يلعن الكاذبين منا أو منكم. وهذه الآية هي آية المباهلة ألا وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وهذا ولم تتم المباهلة بين رسول الله ﷺ وبين النصاري، فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله إن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالاً: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا رجلاً أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»^(٢).

وفي «المسند» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتيته حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً»، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون ما لاً ولا أهلاً.

(١) مسلم (ص ١٨٧) في طرق حديث (٢٤٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨٠)، ومسلم (٢٤٢٠) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعاً.

هذا، وقد ضم الأبناء والنساء في المباهلة؛ ليدل ذلك على ثقة المباهل بحاله واستيقانه بصدقه حيث تجرأ على تعريض أعزته، وليدل ذلك أيضًا على ثقته بكذب خصمه، ولأجل أن يهلك خصمه مع أعزته جميعًا لو تمت المباهلة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي قصصناه عليك في شأن عيسى عليه السلام ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وما خالفه فهو باطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ ليس هناك معبودٌ بحق إلا الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يشرع ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ إن أعرض هؤلاء الكفار عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيحاسبهم ويجازيهم بما يستحقونه. والله أعلم.



دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

هذا بيان لطريقة من طرق دعوة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لليهود والنصارى ﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابِ﴾ يا من أنزلت إليكم كتب من عند الله، فاليهود أنزلت إليهم التوراة على موسى عليه السلام والنصارى أنزل إليهم الإنجيل على عيسى عليه السلام يا هؤلاء، يا من يُفترض أنكم أهل علم ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إلى كلمة وسط، كلمة عدل وإنصاف، كلمة عادلة مستقيمة بيننا وبينكم، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ تعالوا نتفق على هذا، على عبادة الله وحده لا شريك له فهو ربنا وربكم، وإلهنا وإلهكم فنحن لا ندعوكم إلى عبادتنا ولا نقبل أن تدعونا لعبادتكم نحن لا ندعوكم إلى عبادة غير الله عز وجل، ولا نقبل أن تدعونا إلى عبادة أحد غير الله عز وجل وتعالوا نتفق نحن وأنتم ولا نختلف ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بل ربنا وربكم واحد، فقد كان اليهود والنصارى يفعلون ذلك، ولذلك صور منها:

١- أن بعضهم يطيع بعضاً في معصية الله، وفي تحليل ما حرمه الله وتحريمه ما أحله الله عز وجل، فأنزلوهم منزلة ربهم من قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه

الله ولم يحله الله^(١).

٢- أن بعضهم يسجد لبعض.

٣- أنهم يعتقدون بالوهمية بعضهم كاعتقاد بعض النصارى أن الله هو المسيح ابن مريم.

وبعضهم يدعي أن المسيح ابن الله، واليهود يدعون أن عزيزاً ابن الله.
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فَإِنْ تَعَرَّضُوا عَمَّا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
﴿فَقُولُوا﴾ يَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ قُولُوا لِأَهْلِ الْكُفْرِ ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ اعلموا
أننا على الإسلام، واشهدوا لنا بذلك عند الله، وهو خير الشاهدين، وهذا إن قبلت
لهم شهادة وإلا فالمعنى فاعلموا وأخبروا الخلق بأننا مسلمون لا نستحي من
الإعلان عن إسلامنا ولا نتوارى بل نعلنها صريحة وواضحة ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ﴾.



(١) قال القرطبي رحمه الله: وهذا (يعني الآية) يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذي لا يستند إلى دليل شرعي.

**توجيه اللوم إلى أهل الكتاب لجدا لهم بالباطل
في شأن إبراهيم عليه السلام
والبيان عن كون إبراهيم عليه السلام كان مسلماً**

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾
هَتَانِمْ هَتُولاَءِ حَجَجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا
نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ
أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي لِمَ تجادلون في شأن
إبراهيم عليه السلام، فقد حاجج أهل الكتاب في إبراهيم عليه السلام بادعائهم أنه
منهم، فقالت اليهود: كان إبراهيم يهودياً وقالت النصارى: كان إبراهيم نصرانياً.
وأبطل الله سبحانه وتعالى حججهم بقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ
بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥] فكيف تدعون أن إبراهيم كان يهودياً أو
نصرانياً والتوراة والإنجيل إنما جاءت بعد إبراهيم ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تفهمون وقوله تعالى: ﴿هَتَانِمْ هَتُولاَءِ
حَجَجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ جادلتم في أمور تعرفون شيئاً عنها ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا
لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي فلم تجادلون في أمور لا تعرفونها ولا علم لكم بها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ

وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ فالذي أخبر الله به هو الحق والصدق.

هذا، والذي حاجج فيه أهل الكتاب وكان لهم فيه علم هو محمد ﷺ فكان عندهم في التوراة والإنجيل نعتة ووصفه ووقت خروجه ومبعثه وصفة أصحابه وإلى ماذا يدعو وعن ماذا ينهى، ومع ذلك كله جادل فيه أهل الكتاب بالباطل، وكذبوه بغير وجه حق فعليهم العتب في ذلك ولكن العتب الأشد حينما يجادلون في إبراهيم الذي ليس لهم علم به ويصفونه بأنه كان يهوديًا أو نصرانيًا.

ثم يبين الله عز وجل وجه الحق والصواب في شأن إبراهيم عليه السلام فيقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٧) فهذا وجه الحق في إبراهيم عليه السلام، لقد كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين كما يدعى أهل مكة وما كان يهوديًا كما تدعى اليهود وما كان نصرانيًا كما تدعى النصارى.

أما معنى الحنيف فهو المائل، مائلٌ عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ومعتقد صحته ومتدين به.



التنبيه على أن الأنبياء كانوا مسلمين

هذا، والأنبياء بما فيهم إبراهيم عليه السلام كانوا على الإسلام، وقد دلت على ذلك أدلة منها:

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله تعالى في شأن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَا بَكٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣١ - ١٣٣].

وكذا قوله: ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقول يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

[يوسف: ١٠١]

وقول سليمان عليه السلام: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

[النمل: ٣٨]

والآيات في هذا الصدد كثيرة جدًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٦٨] معناه، والله أعلم إن أحق الناس بإبراهيم وأخصهم به لكونه منهم وهم منه هم الذين اتبعوا ملته واقتدوا بدينه واقتفوا أثره في توحيده لله عز وجل وسمعه وطاعته لله رب العالمين.

وكذلك أولاهم بإبراهيم عليه السلام هذا النبي محمد ﷺ والمؤمنين به، وهذا من باب عطف الخاص على العام للتعظيم والتشريف، فذكرت أحقية المتبعين لإبراهيم بإبراهيم ﷺ ثم نص على النبي ﷺ وأفرد بالذكر تعظيمًا له وتشريفًا وبيانًا لكونه من المتبعين لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في التوحيد وكثير من أمور الشرع، وكذلك القول في الذين آمنوا.

وعطف العام على الخاص وارد في جملة مواطن في كتاب الله عز وجل.
قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، فنص على الأنبياء المذكورين بأسمائهم لبيان شرفهم وفضلهم عليهم الصلاة والسلام.

وقال سبحانه: ﴿فِيهِمَا فَتْكُهُمْ وَفُجْرُهُمْ﴾ [الرحمن: ٦٨]، فنص على النخل والرمان مع كونهما داخلين في عموم الفتاكهة.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [النساء: ١٦٣]، وهذا باب واسع والأدلة فيه كثيرة، والله تعالى أعلم.



رغبة طائفة من أهل الكتاب في إضلال المؤمنين

قال الله عز وجل: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ هذا بيان موقف طائفة من اليهود والنصارى تجاه المسلمين فطائفة منهم تحب وترغب وتتمنى أن تنصرفوا عن دينكم وتكفروا بالله عز وجل وتسعى هذه الطائفة لذلك لإضلالكم وصرفكم عن طريق الحق والاستقامة إلى طرق الغي والشر والفساد ولكن الله عز وجل يحفظكم يا أهل الإيمان ويُسلمكم من شرهم ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يصرفون عن الحق والإيمان إلا أنفسهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك، وإيضاح ذلك أن اليهود والنصارى لما كانوا يسعون في إضلال أهل الإيمان ويسعون لذلك ويحفظ الله أهل الإيمان فتزداد حينئذ الآثام التي تلحق بأهل الكتاب من جراء سعيهم في الفساد، ويزداد صرف الله لقلوبهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ.....﴾ [الصف: ٥] فحينئذ يزداد ضلالهم بما اقترفوه من محاولات إضلال العباد. والله تعالى أعلم.

وفي الآية الكريمة تنبيه لأهل الإيمان وتحذير لهم فأهل الكفر لا يريدون بهم خيراً، بل يريدون إغواءهم وإضلالهم، والأدلة على ذلك في غاية الكثرة منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩]. وقوله عز وجل: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]. وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾

[البقرة: ٢١٧]

وقال عز وجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وقال عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ

إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّن عِندِ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].



نداءات لأهل الكتاب فيها توبيخ لهم وبيان بعض طرائقهم لإغواء الناس وإضلالهم

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠) ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢) وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧٣) يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤).

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ توبيخ لليهود والنصارى، لم تجحدون آيات الله وتنكرونها وتكذبون بها وأنتم تقرون وتشهدون أنها آيات نزلت من عند الله إذ هي مصدقة للكتب التي نزلت عليهم، والكتب التي نزلت عليهم مصدقة لها أيضاً وبين أيديهم كتبهم فيها صفة رسول الله ﷺ وصفة أصحابه وأقوالهم وأعمالهم، والله تعالى أعلم.

وثم قول آخر ألا وهو: وأنتم تشهدون على أن الدين عند الله هو الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ معنى تلبسون: تخلطون، والمعنى الإجمالي - والله أعلم - لم تخلطون

الإسلام باليهودية والنصرانية، وتحرفون التوراة والإنجيل بما يتناسب مع باطلكم، والله تعالى أعلم.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون الحق من الباطل وتعلمون أنكم تخطون الحق بالباطل، أي أنكم تتعمدون ذلك. هذا، ولأهل الكفر ولأهل الباطل حيلٌ ومكائد لصرف أهل الإيمان عن إيمانهم.

منها: اتباع المتشابه وترك المحكم.

ومنها: التفاسير الزائغة لآيات الكتاب العزيز.

ومنه: إيراد الأغلوطات على العامة والرعاع.

ومنها ما ذكره الله تعالى حيث قال: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

فهذه وصية بعض أهل الكتاب، اليهود والنصارى يوصي بعضهم بعضاً قائلين: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. يقولون آمنوا بالقرآن وصدقوا الرسول عليه الصلاة والسلام أول النهار واكفروا بذلك آخر النهار فبذلك يتشكك أهل الإيمان في دينهم ويرجعون عن إسلامهم.

فيظهر هؤلاء اليهود والنصارى لأهل الإيمان أن الرسول حق فيظهرون أن الرسول حق وما يقوله صدق أول النهار ثم يرجعون آخر النهار قائلين: نظرنا في كتبنا فوجدناه باطلاً ونحن أهل إنصاف ومن الدليل على إنصافنا كوننا قبلناه أول النهار ولكن بتحرينا وتبعنا واستقصائنا وجدناه باطلاً فيشككون الناس فيه.

وقال آخرون منهم: بل نجعل هذا الدين ألعوبة نؤمن ثم نكفر فيتبعنا الناس على ذلك.

وثم طرق آخر وحيل آخر لأهل الفسق في ذلك، والله أعلم.

وقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذه وصية رؤساء اليهود والنصارى والمضلين منهم، يوصون السفلة منهم بذلك فيقولون لهم: لا تصدقوا محمداً ولا تصدقوا من أسلم معه، إنما ليكن تصديقكم لمن هو من أهل الملة التي أنتم عليها.

وقول آخر: لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لأهل دينكم، والله تعالى أعلم.

ولأهل العلم أقوال في المعنى الإجمالي للآية الكريمة ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

من هذه الأقوال:

أن أهل الكتاب قال بعضهم لبعض: ولا تصدقوا إلا من كان علي دينكم فلن يؤتي أحد مثل الذي أوتيته (من توراة وألواح ومن سلوى و... أو من مائدة و...) وليس عند أحد غيركم حجة يحاججكم بها عند ربكم عز وجل.

فرد الله عز وجل عليهم بقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: الذي أعطاكم هذا الفضل قادر على أن يعطي غيركم أيضاً أفضل منه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ جملة اعتراضية بين كلامين فحواها أن الذي هداكم قادر على أن يهدي غيركم، وقادر على أن يسلب الهدى منكم. والله أعلم.

وقول آخر: لا تخبروا بما في كتابكم - من صفة محمد ﷺ والآيات التي معه - إلا من اتبع دينكم لئلا يكون ذلك سبب لإيمان الناس بمحمد ﷺ فيساووكم في الإيثار ويزدادوا عليكم لقوة إيمانهم وشدة تصديقهم وتركب الحجة عليكم في الدنيا والآخرة.

وثم أقوال آخر والله تبارك وتعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فالمراد به، والله أعلم. قل لهؤلاء الذين يوصي بعضهم بعضاً ألا يصدقوا إلا من كان على دينهم ويزعمون أنهم على الحق ومن سواهم على الباطل، قل لهؤلاء ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أما المراد بالفضل فهو ما أنعم الله به من توفيق وهداية للإيمان والإسلام، وأيضاً ما أيد الله عز وجل به رسله وأنبياءه، أما وجه الختام بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: عليم بمن يستحق هذا الفضل والهداية للتوفيق من غيرهم، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي أن الله عز وجل يتفضل برحمته ومنها النبوة والإسلام والقرآن والهداية والرزق الحسن وغير ذلك مما تطلق عليه الرحمة، يتفضل الله بها على من يشاء من عباده وليست مختصة بكم يا معشر اليهود ويا معشر النصارى حتى تحجروها على أنفسكم.



هذا بيانٌ لحال كثير من اليهود والنصارى فمنهم الأمين الذي يؤدي الأمانة على وجهها الصحيح، فمهما استأمنته كان أميناً ولو استأمنته على قنطار من الفضة أو الذهب لردهَ إليك ولم يبخسك منه شيئاً، ومن أمثال هذا الرجل ما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: اتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا، قال: صدقت، فدفعها إليه على أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلًا فقلت: فرضى بك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضى بذلك، وإني جهدت أن أجِدَ مركباً أبعث إليه الذي له فلم

أقدر وإني أستودعكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالآلف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لأتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلى بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة فانصرف بالآلف دينار راشداً^(١).

ومن أهل الكتاب من هو خائن، إن استأمنته على أقل القليل لا يؤده إليك، لو استأمنته على دينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً بالملازمة والمطالبة، فمعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي ملازمًا له ومطالبًا بالدين الذي لك عليه، والله أعلم.

هذا، والأكثر من أهل الكتاب هم الخونة، لقوله تعالى ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ﴾.

هذا، وإن سألت عن أسباب خيانتهم للأمانة فمن أسباب ذلك اعتقادهم الفاسد، فمعتقدهم الفاسد جرهم إلى عمل فاسد، فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ ذلك الذي يصدر منهم من خيانات للأمانات ﴿يَأْتَهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ﴾ والمراد بالأميين هم العرب والمسلمون، وذلك لأن الرسول ﷺ كان أمياً وكانت الأمة التي بُعث فيها أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب في الغالب كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّتِ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

فقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ﴾ يزعمون أنهم ليس عليهم حرج إذا ظلموا العرب والمسلمين أو أكلوا أموالهم.

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب «الكفالة» (٢٢٩١) فقال: وقال الليث حدثني جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

أي ليس هناك طريق لتعذيبنا ولا لعتابنا ولا لتوبيخنا إذا أكلنا أموال العرب والمسلمين فيخونون الأمانات ويقولون إنها أمانة مسلم فلا حرج إذا أكلناها ويظلمون المسلمين، ويقولون لا حرج فإنهم مسلمون. ونحو ذلك والله أعلم.

ثم إن الله عز وجل يكذبهم في دعواهم التي ادعوها وهي أنهم ليس عليهم حرج إذا ظلموا المسلمين والعرب وأخذوا أموالهم.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون كذب مدعاهم.

فإن الله عز وجل ما أباح لهم أن يخونوا الأمانات ويظلمون المسلمين، ما أباح الله لهم ذلك ولا أجازه لهم ولكنهم يكذبون على الله عن عمدٍ وعن قصدٍ وعلى علم بما يصنعونه.

والله عز وجل لا يحب الخائنين بل يحب الأوفياء الذين يؤدون الأمانات إلى أهلها فيقول تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ فالمراد به - والله أعلم -: أن أهل الكتاب لما قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ رد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى عليكم حرج وسبيل وإثم في الأميين إذا أكلتم أموالهم وظلمتموهم.

أما قوله تعالى: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، فالمعنى والله أعلم: أن من أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب مع الله عز وجل، هذا العهد الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث وتصديقه فيما جاء به فإن الله يحب المتقين الذين اتقوا محارم الله واتبعوا شرعه، أو المراد: واتقى الشرك، أو المراد: واتقى أكل أموال الناس بالباطل والخيانة ونقض العهد، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

له سبب نزول يوضحه فهذه الآية الكريمة نزلت في الأشعث بن قيس، وذلك كما رواه ابن مسعود^(١) رضي الله عنه إذ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»، قال: فقال الأشعث بن قيس: في والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدي فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة؟» قال: قلت: لا، قال: فقال اليهودي: أحلف، قال: فقلت: يا رسول الله إذن يحلف ويذهب بمالي، قال فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية.

ومعناها، والله أعلم إن الذين يستبدلون ما عاهدوا الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ والأيمان التي يقسمونها بالله عز وجل بالثمن القليل من أعراض الحياة الدنيا أولئك لا نصيب لهم في نعيم الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي لا يكلمهم كلاماً يرحمهم به بل إذا كلمهم يوبخهم ويؤنبهم كما في قوله تعالى: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ وكقوله: ﴿لَا تَبْخَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾ ونحوه والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري في عدة مواطن من «صحيحه»، منها (٢٦٦٦، ٢٦٦٧)، ومسلم (حديث ١٣٨) وغيرهم. وثم سبب نزول آخر لهذه الآية الكريمة أخرجه البخاري (٤٥٥١) من طريق إبراهيم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رجلاً أقام سلعة في السوق فحلف فيها لقد أعطي بها ما لم يعطه ليوثق فيها رجلاً من المسلمين فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر، الآية لكن في إسنادها إبراهيم بن عبد الرحمن وهو السكسكي متكلم فيه، وقد انتقد الدارقطني على البخاري، وخرج في الأحاديث من طريقه.

هذا، وهناك بعض مرتكبي الكبائر من المسلمين لا يكلمهم الله في أوقات معينة وأحوال معينة يوم القيامة عقوبة لهم إذا لم يغفر لهم على أعمال عملوها في الدنيا، فأذكر بعض هذه الطوائف تحذيرًا من هذه الطوائف ما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارٍ، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل والمنان والمتفق سلعته بالحلف الكاذب»^(١).

ومنهم ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنع من ابن السبيل، ورجل بايع رجل بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لا أخذه بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفي وإن لم يعطه منها لم يف»^(٢).

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي ولا يطهرهم من ذنوبهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب مؤلم موجه.



(١) أخرجه مسلم (١٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٦)، ومسلم واللفظ له (١٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٧).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

هذا من سوء صنيع اليهود ومن مكرهم وكيدهم وأضلالهم العباد، وذلك بأن فريقاً منهم يحركون ألسنتهم بطريقة توهم سامعهم أنهم يرتلون التوراة، وإنما يصنعون ذلك بكلام اختلقوه من عند أنفسهم فيرتلون كلامهم ويلوون ألسنتهم به مُوهمين من أمامهم أنهم يقرأون التوراة حتى يصدقهم من أمامهم فيحلوا ما حرمه الله ويحرموا ما أحل الله ويزيدون على ما قاله الله، وينسبون إليه ما لم يقله سبحانه وتعالى فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من اليهود خاصة ولذا سموا بأنهم مغضوب عليهم ﴿لَفَرِيقًا﴾ جماعة ﴿يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم﴾ يحركونها بطريقة توهم أنهم يرتلون ﴿بِالْكِتَابِ﴾ أي بالشيء الذي كتبوه بأيديهم وافتروه على الله عز وجل ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ كي تظنوا يا أهل الإيمان أن هذا الذي يتلونه من الكتاب المنزل على نبيهم موسى عليه السلام، أي لتحسبوه من التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي وما هو من التوراة المنزلة على موسى عليه السلام إنما هو مما افتروه بأنفسهم وأتوا به من عند أنفسهم.

فالكتاب في قوله: ﴿يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ المراد به الذي كتبوه بأنفسهم من عند أنفسهم ومن إملاءات الشياطين عليهم والكتاب في قوله ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي لتحسبوه من التوراة والله أعلم.

وكذا فإنهم يقولون على ما اختلقوه من عند أنفسهم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي أنهم يكتبون الكتب ويرتلونها وينسبونها إلى الله وأنها منزلة من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي أن اليهود يفترون الكذب على الله سبحانه وتعالى وهم يعلمون أنه كذب. والله أعلم.

النبي لا يدعي الربوبية ولا يأمر بها

قال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا
رَبِّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

معنى الآيات المباركات، والله أعلم أنه لا يصلح ولا يستقيم أن يكون هناك رجل رزقه الله الكتاب وعلمه الأحكام وفقهه في الدين وآتاه النبوة، ثم بعد ذلك يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله، فلا يستقيم أن يكون رجل نبيًا عالمًا أمينًا ويأتي مع ذلك يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله، فلا تتناسب النبوة مع الكذب، ولا يصلح أن يكون النبي إلهًا في وقت واحد، ولكن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يدعو الناس إلى معرفة الله والعلم به ويحدوهم على معرفة شرائع دينه، وأن يكونوا رؤساء في المعرفة بأمر الله ونهيه وأئمة في طاعته وعبادته.

وهذا قوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبِّانِينَ﴾ أي حكماء علماء - فقهاء علماء - حكماء أتقياء، وقيل: هم العلماء بأمر الدين والدنيا، وقيل: هم الذين يعلمون الناس صغار العلم قبل كباره (أي: المسائل الهامة السهلة قبل غيرها) وقيل: هم الولاة، وقيل: هم من أوتوا بصيرة بأمر الدين وسياسة الناس.

هذا، ودرجة الربانيين هذه تتأتى بأمرين ذكرهم الله عز وجل في كتابه الكريم حيث قال: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبِّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فهي

تنال بالتعلم والتعليم، والمعنى الإجمالي: ولكن كونوا سادة علماء حكماء فقهاء مربين للناس بدراستكم الكتاب وتعليمه للناس، والله تعالى أعلم.
ففي الآية الكريمة حثٌ على التعليم والتعلم، والتعلم يكون قبل التعليم لقوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

ولقوله ﷺ: «نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها ثُمَّ أَدَاها كَمَا سَمِعَهَا».
ولقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ ولا يلزم أن يستحوذ الشخص على العلم كله فلن يستطيع ذلك أحد، وقد قال النبي ﷺ: «بلغوا عني ولو آية» هذا وأورد هنا ما ذكره صديق حسن خان في فتح البيان إذ قال وفي هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه، والدراسة: مذاكرة العلم والفقه، فدلّت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيًا، فمن اشتغل بها لا لهذا المقصود فقد ضاع علمه وخاب سعيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ أي ولا يأمركم هذا البشر الذي آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ تبعدونهم من دون الله بل شأن النبي أن يأمر بتوحيد الله عز وجل وعدم الشرك به كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.
وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

أما قوله: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فتعجب وتعجيب، أي كيف يأمركم النبي أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا، إنه إذا أَمَرَكُم بذلك فقد نقص ما يدعو إليه، فكيف يتأتى أن يأمركم بالإسلام إذ النبوة تقتضي ذلك، ثم بعد ذلك يأمركم بالكفر وهو المتمثل هنا في اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا.



أخذ الميثاق على الأنبياء عليهم السلام أن يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ إذا بعث وهم أحياء

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ اتَّيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

لأهل العلم أقوال:

الأول: أخذ الله عز وجل ميثاق النبيين أن يؤمن أولهم بآخرهم أي: يؤمن كل نبي بالذي يأتي بعده.

الثاني: أخذ الله ميثاق النبيين جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ.

الثالث: أخذ الله ميثاق أمم النبيين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ.

الرابع: أخذ الله ميثاق النبيين وأممهم لهم تبع أن يؤمنوا بمحمد ﷺ.

الخامس: أمر الله كل نبي أن يأخذ الميثاق على أمته إن بعث فيهم محمد ﷺ أن

يؤمنوا به، وثم أقوال آخر أضربنا عن ذكرها.

أما قوله تعالى: ﴿لَمَآءِ اتَّيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١] أي للذي

أعطيتكمه من الكتاب والحكمة، وقال آخرون: ﴿لَمَّا﴾ بمعنى مهما، والمراد مهما أوتيتم من كتاب وحكمة ثم جاءكم محمد ﷺ فلزام عليكم أن تؤمنوا به. فالمعنى الإجمالي للآية، واذكروا إذ أخذ الله عز وجل العهد والميثاق على الأنبياء جميعهم، مهما أتيتم من كتاب وحكمة أي مهما أوتيتم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول «وهو هنا محمد ﷺ» ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ موافق لما معكم من أوصافه، أوصافه مثبتة في التوراة والإنجيل.

وموافق لكم في أصول الدين والإيمان والتوحيد ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ أي لتصدقنه ولتتبعنه ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أي تجاهدوا معه، فأقر الرسل عليهم الصلاة والسلام بذلك، فقال تعالى لهم: ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أقررتم بما قلته لكم وأمرتكم به وأعطيتم العهد على ذلك ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ قال ﴿فَاشْهَدُوا﴾ على أنفسكم وعلى أممكم وعلى من أرسلتم إليهم بذلك ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على ذلك ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد هذا الإقرار المأخوذ على الأنبياء وأممهم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين تولوا ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة المستحقون للعذاب.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ معناه يطلبون ويريدون ديناً غير دين الله الذي هو الإسلام!!

أي كيف يطلبون ذلك ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي كيف ترتضون غير الإسلام الذي هو توحيد الله عز وجل «إلى غير ذلك مما ورد في تعريفه» وقد وحد الله وأسلم له وأذن كل من في السموات والأرض إما طوعاً واختياراً وإما كراهية وإجباراً.

أما كيف أسلم الكافر كرهاً فلا أهل العلم في ذلك أقوال، منها:

١- أن الكافر، وإن أبي أن يسلم بلسانه فهو مستسلم لأقدار الله عز وجل التي تجري عليه فلا يستطيع تبديلها فهو يمرض ويكسر وينجب أو لا ينجب ويكون

عقيماً أو له ولد ويكون صغيراً فيشب ثم يتسرب إليه الضعف والشيب ثم يدركه الموت ولا يستطيع لذلك كله تبديلاً.

٢- أن الكافر وإن أبى أن يسجد لله فظله يسجد لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْعُذُورِ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

٣- أن الكافر يسلم عند معاينة الموت حيث لا ينفعه إيمانه، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [٨٤] فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿[غافر: ٨٤، ٨٥].

٤- أن الكافر أسلم كارهاً خوفاً من السيف كما في «الصحيح»: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»^(١).

٥- أن إسلام الكافر هو معرفته بالله وإن أنكرها بلسانه.



(١) البخاري حديث (٣٠١٠) من حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ.

الأمر بالإيمان بالله عز وجل والإيمان بالكتب المنزلة من عند الله كلها وكذا الأمر بالأنبياء جميعهم

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤).

وقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ قل يا رسول الله وقل أيها المؤمن
لأهل الشرك ولليهود والنصارى وغيرهم، قل لهؤلاء ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ صدقنا به
وبإلهيته، وأنه واحد لا شريك له، وبربوبيته فهو رب العالمين وبكونه ملك الناس،
وكذا له ملكوت السموات والأرض (و) آمنا أيضًا بما ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآن
﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهي صحف إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ ولم تذكر أسماء الكتب التي أنزلت عليهم.
أما إسماعيل فهو ابن إبراهيم عليهما السلام، وأمه (أم إسماعيل) هي هاجر.
و﴿وَإِسْحَاقَ﴾ هو ابن إبراهيم أيضًا.

وقد قال الخليل عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.
﴿وَيَعْقُوبَ﴾ هو حفيد إبراهيم عليه السلام، ووالد يوسف عليه السلام، وهو
ابن إسحاق عليهما السلام.

﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم بنو إسرائيل الاثنا عشر، أي أولاد يعقوب الاثنا عشر،
يوسف وإخوته ولم تذكر أسماء الكتب التي أنزلت عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ وهي التوراة والألواح والصحف ﴿وَعِيسَىٰ﴾ أي آمنة بما أوتي عيسى عليه السلام وهو الإنجيل ﴿الَّتِي يُؤْتُونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي وآمنة بعموم ما أوتاه النبيون من ربهم من الكتب ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بل نؤمن بهم جميعًا ونصدق بأنهم جميعًا من عند الله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي ونحن لربنا مستسلمون والله أعلم.



**بيان أن الدين المقبول عند الله هو الإسلام
وأن الخاسر من ابتغى ديناً غيره
واستبعاد هداية الكفار الجاحدين عن علم وعمد
إلا بإذن الله وبيان عقوبتهم وفتح باب التوبة لهم**

قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ

فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ أي ومن يتدين ربه ويتعبد بدين غير دين الإسلام، الذي هو توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبودية والتصديق برسوله ﷺ (إلى غير ذلك من أركان الإسلام) ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لن يتقبله الله منه، ولن يقبل عمله الذي عمله بل سيظل عمله ويذهب ثوابه وكذا (فهو) أي الذي اختار ديناً غير الإسلام ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وكذا الذين خسروا أعمالهم.



وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾.

له سبب نزول سبب نزولها ما ورد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً من
الأنصار ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، فأنزل الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ
قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فبعث بها قومه إليه فرجع تائباً إلى النبي
ﷺ فخلى النبي ﷺ سبيله ^(١).

أما عن معناها، والله أعلم فيبانه أن من كفر بعد إيمانه وبعد معرفته اليقينية
وشهادته أن الرسول ﷺ حق وأنه رسول من عند الله وبعد مجيء البينات إليه فقد
تسبب لنفسه في إبعاد الهداية عنه، فقد جرت سنة الله أن من يسلك طرق الخير
يسرها الله عليه ومن سلك طريق الشر هيئ له في الغالب، قال الله تبارك وتعالى:
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ
وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله في معناها: يعني كيف يرشد الله للصواب
ويوفق للإيمان قوماً جحدوا نبوة محمد ﷺ ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: بعد تصديقهم إياه
وإقرارهم بما جاءهم به من عند ربه ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾ يقول: وبعد أن
أقروا أن محمداً رسول الله ﷺ إلى خلقه، حقاً، ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يعني وجاءهم
الحجج من عند الله والدلائل بصفة ذلك، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقول:
والله لا يوفق للحق والصواب الجماعة الظالمة، وهم الذين بدلوا الحق إلى الباطل
فاختاروا الكفر على الإيمان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فعن معناه، وكيف يوفق بينه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩١٤)، والطبري في «التفسير» (٧٣٦٠) وإسناده صحيح.

وبين كون بعض الظالمين قد هداهم الله، فأقول، وبالله التوفيق:

وجه الجمع من ناحيتين:

الأولى: أن يقال إنهم ما داموا قائمين على ظلمهم وكفرهم وجحودهم لآيات الله ولا يتحرون الحق والصواب فلا يهديهم الله سبحانه وتعالى أما إذا تحروا الحق والصواب فإن الله عز وجل يأخذ بأيديهم إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وكما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى﴾ [الليل: ٥-٧].

الثانية: أن يقال: إن المراد بالظالمين الذين لا يهديهم الله هم من كتبت عليهم الشقاوة وطبعوا على الكفر، فهؤلاء قوم ذرأهم الله عز وجل لجحهم فلا تنفع فيهم الذكرى ولا تجدي معهم النصيحة، والله تعالى أعلم.



وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الذين كفروا بعد إيمانهم جزاءهم أن الله عز وجل يلعنهم أي يطردهم ويقصيهم ويبعدهم عن جنته ورحمته وكذلك فإن الملائكة والناس كلهم يدعون عليهم بالطرد من رحمة الله عز وجل وبالإبعاد عن جنته، حتى الكافر يلعن الكافر يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] فيدعو كل كافر على صاحبه كما ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعُفَاءُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاءِ لَعَنَّا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].
وكما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي خالدين في اللعنة، وقيل خالدين في النار ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ لا يقلل عنهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ ولا هم يمهلون ولا هم يؤخرون.

فتح باب التوبة للمذنبين

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فيه البيان عن أن الله سبحانه وتعالى كريم وحليم ورحيم فقد فتح لهم أبواب التوبة قبل مماتهم، وحتى لا يقنط أحدٌ من رحمة الله، ولا ييأس أحدٌ من روح الله قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي رجعوا عن كفرهم وضلالهم إلى الإيمان والحق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما بينهم وبين خالقهم سبحانه فعبدوه ووحدوه وأقروا برسالة رسوله ﷺ وبما جاء به وكذا أصلحوا قدر استطاعتهم ما قد أفسدوه فإن الله غفور، يغفر لهم ما كان منهم من جرائم وآثام ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم إذ فتح لهم أبواب التوبة، ورحيم بعباده التائبين الراجعين إليه.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن بعض الذنوب لا يكفي فيها قول الرجل أستغفر الله فقط، بل لابد مع التوبة أشياء أخرى، فإذا أكل رجل أموال الناس بالباطل فلا يكفي أن يقول: أستغفر الله، بل يرد الأموال إليهم أيضاً، وإذا غش عالم الناس في فتوى أفتاها عن عمد لا يكفي أن يقول: أستغفر الله، بل يلزم أن يبين لهم الصواب كذلك، وإذا قذف رجل امرأة محصنة عليه أن يبين براءتها كذلك، والشواهد على ذلك ما يلي:

قوله الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ (١٥٩) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠] فاشترط هنا التوبة والإصلاح والبيان.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥] فاشترط كذلك الإصلاح هنا.

وقول الله تبارك وتعالى في القذفة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤، ٥].

وقال النبي ﷺ: «لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى تقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا خلص المؤمنون يوم القيامة من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا»^(٢).



(١) أخرجه مسلم (٦٥٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

قال بعض أهل العلم: هذه الآية عامة في كل من آمن ثم كفر ثم ازداد كفراً، وقيل: هم اليهود آمنوا بموسى وبالتوراة ثم كفروا بعبسى وبالإنجيل ثم ازدادوا كفراً لما كفروا بمحمد ﷺ.

وقيل: هم اليهود والنصارى آمنوا بما عندهم في التوراة والإنجيل من صفة محمد ﷺ وصفة من معه وما معه، ثم لما جاء رسول الله ﷺ كفروا به ثم أصروا على كفرهم وازداد عنادهم.

وقيل: هذا في الكفار أقروا بأن الله خالقهم ورازقهم ثم أشركوا بالله وازداد كفرهم بجحودهم رسالة محمد ﷺ واستمرارهم على الكفر حتى هلكوا عليه، والله أعلم.

وللآية الكريمة سبب نزول ورد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَهُمْ﴾ (١).



دفع إشكال

هذا، وتوجيه قوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.
مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ لأهل العلم فيه أقوال:

الأول: أن الكافر إذا أخر توبته حتى الممات ثم جاء يتوب عند مماته لا تقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، ولما قال فرعون عند الغرق: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أجيب بقوله تعالى: ﴿ءَاْكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

الثاني: أن الكفار يرتكبون كفرًا ويقتربون معاصي، فإذا تابوا من معاصيهم لا تغفر لهم تلك المعاصي ما داموا مقيمين على الكفر.

الثالث: أن اليهود الذين كفروا بعيسى ﷺ ثم ازداد كفرهم بمحمد ﷺ وأسرفوا على أنفسهم بالمعاصي لن تقبل توبتهم من المعاصي إلا إذا آمنوا بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

الرابع: أن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا وحاولوا إظهار التوبة للناس غشًا وخداعًا فلن تقبل منهم هذه التوبة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أي الذين ضلوا طريق الحق والصواب وطريق الجنة فسلكوا طريقًا آخر، وهو طريق الباطل والضلال، ذلكم الطريق الذي يوصلهم إلى الجحيم، والعياذ بالله.

هذا، ومن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ يؤخذ أن الكفر يتفاوت، فهناك كفر أعظم من كفر.

لن تقبل فدية من أهل الكفر يوم القيامة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ۝﴾ أي: ماتوا على الكفر ولم يتوبوا منه ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ ۝﴾ يوم القيامة ﴿مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۝﴾ أي: ولو قدمه كفدية فيفتدي بها من عذاب جهنم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ مؤلم موجه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ۝﴾ ينصرونهم من دون الله ويمنعونهم من عذاب الله.

إحباط أعمال من ماتوا على الكفر

هذا، ومن مات على الكفر فلن ينتفع بعمل عمله، بل أعماله كلها تضيع، ولا تقبل منه فدية ولن تنفعه شفاعاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ۝﴾ [آل عمران: ٩١].
وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ ۚ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [٣٦]
يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝

[المائدة: ٣٦، ٣٧]

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۝ ﴾ .

[الفرقان: ٢٣]

وقول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ ﴾ .

[إبراهيم: ١٨]

وقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].
إلى غير ذلك من الآيات.

أما من حديث النبي ﷺ:

فقد قال عليه الصلاة والسلام: «يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تقتدي به؛ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك»^(١).

وقد قالت عائشة لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(٢).



(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً، وفي لفظ لمسلم: «قد أردت منك هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك».

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ

شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي لن تنالوا ثواب البر، يا أهل الإيمان، الذي هو الجنة وكذا لن تصلوا إلى درجة الأبرار حتى تتصدقوا بصدقة من النوع الذي تحبونه. وأي صدقة تتصدقون بها فإن الله عليم بها وسيجازيكم عليها ويشيكم عليها. هذا، وقد وردت للبر معان أخر، فالبر أحياناً يُطلق على الطاعة، وأحياناً يطلق على حسن الخلق، وفي الحديث «البر حسن الخلق»^(١).

وفي الحديث الآخر: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر»^(٢). وقد وردت في معنى الآية السابقة آيات كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُدُودٍ مَسْكِينًا وَيتِمَّ وَأَسِيرًا﴾.

وكقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وقد نال شرف العمل بهذه الآية الكريمة كثير من الصحابة رضي الله عنهم منهم أبو طلحة رضي الله عنه فأخرج البخاري^(٣) وغيره من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

(٢) البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٠٦٧). ص ٢٠١٣

(٣) البخاري (٤٥٥٤)، ومسلم (٩٩٨).

«بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»، قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربها وبني عمه. وأخرج البخاري^(١) من طريق سعيد بن مرجانة صاحب علي بن الحسين قال: قال لي أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيما رجل أعتق امرأ مسلمًا استنقذ الله بكل عضو منه عضوًا منه من النار»، قال سعيد بن مرجانة: فانطلقت به إلى علي بن الحسين، فعمد علي بن الحسين رضي الله عنه إلى عبد له قد أعطاه به عبد الله بن جعفر عشرة آلاف درهم - أو ألف دينار - فأعتقه.



(١) البخاري (٢٥١٧).

الرد على اليهود وبيان كذبهم واقتنائهم

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّنَّبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا﴾ أي كان حلالاً ﴿لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ﴾ لذرية يعقوب عليه السلام فإسرائيل هو نبي الله يعقوب عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي إلا الطعام الذي حرمه إسرائيل على نفسه، وأشهر الأقوال في بيان الطعام الذي حرمه إسرائيل على نفسه أنه لحوم الإبل ^(١).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أي حرم يعقوب لحوم الإبل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴿قُلْ﴾ لليهود وإذا أردتم يا معشر اليهود التأكد من ذلك ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا﴾.

فاقرأوها ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن ما حرمه الله عليكم كان محرماً على إسرائيل عليه السلام.

ووجه ذلك وإيضاحه أن اليهود عاقبهم الله عز وجل لمعاصيهم وظلمهم فحرم

(١) وإن كانت الأحاديث بذلك لا تخلو من مقال إلا أنها تؤيد هذا القول وتقويه وترجحه على غيره وقد أوردتها في كتابي التسهيل لتأويل التنزيل فارجع إليها إن شئت.

عليهم أشياء في التوراة كانت حلالاً قبل نزول التوراة، حرّمها عليهم لفسقهم وظلمهم وجرائمهم، فذكروا بذلك ووبخوا به فأنكروا ذلك، وقالوا إن هذه الأشياء كانت محرمة على جدنا إسرائيل عليه السلام، ولم تحرم علينا أشياء لجرائمنا وكعقوبة لنا، فكذبوا في دعواهم، وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ۚ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في المواسم أن هذه الأطعمة التي حرمت عليكم في التوراة كانت محرمة على إسرائيل عليه السلام.

هذا، ومن الدليل على أنها كانت محرمة عليهم لظلمهم.

قوله تعالى: ﴿فِظْلَمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حاصلة أن من افتري على الله الكذب من بعد نزول الآيات البينات والدلالات الواضحات وزعم أن الله حرم أشياء على يعقوب عليه السلام، غير التي حرّمها يعقوب على نفسه فأولئك هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بإنزالها أسوأ المنازل، أنزلوها الجحيم والعياذ بالله بكذبهم وافترائهم على الله عز وجل.

هذا، وفي الآية الكريمة أيضاً ردٌّ على اليهود الذين ينكرون النسخ فإذا كان الطعام حلالاً لبني إسرائيل إلا حرم إسرائيل على نفسه ثم بعد ذلك حرّمت أشياء ففي هذا دليل على النسخ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ قل يا رسول الله لهؤلاء اليهود وغيرهم ممن خالفوك ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ في كل ما أخبر به ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فأولى لكم من تكذيبهم، أولى لكم أن تتبعوا ملة إبراهيم (دين إبراهيم)

عليه السلام، فإبراهيم عليه السلام مسلمٌ حنيفٌ مائل عن الشرك إلى التوحيد، موحدٌ لربه عزَّ وجل وما عبد من الله إلهاً آخر، ولا أشرك به شيئاً.

هذا واليهود مشهودون بالكذب مشهودٌ عليهم بالتحريف وإضلال العباد وقد أخرج البخاري في صحيحه^(١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال لهم: «كيف تفعلون بمن زنى منكم؟» قالوا: نحممهما ونضربهما، فقال: «لا تجدون في التوراة الرجم؟» فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتُم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فوضع مدراسها الذي يُدرّسها منهم كفهُ على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءه ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه، فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد، قال: فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة.



(١) البخاري (٤٥٥٦).

بيان أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس وبيان فرضية الحج على العباد المستطيعين

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا بُرَّهِيَمْ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ
عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

هذا بيان لفضيلة المسجد الحرام وتذكير بالخليل إبراهيم عليه السلام، وأمر
من الله عز وجل لعباده بالحج وفرض ذلك عليهم.
فأول مسجد وضع في الأرض هو المسجد الحرام، والدليل على ذلك حديث
أبي ذر رضي الله عنه، وفيه: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال:
«المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال:
«أربعون سنة» قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيت أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد»^(١).
وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي للبيت الموجود بمكة ف (بكة) هي مكة على
رأي الأكثرين.

وقوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي كثير خير، أي الخير الذي يتأتى بسببه كثير، فأصل
البركة النمو والازدياد، وتطلق أيضًا على ثبوت الخير في الشيء، ووجه البركة
حاصل هنا من وجوه:

* منها: مضاعفة ثواب الصلاة فيه، فالصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف

(١) البخاري (٣٤٢٥) ومسلم (٥٢٠).

صلاة فيما سواه من المساجد.

*** ومنها:** الأجر الذي أعد للطائفين والحاجين والمعتمرين.

*** ومنها:** تواجد زمزم، فمأواها طعام طعم وشفاء سقم.

*** ومنها:** ما دعا به إبراهيم الخليل لمكة أن يبارك الله في ثمارها ومدها

وصاعها، إلى غير ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَدَى لِلْعَلَمِينَ﴾.

وجوه هدايته منها أنه قبلة للمؤمنين يهتدون به إلى جهة صلاتهم.

أن به دلائل وآيات تدل على الخالق سبحانه وتعالى. أنه هدى للعالمين إلى

الجنة.

وفي الآية ردُّ على اليهود الذين ادعوا أن أول بيت وضع للناس للذي ببیت

المقدس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا بُرَّهِيَمْ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ حاصل معناه:

في الحرم ﴿ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي دلالات وعلامات واضحات، فهي دلالات وعلامات

على قدرة الله عز وجل، ودلالات وعلامات على أن الذي بناه إنما هو إبراهيم عليه

الصلاة والسلام، أما الآيات البينات فمنها مقام إبراهيم عليه السلام، والمراد به هنا

الصخرة التي كان إبراهيم عليه السلام يقف عليها حتى يتمم بناء الكعبة من أعلى،

فكان فيه أثر قدم إبراهيم عليه السلام^(١)، وهذا مما يدل على أن الذي بناه إبراهيم

عليه السلام.

ثم من الآيات البينات تعظيم الله عز وجل لمن دخل هذا البيت وأمره سبحانه

بتأمين من دخل البيت، فكان الرجل يدخل مكة فيرى فيها قاتل أبيه وقاتل أخيه ولا

يتعرض له بسوء.

(١) كما قال أبو طالب في لاميته:

على قدميه حافياً غير ناعل

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ خبرٌ بمعنى الأمر، أو إن شئت قلت أمرٌ في صورة الخبر فمعناه آمنوا أيها الناس من دخل الحرم (وهو مكة ومنى ومزدلفة عمومًا) وقد وردت النصوص الدالة على تعظيم الحرم، منها: قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

[العنكبوت: ٦٧]

وقول الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ﴾ (٢) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿[قريش: ٣، ٤].

وقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِيطُ إِلَيْهِ شَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقول النبي ﷺ يوم فتح مكة^(١): «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها» فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لقينهم وليوتهم فقال: «إلا الإذخر».

وقول النبي ﷺ: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح»^(٢).

وقول النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة...»^(٣).

وقول أبي شريح العدوي^(٤): لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته

(١) أخرجه البخاري (٤٣١٣) ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وهو عند البخاري أولاً من مرسل مجاهد، ثم عقبه بالمتصل عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً، وله عدة طرق عن أنس أيضاً في «الصحيحين» وعن غير أنس كذلك في «الصحيحين»، وغيرهما أيضاً.

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٩٥)، ومسلم (١٣٥٤) من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه مرفوعاً.

أذناني ووعاه قلبي وأبصرته عينايا حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي في ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فيه دليل على فرضية الحج على المستطيع فهو ركن من أركان الإسلام وعلى ذلك أدلة منها:

قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس... وحج البيت»^(١).

قول النبي ﷺ: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»^(٢).

قول النبي ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله... وتحج البيت إن استطعت

إليه سبيلًا»^(٣)، وثم أدلة أخرى يأتي ذكرها في مظانه إن شاء الله.

ولأهل العلم في قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ في تفسير السبيل أقوال:

فمنهم: من يرى أن السبيل هو الزاد والراحلة، وقد ورد بذلك حديث ضعيف

عن رسول الله ﷺ^(٤).

ومنهم: من يرى أن المراد بالسبيل: الصحة.

ومنهم: من يرى أن المراد بالسبيل: الطاقة للوصول إلى الحج، والذي يظهر

(١) أخرجه البخاري (حديث ٨، ٤٥١٥)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

(٣) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) انظره في كتابي جامع أحكام الفقهاء.

لي والله تعالى أعلم أن المراد بالسييل: ما يحتاج إليه الحاج لحجه من راحلة وزاد وصحة وأمن في الطريق ومحرم للمرأة ونحو ذلك.
وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

لأهل العلم فيه أقوال أحدها أن المراد بالكفر هنا: هو الكفر بالله عز وجل، ومنهم من قال: إن المراد بالكفر هنا: الكفر بفريضة الحج، أي: من كفر بفرض الحج ولم يره واجباً^(١).

أما المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فالمراد به والله أعلم: من جحد فريضة الحج وأنكرها وكفر بها فإن الله غني عنه وعن عمله وحجه بل وعن جميع الخلق من الإنس والجن، والله أعلم.



(١) وثم أقوال آخر منها: ألا يكون معتقداً في حجه أن له الأجر عليه ولا أن عليه بتركه إثماً ولا عقوبة. وبعض العلماء يرى أن المراد: ومن كفر بالآيات التي في مقام إبراهيم، ومنهم من قال غير ذلك، والصواب قول من قال: (من جحد فريضة الله وأنكرها وكفر بها فإن الله غني عن العالمين).

عتاب أهل الكتاب وتوبيخهم على كفرهم وصددهم الناس عن سبيل الله وتحذير المسلمين من اتباعهم وطاعتهم والأمر بتقوى الله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ٩٨﴾ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٩﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْنَصِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٠٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قل يا رسول الله لليهود والنصارى ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لم تجحدون آيات الله عز وجل وتنكرونها وترفضون الإيمان بها ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ والله مطلع على أعمالكم وسيحاسبكم عليها. ثم مزيد من التوبيخ لأهل الكتاب ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ﴾ لم تمنعون الناس من سلوك الطريق الموصل إلى الله عز وجل وإلى مرضاته وجناته، لم تمنعون من أراد الإيمان، وكذا لم تشككون من آمن، لم تشككون في دينه وتسعون لصرفه عن دينه ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي أتريدونها طرقاً معوجة مائلة عن طريق الحق والصواب، أتريدونها طرقاً توصل إلى الجحيم وقد

يطلق العوج أيضًا على الهلاك.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي وأنتم شهداء على أن الدين الحق هو الإسلام وقيل وأنتم شهداء أي عقلاء، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ربنا ليس بغافل عن صنيعكم وما صنعتموه من إضلال الناس والسعي لصرفهم عن دينهم. ثم يحذر الله عز وجل أهل الإيمان، يحذرهم من طاعة المنحرفين من أهل الكتاب، والزائفين منهم فيقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾، وهذا الفريق هو الفريق الزائغ الضال الداعي إلى كفره وضلاله.

ثم يستمر التحذير فيقول تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكم إن كفرتم، والآيات تتلى عليكم والرسول ﷺ بينكم إن عذاب ربكم لكم لشديد ولكن ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ يستمسك بدينه ويثبت عليه ويلجأ إلى الله عز وجل كي يثبته ويحفظه ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي فقد وفق لسلوك الطريق المستقيم الموصل لجنت الله ومرضاته.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وغضبه وعقابه وقاية، والوقاية هذه لها صور منها توحيد الله عز وجل فهو خير وقاية، ومن ثم كلمة (لا إله إلا الله) أطلق عليها كلمة التقوى والصلاة وقاية والصدقة وقاية، والخوف من الجليل وقاية والوقايات كثيرة بحمد الله. هذا، ومن العلماء من يرى أن الآية الكريمة منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْنُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾.

ومنهم من يرى أنها ليست منسوخة بل هي محكمة، ورأى بعض هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿فَاقْنُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مبين لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ فعليه يكون المعنى: (فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم) قال القرطبي: وهذا أصوب ^(١).

(١) مستند القائلين بتصويب عدم النسخ، أن عدم النسخ هو الأصل، وأيضًا يُصار إلى النسخ إذا لم

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ معناه والله أعلم: حافظوا على إسلامكم واثبتوا عليه وسلوا الله الثبات عليه في حياتكم وصحتكم وسلامتكم حتى تموتوا عليه، ففي الغالب أن من عاش على شيء ودوام عليه مات عليه.

أما الأحاديث في معنى هذه الآية الكريمة فمنها: حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»^(١).

ومنها: حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»^(٢).



^(١) يمكن الجمع ولكن ما دام الجمع ممكناً فالمصير إليه أولى، والله تعالى أعلم.

^(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً.

^(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً.

الأمر بالاعتصام والتمسك بالكتاب العزيز والسنة المباركة
والاجتماع على ذلك، والنهي عن الفرقة والاختلاف والحث على
الدعوة إلى الله عز وجل وبيان بعض مصائر الخلق التي
يصيرون إليها يوم القيامة

قال الله عز وجل: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ
مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ
مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ
أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا
الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾.

أصل الحبل هو السبب الذي يتوصل به إلى البغية والمراد.

أما المراد بحبل الله في الآية الكريمة فمنهم من يقول إنه عهد الله، ومستنده في ذلك قول الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾.

ومن العلماء من يقول: إن حبل الله هو القرآن، وقد وردت بذلك أحاديث مرفوعة إلى رسول الله ﷺ لكن فيما وقفت عليه منها ضعف.

لكن مع هذا كله قال فريق من أهل العلم: إن حبل الله المراد به هنا القرآن، وممن قال بهذا ابن مسعود رضي الله عنه ^(١) وغيره.

ومن العلماء من يقول: إن حبل الله هو القرآن والعهد الذي عهد فيه.

ومنهم من يقول: إن حبل الله هو الجماعة.

ومنهم من يقول: إنه إخلاص التوحيد لله.

ومنهم من يقول: إنه الإسلام.

وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو ما يتوصل به إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، فالقرآن يتوصل به لذلك، وكذلك الإسلام، وكذلك الجماعة، وكذلك إخلاص التوحيد لله، وكذلك التمسك بعهد الله عز وجل وأوامره. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ نهي عن الفرقة والاختلاف، وقد جاءت في ذلك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، منها:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

(١) قال ابن جرير الطبري رحمه الله (٧٥٧٠): حدثنا أبو كريب قال: حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ﷺ ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال: حبل الله: القرآن، وإسناده صحيح.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُكْفَرُوا بِكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾

[الأنعام: ١٥٩]

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ

مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ

بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سبحانه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ الْغَاوَةَ

وَالْبَعْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

أما الأحاديث الواردة في هذا الباب فكثيرة نذكر منها ما يلي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه ^(١) أن رسول الله ﷺ قال: «ياكم والظن فإن الظن أكذب

الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا

تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً

ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل

الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

وعن أبي مسعود رضي الله عنه ^(٣) قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٥).

(٣) أخرجه مسلم (٤٣٢).

ويقول: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم...» الحديث.

وعن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ^(٢) قال: سمعت رجلاً قرأ آية وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافاً فجئت به النبي ﷺ فأخبرته فعرفت في وجهه الكراهية وقال: «كلا كما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عند جده ^(٣) قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلك الأمم قبلكم» [حسن].

قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخليني عنه.

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم فقال: «استوصوا بأصحابي خيراً، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفسو الكذب حتى إن الرجل ليتدئ بالشهادة قبل أن يسألها، فمن أراد منكم بحبوة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، لا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٦) وفي غير موضع من «صحيحه».

(٣) جده هو: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، والحديث عند ابن ماجه (٨٥)، وأحمد في «المسند» (٢/ ١٧٨، ١٩٥).

(٤) صحيح بمجموع طرقه، وقد تحدثت عنه في تحقيقي للمنتخب لعبد بن حميد رقم (٢٣) بما فيه الكفاية.

حديث ابن عباس ^(١) رضي الله عنهما قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فقال النبي ﷺ: «هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجد، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله ^(٢)، فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا».

قال عبيد الله (أحد رواة الحديث): فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغتهم.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ^(٣) قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وله سياق آخر عند مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأوسط من رمضان يلتمس ليلة القدر قبل أن تَبان له، فلما انقضى أمر بالبناء فقوض ثم أبينت له أنها في العشر الأواخر، فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس فقال: «يا أيها الناس إنها كانت أبينت لي ليلة القدر وإني خرجت لأخبركم بها فجاء رجلان يحتقان معهما الشيطان فنسيتهما فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان...» الحديث.

والشاهد منه أن العلم بليلة القدر رفع للاختلاف، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي تذكروا نعمة الله عليكم باجتماعكم بعد فرقة واختلاف

(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٢) وفي غير موضع، ومسلم (حديث ١٦٣٧) وغيرهما.

(٢) الذي كان يقول ذلك هو عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٢٣).

فالخلاف شر، ونقمة والاجتماع رحمة ونعمة والمراد هنا نعمة التآليف بين القلوب والاجتماع على الإسلام وترك القتال فيما بينهم، كما قال رسول الله ﷺ للأنصار يوم حنين «ألم أجدكم ضالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي»^(١)، فقد كانت العداوة بين الأوس والخزرج (وهما من الأنصار) على أشدها في الجاهلية، واستمرت الحروب بينهم سنين طويلة حتى جاءهم رسول الله ﷺ فجمعهم الله عز وجل عليه بعد فرقة، وهداهم بعد ضلالة، وأعزهم بعد ذلة، وألف بين قلوبهم بعد شتات.

أما النعمة في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ يعني والله أعلم نعمة الإسلام والإيمان فهي أعظم النعم على الإطلاق وكذا نعمة التآليف بين القلوب. وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

معناه: والله أعلم: أنكم كنتم على حافة النار فإذا متم على الكفر فقد سقطتم في حفرة النار، فأنقذكم الله تعالى بما من به عليكم من الإسلام والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي وكما أنقذكم من النار فكذلك يبين الله لكم الدلالات على وحدانيته وقدرته لعلكم توفقون للإيمان ولعلكم تسلكوا سبل الهداية، والله أعلم.



(١) البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

الحث على الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

المعنى والله أعلم، ولتكن منكم يا أهل الاسلام جماعة يدلون الناس على الخير ويرشدونهم إليه ويأمرونهم به وكذا ينهونهم عن المنكر ويحذرونهم منه وينفرونهم عنه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب وهو الجنة ورضوان الله عليهم والناجون من المرهوب، وهو عذاب جهنم وسخط الله عز وجل.

هذا، ومن العلماء من ذهب إلى أن قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ للتبويض، بمعنى وليكن بعضكم دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر.

وقد وردت جملة أدلة تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها:

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقول الله سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءًا بِالمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]. ولم يُمكن كل الناس في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]. وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وقال سبحانه: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَٰهَ وَأَكْلِهِمُ السَّحَابَ لَئِيسَ مَا كَانُوا يَعْنُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

أما أحاديث رسول الله ﷺ فكثيرة في هذا الباب، منها:

حديث رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١).

وقول النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها...» الحديث، وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فيه نهْيٌ عن الفرقة والاختلاف، إذ الفرقة والاختلاف شأن اليهود والنصارى وشأن أهل البدع والأهواء والضلالات، فقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ يا أهل الإيمان ﴿كَالَّذِينَ

(١) مسلم (٤٩).

تَفَرَّقُوا وَاحْتَلَفُوا ﴿﴾ وهم اليهود والنصارى اختلفوا بعد مجيء رسول الله ﷺ والقرآن، وأيضاً يدخل في المتفرقين المختلفين أهل البدع، وأصولهم ستة وهم الحرورية (وهم الخوارج) وأطلق عليهم الحرورية لكونهم كانوا يسكنون بلدة يقال لها حروراء.

ومنهم (أعني من أهل البدع): المرجئة والجهمية والرافضة والجبرية، ثم انقسمت كل فرقة منهم إلى عدة فرق وأضاف بعض العلماء إلى الفرق المذكورة أيضاً النواصب وهم الذين يكونون العداوة لآل بيت رسول الله ﷺ ولا شك أنهم أيضاً أهل ضلال.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴿هُمَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وأعظمه يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. أما الذين تبيض وجوههم يوم القيامة فهم أهل التوحيد والإيمان، فإن الله عز وجل يسألهم يوم القيامة هل تريدون شيئاً فيقولون «ألم تبيض وجوهنا» الحديث.

ومنهم: أقوام يزداد بياض وجوههم وهم أول زمرة تدخل الجنة كما قال النبي ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة»^(١).

ومنهم: حفظة حديث رسول الله ﷺ المبلغون له؛ لقول النبي ﷺ: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها»^(٢).

أما الذين تسود وجوههم يوم القيامة ففيهم جملة أقوال للعلماء:

فمنهم من قال: إنهم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة.

ومنهم من قال: إنهم المرتدون من هذه الأمة، وشاهدهم على ذلك قوله تعالى:

﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً.

(٢) هذا حديث ثابت صحيح بل هو متواتر عن رسول الله ﷺ.

ومن أهل العلم من قال: إنهم المنافقون فهم قد شهدوا أن لا إله إلا الله ثم ارتدوا.

ومنهم من قال: هم عموم الكفار لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧] والخلود لا يكون إلا مع الكفر. ولقول الله تعالى: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ غَيْرٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [٤٠] أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ [عبس: ٤٠-٤٢]، أما كيف يلتئم هذا مع قوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فإن المراد بالإيمان هنا الإيمان المأخوذ عليهم وهم في صلب أبيهم آدم، والمذكور في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

أو الإيمان الذي أقروا به لما سئلوا من خلق السموات والأرض فقالوا: الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، وكما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٨٨] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ [المؤمنون ٨٨، ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي يقال لهم على سبيل التوبيخ والتفريع أكفرتم بعد إيمانكم ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ قيل المراد بالرحمة هنا «جنة الله» فالجنة يرحم الله بها من يشاء من عباده كما في الحديث القدسي «أنت رحمتي أرحم بك من أشياء».

وإن كان للرحمة معانٍ آخر مبسوطة في أماكنها إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ما كانوا أبدًا لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها، فهم لا يبعثون عنها حولاً، أي لا يريدون تحولاً عنها.

هذا، وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ثم بين ربنا جل وعلا حال الذين اسودت وجوههم قبل حال الذين ابيضت وجوههم بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أسلوب بلاغي معروف باللف والنشر عند البلاغيين فالذي ذكر آخرًا بدأ ببيان حاله أولاً كالشيء الذي يلف فعند نشره، ينشر الذي لف آخرًا قبل الذي لُف أولاً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ هذه التي تلونها عليك هي آيات الله عز وجل تلونها عليك بالحق ذكرناها لك وقصصناها عليك بالحق، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ فمن عدله وفضله سبحانه وتعالى أنه بين للخلق طريق الحق والصوب وأرشدهم إليه ورغبهم فيه، وحثهم على سلوكه، وكذا حذرهم من طرائق الغي والضلال، ونفرهم عنها وبين لهم عقوبة من سلكها.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يتصرف فيها سبحانه كيف يشاء ويقضي فيهما جل وعلا بما يريد ﴿وَالِى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وهو سبحانه أيضاً فعال لما يريد يُدبر الأمر من السماء إلى الأرض، منتهى الأمور كلها إليه وخزائن كل شيء بيديه. جل وعلا.



خيرية هذه الأمة لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها بالله وبيان بعض مخازي وجرائم أهل الكتاب

قال الله عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ
الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يُوَلَّوْكُمْ
الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ
مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَعْضٍ مِّنَ اللَّهِ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ
الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ المراد كنتم أمة محمد ﷺ خير
أمة أخرجت للناس وكنتم في هذا الموطن للعلماء في معناها أقوال، منها:
خلقتهم ووجدتم خير أمة، على أساس أن (كان) هي كان التامة.
كنتم في اللوح المحفوظ مكتوبين أنكم خير أمة.
كنتم عند من سبقكم من أهل الكتاب المذكورين أنكم خير أمة، وأهل الكتاب
يعلمون ذلك عندهم.

وقيل: إن (كان) زائدة في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، والمعنى أنتم خير
أمة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، وكما

في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، كما في قول شعيب عليه السلام لقومه، وقال سبحانه للمؤمنين من أمة محمد ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]، والله تعالى أعلم.

وقد وردت عدة أحاديث في فضل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم منها:

قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

أما الأحاديث عن رسول الله ﷺ في هذا الباب فكثيرة منها:

قول النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..»^(١).
وقول النبي ﷺ: «إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل»^(٢).

وقول النبي ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله، فالناس لنا تبع اليهود غداً، والنصارى بعد غدٍ»^(٣).

هذا، وأقوى وجه لانتفاع الأمم بأمة محمد ﷺ أن أمة محمد ﷺ تدعو سائر الأمم إلى الإسلام، وإن احتاج الأمر للقتال قاتلتها حتى تدخلها الإسلام فتنجيها من عذاب الله عز وجل يوم القيامة.

هذا، ويجدر التنبيه على وجه الجمع بين ما ذكر من فضل أمة محمد ﷺ وتفضيلها على سائر الأمم مع قوله تعالى لبني إسرائيل ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(١) صحيح وقد تقدم.

(٢) صحيح وقد تقدم.

(٣) أخرجه الطبراني (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وحاصل الجمع أن بني إسرائيل فضلوا على العالمين في زمانهم ووجه آخر أنهم فضلوا عمومًا في مسائل خاصة ووجه خاص ككثرة الأنبياء فيهم وكثرة المعجزات كذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ بيان لما كانت عليهم أمة محمد ﷺ في الصدر الأول والصحابة والتابعون وأتباع التابعين. وما ينبغي أن يكون عليه عموم الأمة، وفي الآية فضيلة للآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر حاصلها أن الخيرية في هذه الأمة منوطة بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها بالله، فإذا تخلت عن إيمانها بالله وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر سلبت منها تلك الخيرية، والله أعلم.

هذا، ولماذا قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، فأجاب بعض العلماء على ذلك بقولهم إن من الأمم السابقة من آمن بنبيه عليه السلام، فاشترك مع هذه الأمة في الإيمان، لكن فاقه أهل هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد يقال: إن الواو لا تقتضي الترتيب في كل الأحوال، بل تقتضي مطلق التشريك، كما بيناه في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي ولو آمن اليهود والنصارى لكان إيمانهم خيرًا لهم من الموت على الكفر ودخول جهنم والعياذ بالله.

أما قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي قل منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن الطاعة المنصرفون عن الإيمان بالله عز وجل ورسوله محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ المراد به لن ينالوا منكم شيئاً إلا أذى يسيراً بألستهم كقولهم: عزيز ابن الله والمسيح ابن الله، وكذلك بقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة، وبطعنهم في محمد وعيسى عليهما السلام، وبإلقاء الشبه على الأسماع وتخويف ضعفة الإيمان من المسلمين، وبتحريفهم التوراة والإنجيل.

وعلى العموم فالمراد بالأذى هنا الضرر اليسير.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ﴾ لأصحاب النبي ﷺ، والمعنى: أن أهل الكتاب لن ينالوا من أصحاب محمد ﷺ إلا أذى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُؤَلُّوكمُ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ هذا الخطاب إما أنه لأصحاب النبي ﷺ، وعليه فلا إشكال في الآية الكريمة، فإن اليهود والنصارى لما قاتلوا أصحاب محمد ﷺ ولى اليهود والنصارى الأدبار، ثم لم ينصروا.

وقد يقال: إن هذا خطاب لعموم أمة محمد ﷺ المتبعين لشريعته العاملين بها وهنا يخرج العلمانيون والشيوعيون والاشتراكيون الذين قاتلوا اليهود فولوا الأدبار، والله تعالى أعلم.

فيقال لأهل الإيمان: إنكم ما دمتم مستمسكين بإيمانكم متبعين لكتاب ربكم وسنة نبيكم ﷺ، فلن ينال اليهود والنصارى منكم شيئاً، أما إذا فرطتم في دينكم وعصيتهم ربكم ونبيكم ﷺ حل بكم من البلاء على قدر ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَوْنَ﴾ أي لصقت بهم الذلة وأحيطت بهم في كل مكان، فيحاربوا فتقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، وتفرض عليهم الجزية. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾.

قال بعض أهل العلم إن المراد بحبل من الله هو الإسلام.

وحبل من الناس هو العهد والذمة.

وقيل: إن حبل الله هو الذمة والعهد الذي أعطاهما الله عز وجل لليهود

والنصارى إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وحبل من الناس: هو عقود المصالحة التي يجريها إمام المسلمين مع اليهود والنصارى، فيزيد فيها الإمام تارة وينقص تارة أخرى، والله تعالى أعلم.

﴿وَبَاءُ وَيَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ﴾ رجعوا وقد غضب الله عليهم لتكذيبهم الأنبياء ولجحودهم بآيات الله عز وجل وكفرهم بها.

وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي وفرضت عليهم الجزية، كذا قال بعض العلماء، وقال آخرون إن اليهود دوماً تظهر عليهم آثار المسكنة وإن كانوا أثرياء.

وقال آخرون: أصبحوا مساكين في زمن رسول الله ﷺ وصحابته بعد أن كانوا أغنياء، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما أصيبوا به من كونهم أصبحوا أذلاء وضربت عليهم المسكنة وأن الله غضب عليهم سببه ﴿يَأْتُهُمْ كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يحدونها وينكرونها ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أي أن الذين أصابهم، إنما أصابهم لكونهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، وبسبب عصيانهم واعتدائهم. والله أعلم.

هذا، والذلة والمسكنة تنزلان على كل شخص بحسب جرائمه التي اقترفها، والذلة والمسكنة مضروبتان على كل يهودي سواء المتقدم منهم أو المتأخر، أما المتقدم منهم فلكونه باشر قتل الأنبياء في عصره، وأما المتأخر منهم فلكونه رضي بما صنع المتقدم من قتل واعتداء، وأيضاً فالجميع ^(١) كانوا يكفرون بآيات الله.

وإن قال قائل: فما بال اليهود الآن فيما هم فيه من الشراء وغيره، فجوابه لهم موعدٌ لن يخلفوه، فقد قال تعالى ﴿وَلَنَ عُدَّتُمْ عِدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ وقد يمهل الفاجر مع فجروه كي يزداد إثماً فيؤخذ بجرائمه وآثامه، والله أعلم.

(١) إلا من سلمه الله منهم.

وجود طائفة مؤمنة من أهل الكتاب قبل مبعث النبي ﷺ

قال الله عز وجل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ فيه قولان:

الأول: لا تستوي أمة محمد ﷺ مع أهل الكتاب.

الثاني: لا يستوي أهل الكتاب فيما بينهم، فمنهم الصالح ومنهم الطالح.

ويشهد للقول الأول ما أخرجه أحمد بإسناد حسن^(١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما أنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال: وأنزل الله هؤلاء الآيات: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ **[آل عمران: ١١٣-١١٥]**، فهذا يؤيد صحة القول الأول.

وثم سبب نزول آخر أخرجه ابن أبي حاتم^(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

(١) وأخرجه أيضًا ابن أبي حاتم «التفسير» (١٢٢٦)، والطبري (٧٦٦٢).

(٢) ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٢٢٠)، وفي إسناده مجهول، وأخرجه أيضًا الطبري (٧٦٤٤).

لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم فأمنوا وصدقوا ورغبوا ومنحوا فيه، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، لكن في إسناده مجهول.

لكن كلا المعنيين للآية صحيح، والله تعالى أعلم.
وعلى القول بأن قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ منزلة على أهل الكتاب فيما بينهم، فوجه ذلك أن أهل الكتاب لا يستون، فمنهم أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل، وأمة شقية غوية كافرة عاصية لم تذكر في السياق لدلالة السياق عليها؛ لأن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الضد الآخر.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي من اليهود والنصارى جماعة قائمة أي قائمة بأوامر الله عز وجل، تقيم حدوده وتطيع أوامره وتنتهي عن نواهيه عادلة مهتدية مستقيمة على الهدى وشرائع الله وفرائض دينه، كما قال النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة...» الحديث، وقد تقدم، وكما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، أي: ملازمًا للاقتضاء، ملازمًا للمطالبة.

وبعض العلماء يقول: إن المراد بقائمة (أي: قائمة في الصلاة) تتلو القرآن فيها، وهذا المعنى جزء من المعنى الأول، والتفسير بالعموم أولى والله تعالى أعلم.
وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ المعنى، والله أعلم، أن من أهل الكتاب أمة مطيعة لربها مستقيمة على أمره عاملة بكتابه، هذه الطائفة تتلو آيات الله في صلاتها ليلاً.

وقوله تعالى: ﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي ساعات الليل، وكذا فهي ساجدة لربها، وخاضعة له، وليس المعنى أن هذه الأمة تقرأ القرآن أثناء سجودها لأن النبي ﷺ

قال: «إني نهيت أن أقرأ القرآن راکعاً أو ساجداً»^(١). فلا بد من تأويل الآية إذا تأويلاً لا يتعارض مع حديث رسول الله؛ لأن القرآن وحي والسنة وحي كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقد زعم بعض أهل العلم أن المراد بقوله تعالى هنا: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يصلون، ورد ابن جرير الطبري هذا التأويل، وقال: وإنما معنى الكلام من أهل الكتب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم، وهم مع ذلك يسجدون فيها، ف (السجود) هو السجود المعروف في الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يصدقون بواحدية الله عز وجل ويؤمنون بالبعث والقيامة والجزاء والثواب والعقاب ﴿وَيَاْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي منهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي ومنهم من يسارع في الخيرات كذلك ويسابق إليها ويحرص عليها ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الموصوفون بالصفات المتقدمة من أهل الصلاح. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ معناه، والله أعلم وما يفعلوا من خير فلن يضيع ثوابه عليهم بل يدخره الله لهم ويكافئهم الله به، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وكما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

[البقرة: ٢٧٢]

(١) أخرجه مسلم (مع النووي ٤/ ١٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة، والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راکعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم».

وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].
والآيات في هذا المعنى كثيرة، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي عليم بأهل التقى الذين يتقون عذابه وغضبه.



بيان عدم انتفاع أهل الكفر بأموالهم وأولادهم يوم القيامة

يبين الله عز وجل أن أهل الكفر لن ينتفعوا يوم القيامة بمالٍ ولا بولدٍ

فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم يضرب الله عز وجل مثلاً لنفقاتهم التي أنفقوها ولذهاب ثوابها

فيقول تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.



التحذير من اتخاذ الكافر مستشارين وبيان عداوتهم للمسلمين ورغبتهم في إضلالهم

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِن تَصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ ينهى الله المؤمنين في هذه الآية الكريمة أن يتخذوا لأنفسهم بطانة ممن ليس على دينهم وطريقتهم وسنتهم من الكفار واليهود والنصارى وأهل الأهواء والفسق والفجور، يطلعونهم على أسرارهم ويشاورونهم في آرائهم ويُسندون إليهم أمورهم، وذلك لأن هؤلاء الذين ليسوا على ديننا من المذكورين لا يدخرون جهداً لإضلالنا، ولا يُقصرون في إغوائنا وإفسادنا وغشنا وإنزال المشقة بنا.

فقوله: ﴿بَطَانَةً﴾ أي أخلاء ومستشارين ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من غيركم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يقصرون في إغوائكم وإفسادكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ رغبوا في نزول

المشقة والعنت بكم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ قد ظهرت الألفاظ الدالة على بغضهم لكم وكراهييتهم لكم من أفواههم وإن حاولوا كتمانها وإخفاءها عنكم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما تخفيه صدورهم لكم من البغضاء أكبر مما يظهره لكم من البغضاء ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. والآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

هذا، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة؛ إلا وكانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله تبارك وتعالى»^(١). وقوله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ﴾ أي ها أنتم يا هؤلاء يا أهل الإسلام ﴿يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ فيها أقوال:

تحبون لهم الإسلام والهداية، وهم يحبون لكم الكفر. تحبونهم لما بينكم وبينهم من قرابة ومصاهرة ورضاع ونحو ذلك، ولكنهم لا يحبونكم، وذلك كما قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]، أي: لا عهداً ولا قرابة.

تحبونهم فتخالطونهم وتتخذون منهم بطانات وتفشون إليهم الأسرار ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ ولا يفعلون معكم مثل ما تفعلوه معهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ يرى بعض أهل العلم أن المراد بالكتاب هنا عموم الكتب التي نزلت على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فالمؤمنون يؤمنون بها، أما اليهود والنصارى وأهل النفاق فيؤمنون ببعضها ويكفرون ببعض، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي أظهروا لكم الإيمان وأبطنوا الكفر

(١) البخاري (٧١٩٨).

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْهِمْ أَلَانَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي عضوا أطراف أصابعهم من شدة غيظهم وضيقتهم منكم وهو تعبيرٌ يطلق على كل من تضايق من شخص واشتد ضيقه وغيظه منه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ قل يا رسول الله لهؤلاء ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ ادعوا عليهم أن يموتوا والغيظ يملأ قلوبهم، فإن الله سبحانه سيوسع على المؤمنين، ويفتح لهم البلاد، ويُدبر عليهم الخيرات، وهذا كله لا يزيد أهل النفاق إلا غيظاً يملأ قلوبهم ويموتون وهذا الغيظ مستحوز على قلوبهم، والله تعالى أعلم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ما تكنه الصدور وما تخفيه وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ﴾ يا أهل الإيمان ﴿حَسَنَةً﴾ نعمة من الله ﴿تَسُوهُمْ﴾ يستاءوا لذلك ويكرهوا ذلك، أعني أهل الكفر والنفاق يكرهون نعم الله على أهل الإيمان ﴿وَإِنْ تُصَبِّحُكُمْ﴾ يا أهل الإيمان ﴿سَيِّئَةً﴾ مصيبة وبليّة ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ يفرح أهل النفاق بها، فأعرضوا يا أهل الإيمان عنهم ولا تشغلوا بهم وهذا سبيل من سبل السلام والنجاة، ألا وهو لزوم الصبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه عملهم.

وهذا أسباب يسلم بها المؤمن من كيد الفجار وشر الأشرار منها:
الصبر وتقوى الله عز وجل. كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وللعلماء في الصبر هنا أقوال منها:

الصبر على ما أمر الله به من ترك اتخاذ بطانة من دون المؤمنين، وعموم الصبر على أوامر الله والثبات عليها، والتقوى المراد بها هنا: اتقاء المعاصي والشرك.
والاستعانة بالصلاة أيضاً، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

الاستغفار والتضرع واللجوء إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاتَّخَذْتَهُمِ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

قول حسبنا الله ونعم الوكيل، فقد قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]

ومنها: ترك أرض الفتن لحديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً^(١)، وحديث: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»^(٢)، لأن البكر الذي يزني يُغرب عن البلاد. ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].



(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال لا، فقتله فكمّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق، أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقياسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة».

(٢) أخرجه البخاري (حديث رقم ١٩) وفي عدة مواطن آخر من صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً.

ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ غَزْوَةِ أَحَدٍ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٢١ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٢٢﴾.

المعنى، والله أعلم، واذكر يا رسول الله يوم أحد إذ خرجت من عند أهلك وقيل إنها عائشة رضي الله عنها خرجت صباحاً، تتخذ مواقع وتهيئ مقاعد للمقاتلين من أصحابك كي يقفوا فيها، وترتب لهم الصفوف، والله سميع بأقوالك وأقوال أصحابك عليهم بنواياهم جميعاً وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ أما الطائفتان فهما بنو سلمة وبنو حارثة، وذلك لقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] قال: نحن الطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة، وما نحب - أو ما يسرني - أنها لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ ^(١) [آل عمران: ١٢٢].

أما صورة الفشل فهي: أنهما همتا أن ينصرفا عن رسول الله ﷺ بعد أن تسرب إليهما بعض الجبن والخور، فمعنى تفشلا: تجبنا وتتخاذلا عن نصره رسول الله ﷺ، ولكن الله عز وجل ثبتهما، ولم ينصرفا مع من انصرف وانفض عن رسول الله ﷺ من أهل النفاق.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ أي ناصرهما وحافظهما، ومنجيهما من الفشل والجبن ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فليعتمد المؤمنون على الله عز وجل، هذا،

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٨) ومسلم (٢٥٠٥).

وصلة الآية بالتالي قبلها أن الله عز وجل بين لأهل الإيمان في الآية التي قبل هذه الآية - أن الصبر وتقوى الله يكفي الله بهما كيد الأعداء ويرده، أما العصيان فهو سبب للخذلان والهزيمة، كما وقع في غزوة أحد من بعض أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم.



شيء من ذكر غزوة بدر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ (١٢٧).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي واذكروا يا أصحاب رسول الله واذكروا يا أهل الإيمان يوم بدر، يوم أن نصركم الله على عدوكم وأنتم أقل منهم عددًا وعددًا فتفسير الذلة هنا بمعنى القلة، قلة العدد وقلة السلاح وعدم القدرة على مقاومة العدو، وهي كما قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَيَأْوِيَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُنْصِرُهُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وبعض أهل العلم يؤول الذلة تأويلًا آخر فيقول: ﴿ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي: في أعين الكفار والمنافقين، كما قال أهل النفاق: ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذِلَّ ﴾ [المنافقون: ٨].

لكن القول الأول عليه الأكثرون، ألا وهو تفسير الذلة بالقلة، والله أعلم.

وعليه فإذا فسرنا الذلة هنا بالقلة اندفع الإشكال الذي قد يرد ويقول قائل كيف ذلك والله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والله أعلم.

هذا، وقد كان عدد المؤمنين قليلاً يوم بدر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر وقد أخرج البخاري ^(١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكان المهاجرون يوم بدر نيماً على ستين، والأنصار نيماً وأربعين ومائتين. وفي رواية ^(٢) عن البراء أيضاً قال: حدثني أصحاب محمد صلوات الله عليهم ممن شهد بدرًا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمائة، قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن.

وقد وقع عند مسلم من حديث ابن عباس ^(٣) رضي الله عنهما قال: حدثني عمر: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلوات الله عليه وآله إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر.. الحديث، لكن قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ^(٤): لكن أخرجه أبو عوانة وابن حبان بإسناد مسلم بلفظ: (بضعة عشر).

قلت (القائل مصطفى): والأمر في هذا قريب والجمع ممكن بأن يكون بعض من عد أصحاب بدر عد من استصغر منهم، والآخر لم يعدهم، أو يكون عد نفسه وعد رسول الله صلوات الله عليه وآله، والآخر لم يدخل ذلك في العدد، أو أن أحدهم عد السقاوة والأعين، والآخر لم يعدهم أو نحو ذلك، وكل ذلك قريب.

وبدر موضع بين مكة والمدينة، التقى عنده رسول الله صلوات الله عليه وآله والمشركون، فهزم الله الشرك وأهله في ذلك اليوم عند ذلك الموضع، وقد سميت بهذا الاسم كسائر البلدان التي سميت بأسماء، ولا يكاد يُعرف لها تعليل.

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٩٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٧٦٣).

(٤) «فتح الباري» (٧ / ٣٤١).

وقال بعض العلماء: إنها سميت بدرًا نسبة إلى بئرٍ فيها يُقال لها: بدر. وهذا رأي الأكثرين.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ معناه والله أعلم. فاتقون، فإن تقواكم لي هي شكر نعمتي، أي: فاتقون لعلكم بتقواكم لي تكونوا قد أدبتم شكر نعمتي، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ هذا تذكير بنعم الله عز وجل على أهل الإيمان يوم بدر والمعنى واذكر قولك يا رسول الله لأهل الإيمان المجاهدين معك يوم بدر أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ من السماء، فإذا كان أهل الكفر ألف، فما أنتم قد أمدكم الله عز وجل بمددٍ من عنده من السماء بثلاثة آلاف ملك.

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ لبيان معناه أقول، وبالله التوفيق إن أهل الكفر قد توعدوا المسلمين أن يأتوا لاستئصالهم مرة ثانية، فوعد الله أهل الإيمان وعدًا حسنًا حاصله إن أتى أهل الكفر ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي من ناحية واتجاههم وسفرهم، وقيل من غضبهم (أي بسبب غضبهم) الذي غضبوه لمن قتل منهم يوم بدر، إن أتوا فإن الله عز وجل سيمدكم يا أهل الإيمان ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي معلمين بعلامات يعرفون بها، وقيل تعرفونهم بها حتى تطمئنوا وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

حاصل معناه: وما جعل الله هذا الإنزال، إنزال الملائكة إلا لتبشيركم وتقوية قلوبكم تطمئن قلوبكم إذا علمتم أن الملائكة تقاتل معكم وتطمئن قلوبكم إذا رأيتموها، وقد رآها بعض الصحابة، وتطمئن قلوبكم إذا نزلت السكينة عليكم مع نزول الملائكة وتطمئن قلوبكم بوعد الله عز وجل لكم، وذلك لأن النفوس البشرية

جُبلت على الاطمئنان بالأسباب الظاهرة وقد قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وقال الحواريون: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فالقلوب تطمئن بالأسباب الظاهرة، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ فالملائكة لا تنزل إلا بأمر الله، والله قادر على نصركم دون إنزال الملائكة، وقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يشرع سبحانه وتعالى.



قتال الملائكة يوم بدر

هذا، وقد قاتلت الملائكة يوم بدر مع أهل الإيمان وشهدت القتال وباشرته والأدلة على ذلك كثيرة منها:

قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۖ﴾.

[الأنفال: ١٢]

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۖ﴾ [الأنفال: ٩]، وهذا في يوم بدر كما هو واضح من سياق الآيات، وقد أطبق أهل العلم على ذلك.

وأخرج مسلم^(١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف والصحابة ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشتدك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۖ﴾ فأمره الله بالملائكة، قال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتر في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم،

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٧٦٣).

فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فتحدث بذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذاك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»^(١).

وعن علي رضي الله عنه^(٢)، قال: قيل لعلي ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكم جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو قال: يشهد الصف.

وعن رفاعه بن رافع رضي الله عنه (٣) الزرقى رضي الله عنه أنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم» قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها قال: «وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة».

أما عن عدد الملائكة الذين قاتلوا يوم بدر فقد وردت أدلة في هذا الباب، قد ورد ما في الآيات السابقة (ثلاثة آلاف، وخمسة آلاف) وورد في سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وبعض أهل العلم يقولون:

إن هذا كله كان يوم بدر.

أمدهم الله بألف من الملائكة مردفين.

ثم أمدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين.

ثم أمدهم الله بخمس آلاف من الملائكة مسومين.

وممن قال بهذا القول: قتادة^(٤) رحمه الله، وقريب منه قول الحسن رحمه الله

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٧/١)، وأبو يعلى (٢٨٣-٢٨٤)، والحاكم (٣/١٣٤) بإسناد صحيح، والقائل لهما هو رسول الله ﷺ كما هو واضح في رواية أبي يعلى وغيره.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٢).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري رحمه الله (٧٧٥٤) بإسناد حسن عن قتادة رحمه الله أنه قال: في قوله

تعالى^(١).

وقال بعض أهل العلم: إنما أمد المسلمون بألف ثم بثلاثة آلاف يوم بدر، ثم أخبروا أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين ببدر فوعد المؤمنون أنهم سيُمدون بخمسة آلاف من الملائكة مسومين إذا جاء مدد المشركين، فلم يأت مدد المشركين، ولم يُمد المسلمون بخمسة آلاف^(٢).

وقال فريق من أهل العلم: إنما أمد المسلمون يوم بدر بألف من الملائكة فقط لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وأما قوله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [١٢٤] ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ فهي وعود مشروطة، فلما لم يأت مدد المشركين، لم يأت الثلاثة آلاف ولا الخمسة.

وقال بعض أهل العلم: إن قوله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]. لا يفهم منه صراحة أنهم مدوا أم لم يمدوا، وممن قال بهذا القول: ابن جرير رحمه الله.

تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ أمدوا بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ وذلك يوم بدر أمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة.

(١) أخرج ابن جرير (٧٧٤٥) من طريق محمد بن سنان، قال: حدثنا أبو بكر الحنفي عن عباد عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ الآية كلها: هذا يوم بدر.

(٢) أخرج الطبري (٧٧٤٦) وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٣٥٠) بإسناد صحيح عن الشعبي (عامر ابن شراحيل) أنه قال: إن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يمد المشركين، فشق عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قال: فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين، ولم يُمد المسلمون بالخمسة. وإسناده صحيح إلى الشعبي رحمه الله لكنه مرسل.

وقال بعض أهل العلم: إنما أمد المسلمون بألف ثم بثلاثة آلاف يوم بدر، ووعدوا إن صبروا وجاءهم العدو أن يمدوا بخمسة آلاف، فلما جاءهم العدو يوم أحد ولم يصبروا ولم يتقوا ولم يطيعوا رسول الله ﷺ فيما أمرهم به من الثبات في أماكنهم لم يمدوا بالملائكة.

وبالنظر في أقوال جمهور المفسرين مع النظر إلى ما قدمنا ذكره نجد أن قول أكثر المفسرين في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٤] أن ذلك كان يوم بدر، بينما ذهب قليل منهم إلى أن ذلك كان يوم أحد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ معناه، والله أعلم: أن الله عز وجل نصركم ببدر؛ ليهلك ويقطع ويقتل طائفة من الكفار ويهدم ركنًا من أركان الشرك فيرجع أهل الكفر الباقون مكبوتين محزونين خائبين لم ينالوا ما طمعوا فيه.

وقد صح عن قتادة في هذه الآية أنه قال: فقطع الله يوم بدر طرفًا من الكفار وقتل صناديدهم - رءوسهم وقادتهم في الشر^(١).



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٣٨٢) وابن جرير الطبري (٧٧٩٦).

عود إلى التذكير بشيء حدث يوم أحد

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لهذه الآية أكثر من سبب نزول صحيح، وكما هو معلوم فقد تعدد أسباب النزول الصحيحة للآية الواحدة، فيحدث أمرٌ ما مثلاً ثم أمرٌ آخر، ثم أمرٌ ثالث فتتزل الآية فيهم جميعاً.

أما أسباب النزول التي صحت لهذه الآية الكريمة فمنها:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما ^(١) وفيه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الأولى من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد» فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

حديث أنس رضي الله عنه ولفظه: أن رسول الله ﷺ كسرت ربايعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل يسלט الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا ربايعيته وهو يدعوهم إلى الله عز وجل» فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ^(٢).

وتم أسباب نزول أخرى وردت لهذه الآية وفيها مقال، وما قدمناه من أسباب

(١) البخاري (٤٥٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.

نزول لها فهي صحيحة، وأصح ما ورد في هذا الباب، والله أعلم.
وأما عن معناها، فمعناها، والله أعلم لك يا محمد من أمر خلقي شيء إلا أن تنفذ فيهم أمري وتبلغهم ما أرسلت به، أما ما وراء ذلك فالأمر كلها لله وحده بقضاء الله وقدره، فهو سبحانه المالك لأمرهم إن شاء أهلكهم في هذه الحياة الدنيا أو قطع طرفاً منهم، وإن شاء كتبهم فأخزاهم وأحزنهم وردهم خائبين، وإن شاء هداهم وتاب عليهم، وإن شاء عذبهم في الآخرة، فالأمر كلها لله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقال بعض العلماء: إن قول النبي ﷺ: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم» استبعاد من رسول الله ﷺ لهدايتهم وتوفيقهم، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تقريب لما استبعده رسول الله ﷺ. وهذا القول أحد أفراد القول المتقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

المراد بالظلم هنا: الشرك، فإن الذين شجوا نبيهم ﷺ كانوا مشركين، والظلم يطلق على الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].
وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أمثل ما قرأته في تفسيره ما ذكره الطبري رحمه الله إذ قال يعني بذلك تعالى ذكره: ليس لك يا محمد من الأمر شيء، والله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها دونك ودونهم، يحكم فيهم بما يشاء ويقضي فيهم ما أحب فيتوب على من أحب من خلقه العاصين أمره ونهيه ثم يغفر له، ويعاقب من شاء منهم على جرمه فينتقم منه، وهو الغفور الذي يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضل عليه بالعفو والصفح، والرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلاً على عظيم ما يأتون من المآثم.



التحذير من أكل الربا والوعيد الشديد لأكله

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝١٣١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾.

حاصل ما في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ أن الرجل في الجاهلية كان يُدّين الرجل المبلغ إلى أجل مثلاً فإذا حل الأجل ولم يجد المدين ما يسدده به الدين طلب منه صاحب الدين تأخير مع الزيادة فيه، ويتكرر هذا فيتضاعف المبلغ القليل أضعافاً فنهو عن ذلك.

أما قليل الربا وكثيره فمحرم من نصوص آخر مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩﴾.

[البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۚ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقد رأى النبي ﷺ أكل الربا يسبح في نهر أحمر مثل الدم، وعلى شط النهر رجل قد جمع أحجاراً كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كما رجع

إليه فغر له فاه فألقمه حجرًا... الحديث (١).

وقد ذكر بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿أَضَعْنَا مُصْعَقَهُ﴾ خرج مخرج الغالب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] فليس معناه تجويز قتل الأولاد لغير الإملاق، وكما قال تعالى: ﴿وَرَبِّئُكُمْ أَلْتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فالجمهور على تحريم الريبة، سواء كانت في الحجر أو لم تكن في الحجر (٢).

هذا، وأكل الربا لا يُعدُّ كفرًا لأن الله عزَّ وجل قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ولكن الربا كبيرة من الكبائر فلا يكفر الشخص بها ولكن ذهب كثير من العلماء إلى أن من استحلها فقد كفر قال صديق حسن خان في تفسيره فتح البيان: قال كثير من المفسرين: وفيه أنه يكفر من استحل الربا.

قلت (مصطفى): المراد باستحلال الربا أن يقول إن الربا حلال، وليس المراد منه من اختلف، في صورة من صور الربا هل هي حرام أم حلال وكذلك ليس المراد كل من رابى فهو كافر، فالمرابي مرتكب لكبيرة من الكبائر أما مستحل الربا فهو كافر وإن لم يُرابِ والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ اجعلوا بينكم وبين غضب الله وعقابه وقاية بترك ما حرم عليكم وفعل ما أمركم به لعلكم تفوزون بمطلوبكم وهو الجنة ورضوان الله وتسلمون من مرهوبكم وهو النار وسخط الله عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ لا يفيد أن النار لا يدخلها أحد غير الكافرين، بل يدخلها أقوام مسلمون أسرفوا على أنفسهم ثم يخرجون

(١) الحديث أخرجه البخاري (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، وظاهره أنه في رؤيا منامية، وقد رأى بعض العلماء أن رؤيا الأنبياء وحي لقول الخليل إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

(٢) وبعض العلماء يرى أن الريبة لا تحرم إلا إذا كانت في الحجر لظاهر الآية.

منها، وهؤلاء الذين لم يغفر لهم من أكلة الربا والزناة والقتلة ونحوهم، كما ورد في حديث المفلس الذي يأتي بصلاة وصيام وزكاة وحج ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، فيأخذ هذا من حسنة، وهذا من حسنة، فإن فئت حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار^(١).

ثم كيف يوجه قوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ مع ما ذكرنا؟ أجاب العلماء على ذلك بوجه:

أولها: أن الكافرين هم أصحابها الأصليون الذين لا يخرجون منها كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، ومن ثم ذكرت النار بأنها أعدت للكافرين، إذ الوارد عليها من أهل الإسلام والداخل فيها منهم إنما يدخلها ثم يخرج، وذلك كما قال النبي ﷺ: «إنما بنيت المساجد لذكر الله وإقام الصلاة وتلاوة القرآن»^(٢) مع تجويز بعض الأمور الأخرى فيها كالتقاضي والإصلاح بين الناس وربط الأسير ونحو ذلك.

فقوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ليس على سبيل الحصر.

الثاني: أن النار دركات كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أندرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسنة وهذا من حسنة، فإن فئت حسنة قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار».

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ترموه دعوه» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ: قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشبه عليه.

الْعَذَابِ ﴿ غَاثِر: ٤٦ ﴾، فقله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى تلك الدركات التي أعدت للكافرين.

الثالث: أن المراد من وصف النار بأنها مُعدة للكافرين تعظيم الزجر.
وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بيان لسبب رحمة الله بنا، فطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ سبب لرحمتنا.
وكذا فمعصيته سبب لعذابنا، سلمنا الله والمسلمين من العذاب.



الحث على المسارعة إلى الخيرات وبيان بعض صفات المتقين

قال الله عز وجل: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ١٣٤ ﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿ ١٣٥ ﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿ ١٣٦ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي وبادروا بفعل ما يجلب لكم المغفرة من ربكم عز وجل، من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وصلاة وصيام وحج وصدقة واستغفار وتوبة وإخلاص وسائر أعمال البر، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي وبادروا بفعل ما يكون سبباً لإدخالكم جنة عرضها السموات والأرض وعبر بالعرض دون الطول لأمر منها: أنه عبر بالعرض ليدل على عظم الطول واتساعه كما قال الله سبحانه وتعالى في صفة فرش الجنة ﴿ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي: فما ظنك بالظواهر،

فعليه فالطول لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وبعض العلماء يقول: إن عرضها كطولها.

وبعض العلماء يقول: إنما عُبر بالعرض؛ ليدل على الاتساع، كما يقول القائل:

هذه دعوى عريضة أو بلاد عريضة أي: كبيرة متسعة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يراه بعض العلماء على ظاهره

وأن السموات والأرض تقرن بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض، فذلك عرض الجنة، وهذا قول الجمهور من المفسرين.

وبعض أهل العلم يقول: إن المراد ببيان الاتساع فشبه عرض الجنة بأوسع ما

علمه الناس من خلق الله تعالى.

وقد ورد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل نحو هذا السؤال

فأجاب بقوله: رأيتم إذا جاء الليل أين يكون النهار، وإذا جاء النهار أين يكون الليل ^(١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ بيان لصفات المتقين الذين

أعدت لهم جنات عرضها السموات والأرض، فأول صفاتهم ها هنا أنهم ينفقون في السراء والضراء ولأهل العلم في بيان ذلك أقوال منها:

أن السراء: هي اليسر. والضراء: هي العسر.

وقيل: السراء: هي الرخاء. والضراء: هي الضيق.

وقيل: السراء: المنشط ^(٢). والضراء: المكروه ^(٣).

(١) أخرجه الطبري رحمه الله تعالى (٧٨٣٣، ٧٨٣٤، ٧٨٣٥) من طرق عن قيس بن مسلم عن طارق

ابن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: تقولون (جنة عرضها السموات والأرض) أين تكون النار، فقال له عمر: رأيتم إذا جاء النهار أين يكون الليل؟ رأيتم الليل إذا جاء أين يكون النهار؟ فقال: إنه لمثلها في التوراة فقال له صاحبه: لم أخبرته؟! فقال له صاحبه: دعه إنه لكل موقف. وهذا إسناد صحيح.

(٢) المنشط: هو الأمر الذي يحبه الرجل وينشط له.

(٣) المكروه: هو الأمر الذي يبغضه الرجل ويكره فعله.

وقيل: السراء المراد بها: النفقة في الحياة.

والضراء: النفقة بعد الممات (بالوصية).

وقيل: النفقة في السراء (العرس والولائم).

والنفقة في الضراء: (النوائب والمآثم).

وقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ المراد به، والله أعلم الذين امتلأت قلوبهم وصدورهم غيظًا مما آذاهم به الناس، ومع ذلك فهم يكظمون هذا الغيظ ولا يمضونه في الناس، ويزداد الفضل ويرتفع الأجر إذا كانوا قادرين على إمضائه ولكنهم تركوه لله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ معناه والله أعلم: التاركين عقوبة من أساء إليهم وأذنب في حقهم واستحق المؤاخذه.

وبعض العلماء يقول: إن المراد بالناس هنا هم الخدم والماليك؛ لكن الصحيح من قول أهل العلم أن الآية عامة.

وقد وردت عدة نصوص في الحث على كظم الغيظ والعفو عن الناس، منها قول الصديق يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن صنعوا معه ما صنعوا ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقوله تعالى في شأن أهل الإيمان: ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[النور: ٢٢]

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَكَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أما الأحاديث في ذلك فكثيرة:

منها قول النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

ونحوه قول النبي ﷺ: «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: «ليس بذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢).

وقول رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني وأقلل علي فيه لعلني أعيه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تغضب» فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً كل ذلك يقول: «لا تغضب»^(٣).

ونحوه أن رجلاً قال: يا رسول الله أوصني قال: «لا تغضب» قال الرجل: ففكرت حين قال ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله^(٤).

وجاء الرجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد اعدل^(٥) وصبر عليه رسول الله

ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه وجوه إما أن يقال: إن المحسنين هم الذين يعبدون الله عز وجل كأنهم يرونه فينفقون في السراء والضراء ويكظمون

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٣) أخرجه الترمذي (حديث ٢٠٢٠) بهذا اللفظ بسند صحيح، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه البخاري (٦١١٦) بلفظ: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مراراً قال: «لا تغضب».

(٤) أخرجه أحمد (٣٧٣ / ٥) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، بإسناد صحيح.

(٥) أخرجه مسلم (حديث ١٠٦٣) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفة من حنين، وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس، فقال: يا محمد اعدل قال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل» فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي» (٣٦١٠)، مسلم (ص ٧٤٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

الغيظ ويعفون عن الناس لا اعتقادهم أن الله عز وجل يراهم أو كأنهم يرون الله عز وجل^(١).

أو يقال: إن مقام الإحسان هنا كمقامه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] فالعدل: هو القصاص والإحسان: هو العفو، وهذا يتناسب مع قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وبالجمله فإن الإحسان كتبه الله في كل شيء كما جاء عن رسول الله ﷺ^(٢) فالإنفاق فيه إحسان على الفقراء، وخذ الشفرة فيه إحسان على الذبيحة، وقوله تعالى في شأن المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه بيان لسعة رحمة الله عز وجل بالعباد وفيه بيان أن التقي قد تزل قدمه ويقع في الفاحشة والعياذ بالله ولكنه يتوب ويندم ويستغفر الله ولا يصبر على فعله، فالفاحشة التي ارتكبها لم تخرجه عن عداد المتقين ما دام قد ندم واستغفر ولم يصبر على فعلها هذا والمراد بالفاحشة هنا على رأي الأكثرين فاحشة الزنا وذلك لأن الله عز وجل قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

والمراد بظلم النفس في قوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ما دون الكبيرة من قبله أو نظرة أو معانقة ونحو ذلك، وقد اختار هذا أكثر المفسرين، وبعض العلماء يقول: إن الفاحشة ظلم النفس، وظلم النفس فاحشة أيضًا. وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ﴾ من العلماء من قال: هو ذكر الله باللسان، والمراد: الاستغفار من الذنوب التي اقترفوها.

(١) كما ورد عن رسول الله ﷺ في تفسير الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». أخرجه مسلم في «صحيحه» وقد تقدم.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبيح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

ومنهم من قال: هو ذكر الله بالقلب، والمعنى: أنهم ذكروا وعيد الله عز وجل لمن عصاه، وذكروا عظمة الله عز وجل فاستحيوا منه، وذكروا أنهم مسئولون أمام الله عز وجل عما اقترفوه، وذكروا نهي الله عز وجل عن الفعل الذي فعلوه، وذكروا العرض على الله عز وجل وذكروا أيضًا أن الله فتح لهم باب التوبة حتى يستغفروا الله عز وجل من ذنوبهم، ذكروا ذلك كله فسألوا ربهم عز وجل أن يستر عليهم ذنوبهم بصفحة لهم عن العقوبة عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثناءً على الله عز وجل فالذي يغفر ويتجاوز هو الله فهو الغفور وهو الغفار وذو مغفرة للناس وهو غافر الذنب وقابل التوب تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ للعلماء فيه أقوال منها:

الاستمرار على المعصية وعدم الإقلاع عنها.

الثبوت عليها من غير استغفار.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه أيضًا أقوال منها:

وهم يعلمون أن الإصرار يضر.

يعلمون أن الله عز وجل لا يتعاضمه العفو عن الذنوب، بل هو سبحانه يغفر الذنوب جميعًا.

يعلمون أن الله يتوب على من تاب.

يعلمون أنهم قد أذنبوا.

وفي الآية الكريمة حثٌّ على الاستغفار وتنبيه على عدم اليأس من رحمة الله فحتى التقى قد تصدر منه فاحشة، وقد وردت جملة أدلة فيها الحث على التوبة والاستغفار وعدم اليأس من رحمة الله منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ

يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿[الزمر: ٥٣، ٥٤].
وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِدُنُوبِهِمْ ﴿[آل عمران: ١٣٥].

وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿[نوح: ١٠].
وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[المزمل: ٢٠].
وقال عز وجل: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿.
[هود: ٣]

وأثنى الله على المحسنين فقال: ﴿وَيَا لَأَسْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿[الذاريات: ١٨].
وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿[النساء: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴿[التوبة: ١٠٤].

أما الأحاديث في هذا الباب فكثيرة منها:

قول النبي ﷺ: «إن الله عز وجل يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط
يده في النهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١).
وقول النبي ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في
أرض فلاة»^(٢).

وفي رواية^(٣): «الله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على
راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة
فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ
بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح».

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم.

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثالث الأخير من الليل فيقول: هل من مستغفر فأغفر له...».

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: بعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»^(١).

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عبداً أصاب ذنباً فقال: رب أذنبت ذنباً فاغفره فقال ربه: أعلم عبدي أنه له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً، فقال: رب أذنبت - أو أصبت - آخر فاغفره فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً، وربما قال: أصاب ذنباً، فقال: رب أصبت أو أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء»^(٢).

وقال النبي ﷺ: «لولا أنكم تذنبن لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم»^(٣).

وقال النبي ﷺ: «إن ربك يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري»^(٤).

وقال النبي ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»^(٥).

وهذا، والمصرُّ على المعصية على خطر عظيم، ولكنه ليس بكافر، ومن الأدلة

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩) في «المستند» وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٨) من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦)، وأحمد (١١٥ و ١٢٨ و ٩٧١)، والحاكم (٢/

٩٨-٩٩).

(٥) ورد في ثنانيا حديث الإفك.

على عدم كفره^(١) ما يلي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

[النساء: ٤٨، ١١٦]

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وقول النبي ﷺ لما ذكر جملة من الكبائر: «فمن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له».

وقصة البغي من بغايا بني إسرائيل التي كانت تزني فوجدت كلباً يلهث من العطش فنزعت موقها فسقته فغفر الله عز وجل لها^(٢).

وقصة الصحابي الذي كان يكثر من شرب الخمر، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: لعنك الله ما أكثر ما يؤتى بك، فقال النبي ﷺ: «إنه يحب الله ورسوله»^(٣).
وقول النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٤).

وحديث البطاقة وفيه أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل سيخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا

(١) إلا إذا استحل معلوماً من الدين بالضرورة كأن يقول مثلاً: الزنا حلال، ونحو ذلك.

(٢) صحيح أخرجه البخاري ومسلم وقد تقدم.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب فأتى به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه فو الله ما علمت أنه يحب الله ورسوله»^(*).

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (ص ٩٥) من حديث أبي ذر مرفوعاً، «وما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة».

(*) «ما علمت» أي: ما علمت عليه إلا أنه يحب الله ورسوله، أو قد علمت أنه يحب الله ورسوله.

ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء^(١).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْدَمُ أوصافهم﴾ ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يجازيهم الله بأنه سبحانه يغفر لهم ذنوبهم وجزاؤهم أيضاً ﴿وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ بطاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ، والله أعلم.



(١) صحيح أخرجه الترمذي (٢٦٣٩) وأحمد (٢/٢١٣).

التذكير بأن الأيام دولٌ بين الناس وبيان

حتمية الابتلاء والحث على الصبر

قال الله سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمَسُّكُمْ كَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ كَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) .

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ قد مضت وتقدمت من قبلكم سنني وطرائقي في أعدائي وكيف أصنع بهم وكيف وأنني أنتصر لأوليائي، فقد تقدمتكم أممٌ وسبقتكم قرون مكذبين برسلي تاركون توحيدى معذبون لعبادي فأمهلتهم على تكذيبهم وشركهم وإيذائهم لعبادي إلى أجل أجلته لهم ثم أخذتهم وانتقمت لرسلي ولعبادي منهم، فكان الآية الكريمة فيها تصبير للمؤمنين على ما أصابهم من قتل وجراح يوم أحد من أهل الشرك والتكذيب، وفيها أيضًا تحذير لأهل الشرك

من البقاء على شركهم وتكذيبهم وتنبيههم على أن ما حدث لهم يوم أحدٍ من نصرٍ في الظاهر إنما هو استدراج لهم، والله تعالى أعلم.
وقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ نظر المتفكر المعبر المتعظ المتأمل
﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ كيف كانت نهايتهم وآخر أمرهم.
فقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لأهل العلم فيه قولان:

أحدهما: أنه السير في السفر، والذهاب إلى أماكنهم، والمعنى: إذا سرتهم في أسفاركم عرفتم أخبار الهالكين بتكذيبهم.

الثاني: أنه التفكير، ومعنى انظروا، اعتبروا، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا القرآن فيه إشارات للناس تدلهم على الطريق الصحيح الذي يسلكونه وتبينه لهم وتظهره لهم، وأما المراد بالهدى فهو الكلام الهادي إلى سبيل الحق وطريق الرشاد المأمور بسلوكه.
والمراد بالموعظة: الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين، والله أعلم بمراده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تجبنوا ولا تضعفوا يا أهل الإيمان ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ولا يتسرب إليكم الحزن، وكان حزنهم على أمور منها.
قتل إخوانهم من المسلمين يوم أحد، وما أصاب المسلمين من هزيمة يومها.
ما أصاب النبي ﷺ من شج رأسه وكسر رباطه.
ما فات من الغنيمة، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وأنتم في المقام الأعلى بإيمانكم، وقيل وأنتم الغالبون إن كنتم مؤمنين، والذي أصابكم إنما أصابكم بما صدر من بعضكم من عصيان لنبينا ﷺ^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ إن يُصيبكم قتلٌ وجراحٌ ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ فقد أصاب أهل الكفر أيضًا قتلٌ وجراح.
فالذي أصابكم أصابكم يوم أحد، والذي أصاب الكفار أصابهم يوم بدر.
والآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ

(١) وسيأتي مزيد بيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَهِ﴾.

يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ أيام الحروب والمعارك وكذا سائر الأيام ﴿نُذَاوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي نصرها بين الناس، فيوم ينتصر المسلمون وتكون لهم الدولة والغلبة ويوم آخر ينال المشركون من المسلمين ويلحقون بهم بعض الأذى. والآية وإن كانت في سياق القتال، إلا أنها بعمومها تشمل أموراً كثيرة أخرى، فهذا اليوم غني وذاك فقير وغداً تتقلب الأحوال!! وهذا اليوم صحيح وذاك مريض وغداً تتقلب الأحوال!! وهذا اليوم يضحك وذاك يبكي، ثم تتقلب الأحوال.

وهذا اليوم مكروب، وذاك سعيد، وغداً تتقلب الأحوال، وهذا يموت له عزيز، وذاك يولد له مولود فيسعد!! وهكذا في جل الأمور والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الحكمة من تداول الأيام بين الناس وكما هو معلوم فإن الله عز وجل يعلم الأشياء قبل وقوعها وعند وقوعها وبعد وقوعها فهو علام الغيوب.

ولأهل العلم توجيهات لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أولها وأشهرها - هو رأي الجمهور - أن المراد بالعلم هنا المشاهدة والرؤيا أي لِنرى. **الثاني:** أن هذا من باب التمثيل، أي: فعلنا فعل من يريد أن يعلم. **الثالث:** أن المراد بالعلم هنا التمييز، أي: لتمييز الثابتين على الإيمان من غيرهم. وشم أقوال آخر في هذا الباب، والله أعلم.

ثم بين الله عز وجل حكمة أخرى من تداول الأيام بين الناس، ألا وهي ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ﴾ يا أهل الإيمان ﴿شُهَدَاءَ﴾ أي ليكرم ربنا من شاء أن يكرمه بالشهادة في سبيله.

هذا، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

وقد قال بعض أهل العلم: إن النصر لو كان حليفاً للمؤمنين في كل معركة لدخل في أهل الإسلام من ليس منهم من أهل النفاق وغيرهم طمعاً في الدنيا ورغبة

فيها وحباً للغنائم والأموال.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فيه بيان بعض العقوبات التي بُشِّرَ بها الظالمون، فالله لا يحبهم ولا يرضى صنيعهم، الله لا يحب أهل الشرك ولا يحب ظلم ظالم ولا يكرمه بظلمه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي والذي يصيب المسلمين ويصابون به من قتل وجراح وغير ذلك لاختبارهم وامتحانهم وابتلائهم وتنقيتهم وأيضاً ففي مداولة الأيام بين الناس (محق الكافرين) كما قال تعالى: ﴿وَيَمَحِّقُ الْكُفْرِينَ﴾ أي يهلكهم ويتنقص عددهم ويحبط عملهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ حاصل معناه أفظنتم يا أهل الإيمان ويا أصحاب رسول الله ﷺ أن تدخلوا الجنة وتنالوا شرف الشهادة والإكرام من الله عز وجل، وترتفع منازلكم عنده من غير أن تسلكوا طريق المجاهدين الصابرين، ومن غير أن يتليكم الله عز وجل بالشدائد والمكاره حتى يعلم الله المجاهد منكم والصابر!!! وفي الآية الكريمة بيان لكون الابتلاء سيقع والاختبار سيكون في هذه الحياة الدنيا، وعلى ذلك أدلة كثيرة منها:

قوله الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].
وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾.

[محمد: ٣١]

وقول الله تعالى: ﴿الْمَ ۝١ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

[العنكبوت: ١-٣]

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهٍّ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

[التوبة: ١٦]

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].
وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ بَغْيٍ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

[الحج: ٤٠]

أما الأحاديث فكثيرة:

منها: قول ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي^(١).

ما ذكره النبي ﷺ عن الراهب والغلام: (الذين وردت قصتهما مع قصة أصحاب الأخدود الذين خدت لهم الأخاديد) إذ قال الراهب للغلام: «إنك خير مني وإنك ستبتلى»^(٢).

قال النبي ﷺ: «يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه»^(٣).

وقال خباب بن الأرت رضى الله عنه: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعوا الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه»^(٤).

(١) أخرجه البخاري حديث (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم حديث (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضى الله عنه مرفوعاً.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

(٤) أخرجه البخاري (٢٦١٢).

الحث على الصبر والإيمان والثبات والتذكير بأهل الفضل والصلاح

قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۝١٤٣ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۝١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُوجَبٌ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ۝١٤٥ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝١٤٧ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٤٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ﴾ يا أهل الإيمان ﴿تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ تتمنون الموت، وقيل المراد به هنا لقاء العدو وقتاله.

وقيل: المراد الشهادة في سبيل الله، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ أي من قبل أن

تعاينوا أسبابه وترون مقدماته: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمْوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ فقد جاءكم ما تتمنوه فيها هي المعارك لمن أراد الشهادة في سبيل الله، وها هو العدو لمن أراد قتال الأعداء، وها هي المعارك وأنت ترونها وترون الموت فيها وترون من يحظى بالشهادة في سبيل الله فيها.

النهي عن تمني الموت

وهنا تنبيهه على أنه لا يشرع تمني الموت إلا إذا خشى الشخص على نفسه الفتنة في دينه، وها هي بعض الأدلة على ذلك:

قول النبي ﷺ: «ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا وإما مُسيئًا فلعله أن يستعقب»^(١).

قول النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت من ضرٍّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»^(٢).

قول خباب بن الأرت رضى الله عنه وقد اکتوى سبع كيات... ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به^(٣).

أما الأدلة على جواز تمني الموت خشية الفتنة في الدين فمنها:

قول مريم عليها السلام: ﴿يَلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾.

[مريم: ٢٣]

وقول سحرة فرعون: ﴿وَمَا نَنْفَعُ مَنَا إِلَّا آتَاءَ مَنَا يَأْتِيَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُ رَبَّنَا أَفَرَحُ

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، والنسائي (٣/٤) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٢٦٨١)، والنسائي (٤/٤).

عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿[الأعراف: ١٢٦].

وقول النبي ﷺ: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني غير مفتون»^(١).

وقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: اللهم إني كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط^(٢).

أما ما ورد عن رسول الله ﷺ من قوله: «اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى»^(٣) فهو إيثار منه عليه الصلاة والسلام للآخرة على الدنيا، فإنه عليه الصلاة والسلام خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار الرفيق الأعلى.

أما قول يوسف رضى الله عنه للموت في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فهو طلب لحسن الخاتمة. والله تعالى أعلم.



(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح (٢٤٣/٥).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٢٤) من طريق سعيد بن المسيب عن عمر، وفي سماع سعيد عن عمر خلاف.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٤)، ومسلم (٣٤٤٤) وغيرهما من حديث عائشة رضى الله عنها.

الحث على تمني الشهادة في سبيل الله

هذا وتمنى الشهادة في سبيل الله مستحب وقد قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل»^(١).

وقال النبي ﷺ: «ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»^(٢).

وقال النبي ﷺ: «يؤتي بالرجل من أهل الجنة فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك فيقول: أي رب خير منزل فيقول: سل وتمن فيقول: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة»^(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»^(٤).

ويشرع للمرأة أن تسأل ربها عز وجل الشهادة، وذلك لما ورد عن أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها قالت: نام النبي ﷺ يوماً قريباً مني ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي رواية للبخاري: «فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة».

(٣) أخرجه أحمد والنسائي من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (مع النووي ١٣ / ٥٥) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه، ونحوه عند مسلم أيضاً من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب الشهادة صادقاً أعطوها ولو لم تصبه».

أضحكك؟ قال ﷺ: «أناس من أمتي عرضوا عليّ يركبون هذا البحر الأخضر كالمملوك على الأسرّة»^(١)، قالت فادع الله أن يجعلني منهم، «فدعاهما»، ثم نام الثانية ففعل مثلها، فقالت مثل قولها فأجاب مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: «أنت من الأولين»، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازيًا أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين فنزلوا الشام فقرّبت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت.

هذا، ومع أنه يُشرع تمنى الشهادة في سبيل إلا أنه لا يشرع تمنى لقاء العدو، بل يكره لقول النبي ﷺ: «لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(٢).

وأعود إلى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾.

قال بعض أهل العلم: إن هذا للتأكيد - أعني - رأيتموه وأنتم تنظرون، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ويرى بعض أهل العلم أن الرؤية إن الرؤية قد تأتي بمعنى العلم كقول القائل: أرى أن الصواب كذا وكذا، فأتي بالنظر في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ لبيان أن المراد بالرؤية العلم.

وقيل المعنى: وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي وما محمد ﷺ بإله، ولكنه عبدٌ من عباد الله ورسول من رسل الله تقدمته رسل من قبله ﴿أَفَايُنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي ارتددتم عن دينكم ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئًا.

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ٦/١٥٦)، ومسلم في المغازي (٢/٨) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥٣) من حديث عائشة، وذلك بإسناده إلى الزهري عن أبي سلمة عن عائشة فذكرته، ثم قال البخاري: قال الزهري: وحدثني أبو سلمة عن عبد الله بن عباس فذكر ما هو أعلاه.

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وسيثيب الله عز وجل الثابتين على دينهم الحامدين ربهم على ما من به عليهم من نعمة الإيمان والثبات عليه. وقد تلا أبو بكر رضي الله عنه هذه الآية الكريمة ومناسبة تلاوته عندما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضره الموت فأقبل على فرس من مسكنه بالسُّنْح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُغَشَّى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّهَا ^(١).

وعن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان منكم يعبد محمدًا صلى الله عليه وسلم فإن محمدًا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ **[ال عمران: ١٤٤]**، وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُّوجِلًا﴾، أي وما كان ليحدث أن نفسًا تموت إلا عند الأجل الذي قدره الله عز وجل وأجلها إليه، فكل نفس لها أجلٌ ستحيا إلى أن تقضيه، فقد كُتِبَ عمرها وأجلت إلى انقضائه وقوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ **[ال عمران: ١٤٤]**، إلا بقضاء الله وأمره وقدره فلن تموت قبل مرور الزمن المقدر لها أن تحياه وفي نص الآية آيات كثيرة جدًا منها:

قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ **[الحجر: ٤، ٥]**.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ **[الحجر: ٤٢]** ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا

(١) القائل هو: الزهري أحد رواة الحديث.

يَسْتَعِزُّونَ ﴿[المؤمنون: ٤٢، ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعِزُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

[النحل: ٦١]

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

أما أحاديث رسول الله ﷺ فمنها:

حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»^(١).

وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع برزقه، وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح...»^(٢) الحديث.

وحديث ابن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية قال: فقال النبي ﷺ: «قد سألت الله لآجال مضروبة وآيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يجعل شيئاً قبل حله أو يؤخر شيئاً عن حله»^(٣).

وقول النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض

(١) أخرجه البخاري (٣١٨) وفي غير موضع من «صحيحه»، ومسلم (٢٦٤٦) من حديث أنس ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٩٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٣) من حديث أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعاً.

بخمسين ألف سنة»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي ومن يُرد النعيم في الدنيا فقد نُؤتته منها ولكن هذا مقيدٌ بمشيئة الله كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾.

والمعنى، والله أعلم: أن من أراد بعمله الدنيا وأعراضها ومتاعها أعطاه الله عز وجل ما قسم له من ذلك، ولا يكون له نصيب في الآخرة، أما من أراد الجزاء الأخروي، وما عند الله عز وجل من الكرامة أعطاه الله من ذلك أيضًا.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها:

قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾^(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾^(٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

[البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢]

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾^(١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

أما الأحاديث فمنها:

(١) مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدينا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته على ما هاجر إليه»^(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يُعطى بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزي بها»^(٢).

س: اذكر عدة آيات وأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبَ مُوَجَّلًا﴾؟

ج: أما الآيات والأحاديث في هذا الباب فكثيرة جداً، منها:

قوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ سنكافئ الحامدين ربهم الممثلين أمره المجتنبين ما نهاهم عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ﴾ أي وكم من نبي قاتل معه علماء كثيرون بررة أتقياء، كذا قال البعض في تفسير (رييون) أنهم علماء بررة أتقياء وقيل رييون أي كثيرون من قولهم (ربى الشيء) أي ازداد. فقال البعض رييون أي ألوف كثيرة وجموع كثيرة.

قال تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي فما جنبوا وما ضعفوا لما أصيبوا بالجراح التي أصيبوا بها وأصيب بها إخوانهم في سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ أي: وما تسرب إليهم الضعف عند سماع خبر قتل نبيهم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: وما استدلوا وما استسلموا وما خضعوا

(١) أخرجه البخاري (١) وفي عدة مواطن من «صحيحه»، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٨٠٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً.

لعدوهم، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على قتال أعدائه وعلى الجهاد في سبيله، ويحب الصابرين على أقداره التي قدرها عليهم، والصابرين الممثلين أوامره والصابرين عن معاصيه، الممتنعين عنها.

ثم يذكّرنا الله سبحانه بقول الربيين المقاتلين مع أنبيائه الكرام، عند لقاء العدو فيقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فسألوا الله مغفرة الذنوب وسألوا الله الثبات والنصر.

هذا، وقد قال بعض أهل العلم إن المراد بالذنوب هنا الصغائر والإسراف في الأمور المراد بها الكبائر.

وأصل الإسراف تجاوز الحد، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وكما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وكما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، فالإسراف في الشيء هو تجاوز الحد فيه، فإن قيل قد ورد في دعاء النبي ﷺ أنه طلب من الله أن يغفر له ذنبه وإسرافه في أمره، فكيف يجاب على هذا قلنا: إن هذا من النبي ﷺ على سبيل التواضع منه عليه السلام، وعلى سبيل تعليم أمته كذلك، والله أعلم.

والآية فيها كما ذكر بعض أهل العلم تأنيب للذين فروا يوم أحد وتركوا قتال عدوهم لما سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل فعوتبوا وقيل لهم: هلا فعلتم مثل ما فعل الربيون من قبلكم لما قاتلوا مع أنبيائهم فإنهم لم يضعفوا للجراح التي أصابتهم ولم يتخاذلوا بعد قتل نبيهم ولم يستذلوا لعدوهم ويخضعوا له، والله أعلم.

وفي الآية بيان لتواضع هؤلاء الربيين، وفضل التواضع، وذلك أنهم لما تواضعوا لله واعترفوا بذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وطلبوا من الله الثبات والنصر

على أعدائه وصفهم الله عز وجل بالإحسان، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَكَ لِطُرُقِ الدِّينِ فَمَا دُونَ ذَلِكَ فَأَنذَرْتُهُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَكَ لِطُرُقِ الدِّينِ فَمَا دُونَ ذَلِكَ فَأَنذَرْتُهُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَكَ لِطُرُقِ الدِّينِ فَمَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فيه بيان للجزاء الذي جازى الله عز وجل به المقاتلين مع أنبيائه الصابرين عند لقاء العدو الذين لم يضعفوا ولم يجبنوا ولم يستكينوا، ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صَلَاةَكَ لِطُرُقِ الدِّينِ فَمَا دُونَ ذَلِكَ﴾ والمراد به والله أعلم العزة والغلبة والنصر والغنائم وقوة النفس ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي والثواب الحسن الجميل في الآخرة.

ووصف ثواب الآخرة بالحسن، لأنه النعيم الحسن الباقي، وهو المعتقد به الذي لا يزول كما قال سبحانه: ﴿وَلِئَلَّا يَذَّكَّرَ الَّذِينَ نَسُوا مَا وَعِدْنَاهُمْ وَقَدْ جَاءَهُمْ الْيَوْمُ وَلَآ يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] فلا تشوب هذا النعيم شائبة ولا تعكره الدلاء ولا الأكدار بخلاف نعيم الدنيا فمهما كان فثوبه الشوائب، ثم إن نعيمها منقطع، والله تعالى أعلم.

أما المراد بثواب الآخرة فهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم ورضوان رب العالمين.

وأخبر الله عز وجل أنهم يحبهم ويحب كل محسن بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فمن سلك مسلك الربيب فإن الله يحبه ويكرمه ويشيئه، والله أعلم.



التحذير من طاعة أهل الكفر فيما يدعون إليه من باطلهم

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ تحذير أهل الإيمان من طاعة أهل الكفر فيما يدعونهم إليه من معصية الله والشرك به، فإن طاعته تُوصل إلى الردة عن الدين والشرك بالله، ومن ثمَّ يبوء الشخص بالخسران في الدنيا والآخرة، فقول ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ترجعوا على أنفسكم بالخسارة التي ليست بعدها خسارة، فتخسروا آخرتكم، وتخسروا جنة النعيم وترثوا الجحيم بدلاً منها، والعياذ بالله ولا تظنوا يا أهل الإيمان أن النصر يأتي من وراء طاعة هؤلاء الكفار بل الذي يتولى نصركم هو الله عزَّ وجل، فهذا قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ أي بل الذي يتولى حفظكم ونصركم ويسدّدكم هو الله عزَّ وجل، وهو خير من ينصر ففي الآية الكريمة الحث على موالة الله عز وجل وترك موالة الذين كفروا فالله سبحانه هو خير الناصرين فليعتصم به الذين آمنوا وليستنصروا به ولا يستنصروا بغيره، فأهل الكفر عاجزون متحIRON، فكيف تطلبون النصرة منهم وتكون طلبها من الله

عز وجل وهو خير الناصرين.

وفي الآية التحذير من طاعة أهل الكفر والعصيان، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ۚ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي سنقذف الرعب في قلوب أهل الكفر بسبب شركهم بالله واتخاذهم آلهة مع الله لم ينزل الله حجة بعبادتها ولا أمر بها، فمصير هؤلاء الكفار الذي أشركوا بالله وعبدوا معه غيره النار كما قال تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ آلَتْكَ﴾ مسكنهم الذي يؤون إليه يوم القيامة هو النار.

﴿وَيُسْـَٔٔى الظَّالِمِينَ﴾ وبئس المقام الذي يقيم فيه أهل الشرك الذين ظلموا أنفسهم وأنزلوها أسوأ المنازل، بل ولم يؤدوا لله عز وجل حقه، وأعظم حق له عبادته وعدم الشرك به.

هذا، وفي الآية المتقدمة بيان لسلاح ينصر الله به أهل الإيمان، وهو قذف الرعب في قلوب أهل الكفر وقد قال النبي ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»^(١).



(١) أخرجه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً، وله طرق عن النبي ﷺ.

التذكير ببعض ما كان يوم أحد وبيان أن المعاصي سبب للهزيمة

قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا بيان للحال الذي كان يوم أحد، فقد وعد الله عز وجل أهل الإيمان إن هم صبروا وسمعوا وأطاعوا نبيهم ﷺ أن ينصرهم ويحفظهم ولن يضاروا من عدوهم بشيء كما قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنِ انْصُرُهُ﴾ وكما قال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فتحقق ذلك أول النهار، فسمعوا وأطاعوا نبيهم ﷺ فنصرهم الله، فهذا قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي وعده بالنصر على عدوكم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ إذ تقتلون أهل الكفر بتمكين الله لكم من ذلك. تقتلونهم بأمره وبتسليط الله لكم عليهم وقد دلت الأدلة على أن النصر كان حليفًا للمسلمين أول النهار كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴿ومن السنة أدلة على ذلك أيضًا منها ما أخرجه البخاري^(١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله وقال: لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٣) من حديث البراء رضي الله عنه.

تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرُوا علينا فلا تعينونا، فلما لقيناه هربوا حتى رأيت النساء يشتدْنَ في الجلب، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله ^(١): عهد إلى النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صُرفت وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن الخطاب فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقي الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول، قال: «قولوا الله أعلى وأجل» قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم» قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سيجال وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني.

وأخرجه البخاري ^(٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون فصرخ إبليس لعنة الله عليه: أي عباد الله أخراكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله أبى أبي، قال: قالت فو الله ما احتجزوا حتى قتلوه فقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يغفر الله لكم قال عروة فما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي جبنتم وفررتم أمام عدوكم بسبب معصية بعضكم ومخالفة أمر نبيه ﷺ وحرص بعضكم على الغنائم فتخاذلتم بسبب ذلك وفررتم أمام عدوكم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ منكم من يقول اثبتوا في مكانكم التي أنزلكم فيها رسول ﷺ ومنكم من يقول نشارك المسلمين في جمع الغنائم ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمر نبيكم فقد أمركم بالثبات في أماكنكم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا

(١) هو: ابن جبير.

(٢) البخاري (٤٠٦٥).

تُحِبُّونَ ﴿ أَيُّ عَصِيْتُمْ رَبِّكُمْ مِنْ بَعْدِ مَا نَصَرَكُم فِي صَبَاحِ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَوْمَ أَحَدِ وَأَرَاكُمُ الْغَنَائِمَ الَّتِي تَحِبُّونَهَا ﴾ مِنْكُمْ ﴿ يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ ﴾ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴿ الْغَنَائِمَ وَالْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا ﴾ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿ يَرْغَبُ فِي الشَّهَادَةِ وَثَوَابِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿ ثُمَّ رَدَّكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ الْمَشْرِكِينَ ﴾ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿ لِيَخْتَبِرَكُمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ لِأَهْلِ الْعِلْمِ قَوْلَانِ فِي بَيَانِ هَذَا الْعَفْوِ.

أحدهما: عفا عنكم أي: غفر ذنوبكم التي ارتكبتموها بمخالفتكم أمر نبيكم

ﷺ.

الثاني: عفا عنكم تجاوز عنكم ولم يستأصلكم بل أبقى أكثركم والله أعلم. وقوله: ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بتفضله عليهم بالعفو وقبول التوبة والحفاظ على أكثرهم وبما منَّ به عليهم من حفظ نبيهم ﷺ.

هذا وفي الآية السابقة بيان لأمر عظيم ألا وهو أن المعاصي سبب لزوال النعم والشاهد لذلك من قصة أحد أن الله عز وجل نصر المؤمنين أول النهار لما كانوا مستمسكين بأمر رسول الله ﷺ وحافظ الرماة فيهم على مواقعهم، كما أمرهم النبي ﷺ، فلاحت لهم علامات النصر وبشائره، ثم لما خالفوا أمر رسول الله ﷺ وتركوا مواقعهم صارت تلك المخالفة سبباً لانتهزام المسلمين وقتل جمع عظيم من فضلائهم وكبرائهم وشج رأس نبيهم ﷺ. وزوال الغنيمة وتحولها منهم إلى عدوهم. والله تعالى أعلم.

وفي الآية الكريمة أيضاً بيان لأمر آخر، ألا وهو عدم اليأس من رحمة الله، فقد تزل قدم شخص مؤمن وتقي ويقع في كبيرة ككبيرة الفرار من الزحف، ولكنه يتوب وتقبل توبته بإذن الله، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾. والله أعلم.



مزيد من التذكير بما كان يوم أحد

قال الله عز وجل: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

هذا بيان لحال المؤمنين يوم أحد، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ﴾ له تعلق بما قبله، أي ولقد عفا عنكم عند هروبكم وعدم التفاتكم إلى أحد، وعدم التفاتكم إلى نداء من يناديكم. ومعنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ أي تمعنون في الفرار والهرب

﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ لا تلتفتون إلى أحد.
وقوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَانِكُمْ﴾ أي والرسول يناديكم في آخركم ومن ورائكم.

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: جعل النبي ﷺ على الرجال يوم أحد عبد الله بن جبير وأقبلوا منهزمين فذاك «إذ يدعوهم الرسول في أخراهم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَبِكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي فجازاكم غمًا بعد غم، أي فجاءكم من عند الله غمٌ بعد غمٌ لكيلا لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، وفيه معنى لطيف قد يغفل عنه البعض ألا وهو أن الشخص قد يتلى بمصيبة فيحزن فيبتلى بمصيبة أعظم فيحزن حزناً شديداً، فإذا كشف الله عز وجل المصيبة العظمى انكشفت معها المصيبة الأولى، فيكون كشف المصيبة الأعظم فضل من الله عز وجل إذ أنسى الشخص المصيبة الأولى، وهذا الذي حدث في أحد، فابتلى المسلمون بمصيبة تمثلت في فوات الغنيمة منهم وفي قتل عددٍ من خيارهم وفي شج رأس نبيهم ﷺ، فكان هذا غمٌ اغتم له المسلمون وحزنوا بسببه، ثم بعد ذلك دبت في الناس مقولةٌ ألا وهي: (إن محمداً قد قتل) فاغتم المسلمون لذلك غمًا شديداً جداً أنساهم الغم الأول، ثم لما كشف الله الغم الثاني وتبين للناس أن النبي ﷺ حيٌّ لم يقتل ذهب الغمان معاً الغم الأول والغم الثاني، فذهب الحزن وذهب معه الندم على فوات الغنيمة، والحمد لله رب العالمين.

ومثال آخر يوضح هذا: نضربه ونسوقه حتى يزداد معنى الآية وضوحاً، قد يكون رجلٌ في عمله مثلاً فيفاجئ بقائل يقول له: إن بيتك قد احترق فيغتم لذلك ويحزن، ثم ما يلبث فترة حتى يأتيه قائل آخر فيقول له: إن أولادك وزوجتك وأموالك قد احترقوا جميعاً في البيت، فيحزن لذلك حزناً شديداً ما بعده حزن، ثم

(١) البخاري (٤٠٦٧).

ما يلبث أن يأتيه آتٍ فيقول له: الحمد لله لم يُصب أي ولدٍ من أولادك بسوء ولم تصب زوجتك بمكروه ولم تصب الأموال بشيءٍ فحينئذ يذهب الغمان جميعاً ويحمد الرجل ربه عز وجل.

هذا وقد قال بعض العلماء أقوالاً آخر مرجوحة في تفسير هذه الآية الكريمة، فمنهم من قال: إن قوله تعالى: ﴿فَأَثْبَكُمْ غَمًّا بِمُتَوَسِّعٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، معناه: أثابكم غمًّا بسبب الغم الذي سببتموه لنييكم بمخالفتكم أمره^(١)، ولكن هذا المعنى لا يستقيم مع قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٥٣] والصواب من القول هو ما قدمناه، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من الغنيمة ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والجراح ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه عملكم ولا ما أصابكم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ الْأَعْمِ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ أي وأنزل الله عز وجل على طائفة وهم أهل الإيمان نُعَاسًا يؤمنهم به ويُذهب به عنهم الحزن فالطائفة التي غشيها النعاس يوم أحد هي الطائفة المؤمنة أهل اليقين والإيمان والتوكل الصادق الذين خرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ طلباً للأجر من الله عز وجل وطلباً لإحدى الحسنين: النصر أو الشهادة في سبيل الله عز وجل، وكان منهم أبو طلحة رضي الله عنه فقد قال رضي الله عنه: غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط ويأخذه^(٢). وكان منهم الزبير رضي الله عنه.

والنعاس قد تكون له فوائد في بعض المواطن، فالشخص قد يكون مهموماً هموماً شديدة تراكمت به من كل اتجاه وصوب وحدث فجأة يصيبه الله بشيء من

(١) وذلك لأن النبي ﷺ أمر الرماة أن لا يتحركوا من أماكنهم فخالفوا أمره ونزلوا للمشاركة في الغنيمة.

(٢) البخاري (٤٥٦٢).

النعاس ولو قليل فيفوق منه وقد ذهبت كل همومه وأحزانه وكأنه لم يكن به شيء. وهكذا كان المسلمون يوم بدرٍ وأحد ففي يوم بدرٍ راعهم كثرة عدد عدوهم وعدده فأنزل الله عليهم النعاس، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]

ويوم أحد كذلك أصيبوا بشيء من هذا القلق والخوف فأنزل الله عز وجل عليهم بعد الغم أمانة نعاساً أي: نعاساً جعله الله تبارك وتعالى أماناً وسكينة. أما فوائد النعاس في مواطن كأحد فقد ذكر الرازي^(١)، رحمه الله بعضها فقال: واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد:

أحدها: أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة ظاهرة للنبي ﷺ، ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيماناً على إيمانهم، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم في محاربة العدو ووثوقهم بأن الله تعالى منجز وعده.

وثانيها: أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال، والنوم يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة.

وثالثها: أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقي منهم لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم فيشتد الخوف والجبن في قلوبهم.

ورابعها: أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وهي الطائفة المنافقة التي لم

(١) لا يخفى علينا بفضل الله - ما في «تفسير الرازي» من أخطاء وزلات وهفوات بل وبلايا وضلالات، لكن نأخذ من تفسيره ما نرى أنه أجاد فيه، وبالله التوفيق.

يغشها النعاس، وهم الذين خرجوا وهم في شك من أمرهم طمعاً في الغنيمة ورغبةً في الدنيا، فلما لم ينالوها جعلوا يتأسفون على الخروج ويندمون عليه، والله أعلم. فهو لاء المنافقون ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي ظنهم بالله كظن أهل الجاهلية بالله عز وجل أما ظن أهل الجاهلية في الله عز وجل فله صور منها. أنهم ظنوا أن الله عز وجل لن ينصر دينه، ولن يعلي كلمته، وأن الإسلام سيتتهى ويزول ويباد أهله.

وظنوا أيضاً أن لن ينقلب ^(١) الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً. وكذبوا أيضاً بقدر الله عز وجل فقالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾

[آل عمران: ١٥٤]

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: (في كتابه «زاد المعاد» ٣/ ٢٢٩) صوراً من الظن السيئ بالله عز وجل منها: أنه قال:

فمن ظن بأن الله لا ينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حربه ويعليهم ويظهرهم بأعدائه ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُبدل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذلّ حربه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسمائه، ولا عرف صفاته وكماله.

وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته.

وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمه بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة

(١) ينقلب أي: يرجع.

و غاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب، وإن كانت مكروهة له فما قدرها سدى ولا أنشأها ولا خلقها باطلا ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال أيضًا: فمن قنط من رحمته وآيس من روحه فقد ظن به ظن السوء. ومن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه^(١) فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي ولا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هملاً كالأنعام فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للشواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته ويبين لخلقهم حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء.

(١) قال تعالى: ﴿أَفَجَعَلُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا حُرْمَةً﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمُ الْإِنْسَانِ عَمَلًا مِّثْلًا﴾ [البقرة: ٢٦]. وقال سبحانه: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَنَاطٌ أَنْاءَ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

[آل عمران: ١٦٢]

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَبْوَةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم يضلون بها عبادته، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في الجحيم أسفل السافلين ويُنعم على من استنفذ عمره في عداوته وعداوه رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر فقد ظن به ظن السوء.

ثم قال: وبالجمله فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ووصفته به رسله فقد ظن به ظن السوء.

إلى آخر ما ذكره رحمه الله تعالى وعفا عنه.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يقول بعضهم لبعض هل لنا أن نرجع، هل بإمكاننا شيء الآن!!
وأيضاً يستبعدون أن ينتصروا!!

وكذلك يندمون على كونهم خرجوا!!

﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين النادمين على خروجهم معك، والذين يتمنون أن يرجعوا إلى ديارهم فراراً من الغزو، والذين يستبعدون نصر الله، عز وجل لهم، قل لهؤلاء ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يقدر الله ما يشاء، ويفعل الله ما يريد، وينصر من يشاء ويختبر من يشاء.

أما قوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يكتُمون في صدورهم ما لا يظهرونه لك، والذي أخفوه للعلماء فيه أقوال أحدها: هو قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الثاني: الذي أخفوه هو الإسرار على الكفر، وشكهم في أمر النبي ﷺ ورسالته.

الثالث: تكذيبهم بقدر الله عز وجل وقولهم: لو كنا في بيوتنا ما قُتلنا.

الرابع: الندم على حضور المعركة.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ قال بعض أهل العلم في معناه إن المراد بالأمر هنا المشورة؛ فالمعنى على ذلك: أنهم قالوا: هل لنا من الأمر من شيء، فلو كان الأمر بأيدينا ما خرجنا للقتال حيث نقتل ها هنا، ولو استشرنا لم نشر بالخروج إلى حيث نقتل، فأجابهم الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي: يقدر ما يشاء ويفعل ما يريد، ولو كنتم في بيوتكم لخرج الذين كتب عليهم القتال إلى حيث يقتلون.

ومن العلماء من قال: إن المراد بالأمر أمر النصر والظفر.

ومنهم من قال: إنه القدر، والله تعالى أعلم.

ومن القائلين بهذا أعني القائلين: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ معتب بن قشير

فقد قال الزبير رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذفنه في صدره قال: فو الله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، لقول معتب^(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾،

قل يا رسول الله لهؤلاء الذين ظنوا أن بقاءهم في ديارهم، لو بقوا فيها وسيمنعهم من القتل قل لهؤلاء لا تظنوا ذلك فالمقدر الذي قدره الله عليكم لا بد وأن تقعوا فيه ولا بد أن تلقوه فلو كنتم في بيوتكم وقدر الله عليكم الوفاة في أي مكان لخرجتم من بيوتكم إلى ذلك المكان حتى يتوفاكم الله فيه ولو كتب عليكم القتال في أي مكان

(١) ذكره محمد بن إسحاق قال حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير

قال: قال الزبير... فذكره.

وأخرجه الطبري في «التفسير» (٨٠٩٤) وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٦٩٧)، وإسناده صحيح.

لخرجتم إلى ذلك المكان حتى تقتلوا فيه شئتم ذلك أم أبيتموه. والله أعلم.
 أما قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي وليختبر الله عز وجل ما في صدوركم، وليخرجه منها حتى يراه من لم يكن رآه من أهل الإيمان، وحتى يعلم عنكم أهل الإيمان ما لم يكونوا يعلمون ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وليطهر ما في قلوبكم يا أهل الإيمان وينقى قلوبكم يا أهل الإيمان، أي أن الحديث انتقل لأهل الإيمان، هذا على قول لبعض المفسرين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لا يخفى عليه ما في صدوركم، فهو عليم بالأمور التي أضمرتوها في صدوركم، وإنما أظهر الله ما في صدوركم ليعاقب عليهم من يعاقب ويثاب عليه من يثاب. والله أعلم.

وهذه بعض الفوائد والحكم والغايات المستفادة من غزوة أحد.
منها: أن المؤمن أعلى وأعز بإيمانه، فالعزة حق العزة إنما هي بالإيمان بالله عز وجل.

ومنها: أن الأيام دول بين الناس فلا يخرج الشخص لمصيبة أملت به، أو الخير قد فاته إنما ينظر في سبب المصيبة، إن كانت بسبب ذنب استغفر الله منه، وإن كانت للابتلاء صبر لها واحتسب.

ومنها: أن الله قد يسلط أعداءه على بعض أوليائه لقتلهم كي يتخذهم شهداء، وكي ينتقم من الكافرين.

ومنها: أن أهل الكفر إذا ازداد ظلمهم كان ذلك مؤذناً بزوالهم، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكُفْرَ﴾ أي يهلكهم.

ومنها: أن سنة الابتلاء ماضية في الخلق، ولا بد من ابتلاء واختبار.

ومنها: أن الشخص لا يتمنى لقاء العدو، ولكن يجوز تمنى الشهادة في سبيل الله، وقد تقدم.

ومنها: إثبات بشرية رسول الله ﷺ وأن المسلمين إنما يعبدون الله عز وجل لا يشركون به شيئاً.

- ومنها:** أن المحسن إحسانه لنفسه، وأن العاصي والكافر لن يضر الله شيئاً.
- ومنها:** أن الله يجازي الشاكرين الحامدين.
- ومنها:** أن الآجال مقدرةٌ ومكتوبة.
- ومنها:** ثبات أهل الإيمان في القتال واحتسابهم الأجر ودعاؤهم وسؤالهم ربهم النصر عند لقاء عدوهم.
- ومنها:** أن النصر من عند الله العزيز الحكيم.
- ومنها:** التحذير من طاعة أهل الكفر والنفاق.
- ومنها:** أن الله يحفظ أوليائه فهو خير الناصرين.
- ومنها:** أن الله عزَّ وجل ينصر المسلمين بأمور منها قذف الرعب في قلوب الكافرين.
- ومنها:** أن الله عزَّ وجل لا يخلف وعده فقد نصر المؤمنين كما وعدهم صباح يوم أُحُدٍ ثم لما عصى بعضهم نالهم من الله ما نالهم.
- ومنها:** شؤم المعصية وأنها سبب الهزيمة.
- ومنها:** أن الله عز وجل قد يصيب المؤمن بالغم بعد الغم، يصيبه بغم أعظم من الغم الأول ثم يكشف الغم الأعظم فتتكشف الغموم جميعها.
- ومنها:** أن المقدر كائنٌ لا بد.
- ومنها:** أن النعاس قد يكون رحمةً لأهل الإيمان وذلك عند ورود الغموم والأحزان والهموم.
- ومنها:** بيان سوء ظن أهل النفاق بربهم عزَّ وجل.
- ومنها:** أن المصائب والابتلاءات من مقاصدها إظهار ما في النفوس.
- ومنها:** أن المؤمن قد تصدر منه كبيرةٌ ولكنه يتوب ولا ييأس من رحمه الله.
- إلى غير ذلك من الفوائد، وقد تقدم كثيرٌ منها في ثنایا شرح الآيات. والله أعلم.



استزلال الشيطان العباد ببعض معاصيهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥).

حاصل معنى الآية الكريمة أن فيها بيان سبب فرار من فرّ يوم أحد، ومن ثمّ تحذير من الذنوب والمعاصي والمعنى إن الذين فروا وولوا ظهورهم لعدوهم يوم أحد يوم أن التقى الجمعان جمع المؤمنين مع جمع الكفار، ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي إنما أوقعهم الشيطان في الخطأ والزلل والفرار بسبب ذنوب اكتسبوها من قبل فقال لهم الشيطان كيف تقاتلوا عدوكم فقتلوا وقد فعلتم كذا وكذا يوم كذا وكذا، كيف تقاتلون عدوكم وقد عصيتم أمر نبيكم ﷺ، كيف ذلك، إنكم إذا قتلتم قتلتم على معصية فانصرفوا حتى تتوبوا، وبإيضاح أكثر أن الرماة لما عصوا أمر نبيهم ﷺ وتركوا أماكنهم التي أنزلهم إياها رسول الله ﷺ ونزلوا للمشاركة في الغنائم، واستدار عليهم عدوهم فلما واجهوه جاءهم الشيطان في هذا التوقيت فذكرهم بالذنوب السالفة، والتي فيها مخالفة أمر نبيهم فقال لهم كيف تقاتلون وأنتم عصاة، انصرفوا حتى تتوبوا ثم تقاتلوا بعد ذلك، فحملهم على الفرار والانصراف فأوقعهم بذلك في الزلل ألا وهو الفرار من العدو.

هذا، وقد تفضل الله عز وجل على هؤلاء الذين فروا بالعفو عنهم، وذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

هذا، وقد كان من هؤلاء الذين فروا يوم أحد وعفا الله عنهم، عثمان رضي الله عنه.

ولكن يكفيه فخراً أن الله عزَّ وجل عفا عنه، قال ابن عمر رضي الله عنهما لرجل من الخوارج أراد أن ينال من عثمان رضي الله عنه قال: «أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له»^(١).

أما قوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي لا يُعاجل بالعقوبة، بل يمهل عباده ويعفو كثيراً ويصفح كثيراً.



(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٨).

النهي عن التشبه بالكفار في اعتراضهم على القدر والحث على الإيمان بالقدر

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١٥٦ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝١٥٨﴾.

في الآية الكريمة نهى عن التشبه بالكفار في جهلهم بقدر الله في جهلهم بأن الأمور قد قدرها الله، والآجال قد كتبها الله، ومن ثم فإن ذلك أورثهم حسرة في قلوبهم، فيا أهل الإيمان لا تكونوا كالذين كفروا من أهل الشرك ومن أهل النفاق ومن غيرهم، لا تكونوا كهؤلاء الذين قالوا عن إخوانهم الذين خرجوا للقتال فقتلوا أو خرجوا مسافرين فماتوا، وأصابهم حادث فماتوا فقال حينئذ أهل الكفر وأهل النفاق، لو كانوا عندنا ولم يسافروا ولم يجاهدوا ما ماتوا وما قتلوا. ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ الندم والتندم والتأسف ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي في قلوب أهل الشرك والنفاق.

فاعلموا يا أهل الإيمان أن الله يحيى ويميت، فلن تموت نفس إلا بإذن الله، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

هذا، وقد ذكر بعض العلماء أقوالاً في المراد ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ منها إخوانهم الذين أسلموا، ومنها: إخوانهم في النسب الذين خرجوا للجهاد، ومنها: إخوانهم في الكفر، والله أعلم.

هذا، ولمزيد من الإيضاح أقول، وبالله التوفيق: قد يكون هناك رجل يدخل كل يوم على أهله وأولاده وبناته بصنوف الطعام والشراب والهدايا، فيخرج يوماً وهم في انتظاره فيفاجئون بأنه قد مات في حادث، فماذا سيكون حينئذ؟! وما الذي سيصدر منهم!!؟

سيقول الكافر والمنافق والمعترض على القدر من أهله وغيرهم ليته ما خرج! ليته ما سافر، ليتنا أخرناه ومنعناه من السفر، ليته!! ليته!! ليته!! فيندمون؟ ويتحسرون، ويتأسفون.

وهذا التندم والتحسر والتأسف عقاب يُقذف في قلوبهم لقلة إيمانهم ولكفرهم وشركهم ونفاقهم.

أما المؤمن فماذا عساه أن يقول ويفعل إنه يقول ما عُلِّم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يقول: «اللهم أجرنى في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها».

فحينئذ يرزقه الله إيماناً ويزيده رضاءاً وتوفيقاً وهداية ويرحمه ويطمئنه وينزل عليه السكينة. والله أعلم.

ثم يذكر الله عز وجل بأن القتل في سبيل الله أو الموت على طاعة الله وفي مرضاة الله خير من الدنيا الفانية وحطامها الزائل فيقول تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لإعلاء كلمة الله ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ على طاعة الله وأنتم تسعون لإعلاء كلمة الله.

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ لذنوبكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ قيل المراد الجنة فكثيراً ما تطلق الرحمة على الجنة كما قال تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ على قول لبعض المفسرين أنها الجنة، وأن الفضل النظر إلى وجهه الكريم، وقوله: ﴿حَيْرٌ مِّمَّا

يَجْمَعُونَ ﴿١﴾ أَيَّ خَيْرٍ مِنْ يَجْمَعُ أَهْلَ الدُّنْيَا لِدُنْيَاهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقد دلت أدلة كثيرة على ما ذكر دلت الأدلة على أن الإيمان بالله والجهاد في
سبيله والثبات على الإيمان حتى الموت أو القتل خير من متاع الدنيا الفاني.

ومن هذه الأدلة ما يلي:

قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَحْنُ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].
وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

[يونس: ٥٨]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ
الْجَنَّةُ يَدْخُلُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] إلى غير ذلك من
الآيات الكريمة.

ثم بين الله عز وجل أن الجميع كفارًا كانوا أو مؤمنين محشورون إلى ربهم يوم
القيامة، قال تعالى ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أثناء الجهاد ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ على
فرشكم أو في أسفاركم ﴿لَا إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون.



بيان شيء من فضل الله عز وجل على نبيه ﷺ

والحث على الرفق واللين والخلق الكريم

ثم يبين الله عز وجل فضله على نبيه محمد ﷺ وفيه إشارة أيضًا إلى ما ينبغي أن يتحلى به المؤمن، وخاصة الداعي إلى الله عز وجل من اللين وخفض الجناح والعفو والصفح.

فيقول تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهْمٌ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾.

فقوله: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي فبرحمة من الله، والباء زائدة كما في قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي فبنقضهم ميثاقهم. وكقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا﴾ [نوح: ٢٥] فالمعنى: فمن خطيئاتهم، وكقوله تعالى: ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] فالمعنى: جند هنالك، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] فالمعنى: عن قليل فهي زائدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦] فالمعنى: فلما جاء البشير.

ومن أهل العلم من يرى أنها استفهام للتعجب، والمعنى فبأي رحمة من الله لنت لهم مع أن المعصية التي فعلوها (بفرارهم عنك يوم أحد) كانت كبيرة وأصبت من ورائها بما أصبت به ومع ذلك لين الله عز وجل قلبك لهم. والله أعلم. فالمعنى، والله أعلم فبرحمة الله عز وجل بك وبأصحابك ورأفته بك وبهم

جعلك الله ليناً سهلاً لأصحابك فأصبحت تتحمل أذاهم وتعفو عنهم إذا قصرُوا في حقك وتتغاضى عن ذي الجرم منهم إذا أجرم في حقك، كل هذا من فضل الله عليك وعليهم إذ سهل لهم أخلاقك وحسنها لك ولهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾ أي خشن الكلام سيئ الخلق جافياً ﴿غَلِظَ الْقَلْبُ﴾ قاسي القلب غير رؤوف ولا رحيم، تعامل الناس بغلظة وجفاء، لو كنت كذلك ﴿لَا نَفْضُوا﴾ لانصرفوا وتفرقوا عنك ﴿فَاعَفُ عَنْهُمْ﴾ إن أسأوا في حقك فتجاوز عنهم ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ اطلب من الله أن يغفر لهم.

الحث على الشورى

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ خذ رأيهم واستمع لمشورتهم في الأمور العامة الهامة التي تعنيهم وتهمهم ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ على المضي في أمرٍ فامض فيه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فاعتمد على الله واسأله التوفيق ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ المعتمدين عليه في كل شؤونهم المستعنيين به في كل أمورهم.

وفي الآية الكريمة إرشاد إلى أمور منها:

أن الداعي إلى الله عليه أن يتحلّى بمكارم الأخلاق التي منها اللين وخفض الجناح، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]

وكما قال الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وكما قال الله وعز وجل عن رسوله ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا ﴿طه: ٤٣، ٤٤﴾، وقال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]

وكما قال النبي ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا

شأنه»^(١) إلى غير ذلك من الأدلة في هذا الباب.

ولكن هذا اللين لا يطرد في كل الأحوال فإذا احتاج المقام إلى شد اشتد الشخص، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]، وكما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

[الفتح: ٢٩]

فإذا لم يفض اللين والرفق إلى إهمال أو إضاعة حد من حدود الله فالرفق محمود.

وإذا طمع من وراء الشدة - في بعض الأحيان - في نفع اشتد الشخص على أن تكون نيته خالصة لله وعمله خالصاً لله عز وجل.

وإذا كان المقام مقام تعامل مع أهل النفاق ورجا الشدة في التعامل معهم فإن الله سبحانه قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩]. ومن أراد الله عز وجل به خيراً ففقهه في الدين وبين له المواطن التي ينبغي أن يلين فيها فيلين والمواطن التي ينبغي أن يشتد فيها فيشتد^(٢)، والله تعالى أعلم.

ومنها: بيان بعض صفات رسول الله ﷺ وما كان عليه من الرحمة بالعباد واللين لهم وقد ورد في «صحيح البخاري»^(٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله عز

(١) صحيح وقد تقدم وقد أخرجه مسلم.

(٢) وانظر كتابنا «مفاتيح الفقه في الدين».

(٣) البخاري (٤٨٣٨).

وجل حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عمياء، وآذاناً صمًا، وقلوبًا غلفًا.

ومنها: الحث على مشاورة الأصحاب في الأمور التي تعنيهم أما لماذا أمر النبي ﷺ بمشاورة أصحابه مع أن الله عز وجل قادر على أن يريه وجوه الحق والصواب في الأمور التي يستشير فيها أصحابه؟

ج: من أهل العلم من قال: إنه عليه السلام أمر بمشاورة أصحابه تطييباً لقلوبهم وجبراً لخاطرهم وتأليفاً لهم.

ومنهم من قال: إن النبي ﷺ أمر بذلك ليسن لأمته سنة المشاورة في الأمور. ويظهر لي وجه ثالث ألا وهو أنه عليه السلام أمر بالاستشارة ليصل بإذن الله ثم باستشارتهم - إلى أوفق الآراء وأسد الآراء كما ورد عن رسول الله ﷺ في حروبه. وثم وجه آخر ألا وهو أنهم إذا استشيروا في أمر فأشاروا برأي فيه ثم أصابهم من ورائه شيء كانوا أرضى بقدر الله عز وجل عليهم منهم إذا لم يستشاروا. ووجه آخر أنهم لما زلت أقدامهم وفروا من حول رسول الله ﷺ ربما يتسرب إليهم اليأس والقنوط من رحمة الله عز وجل لعظم الذنب الذي ارتكبه من الفرار، فالأمر بمشاورتهم بعد العفو عنهم والاستغفار لهم يرد إليهم - بإذن الله - ما يتقووا به على الشيطان وما يتقربون به إلى الرحمن عز وجل ويفتح لهم أبواب الخير وأعمال البر والطاعات.

وهذا قد يستفيد منه الدعاة إلى الله عز وجل، فإذا آذاهم شخص واعترف بذنبه معهم عفو عنه وقربوه أكثر وأكرموا بدرجة أوسع ولم يغلقوا أبواب الخير في وجهه، وبالله عز وجل التوفيق.

وقد استشار النبي ﷺ أصحابه في عدة مواطن منها:

استشارته لهم في غزوة بدر^(١).

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان،

واستشارته لهم في أسارى بدر^(١).

واستشارته لهم في قصة الإفك فاستشار^(٢) علياً وأسامة وبريرة، واستشار عموم أصحابه في شأن المنافقين الذين طعنوا في عرضه عليه السلام، وقال لهم: «أشيروا علي في قوم أبنوا أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيراً»^(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة: «لا تعجلي حتى تستشيرني أبويك»^(٤). ومن الاستفادة من الآية الكريمة أن المؤمن عليه وبعد أن يستخير الله عز وجل ثم يستشير أهل العلم والخبرة، والديانة، عليه أن يعزم أمره متوكلاً على الله ولا يعيش أكثر وقته متردداً محتاراً مُشتتاً بين هؤلاء وهؤلاء، وبين هذا الرأي وذاك الرأي، والله أعلم.

وهذه بعض معاني التوكل على الله، منها:

أن التوكل على الله معناه: الاعتماد على الله مع إظهار العجز.

ومنها: أن لا تعص الله عز وجل من أجل رزقك.

ومنها: أن لا تطلب لنفسك ناصرًا غير الله، ولا لرزقك خازنًا غيره ولا لعملك شاهدًا غيره.

قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر بن الخطاب فأعرض عنه، ثم قام سعد بن عباد فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا... فذكر الحديث.

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: فلما أسروا الأسرى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟»..... الحديث.

(٢) كلاهما صحيح، وهما في حديث الإفك وقد تقدم.

(٣) كلاهما صحيح، وهما في حديث الإفك.

(٤) أخرجه مسلم (١٤٧٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: دخل أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ.. الحديث.

وفيه (قصة التخيير) قال النبي ﷺ: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك»... الحديث.

بعض فوائد التوكل على الله

وهذه أيضًا بعض فوائد التوكل على الله:

أن الله عز وجل يكفي المتوكل ويحفظه بحفظه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ومنها: أنه سبب لدخول الجنة بغير حساب كما قال رسول الله ﷺ في السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»^(١).

ومنها: أنه سبب للرزق كما قاله عليه الصلاة والسلام: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^(٢).

ومنها: أنه من تمام الإيمان لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

[المائدة: ٢٣]



(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (١/ ٣٠-٥٢) وابن ماجه

(٤١٦٤)، والحاكم (٤/ ٣١٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وسكت عليه

الذهبي كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا وهو صحيح.

البيان الواضح عن أن النصر من عند الله عز وجل

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١٠).

يبين الله عز وجل أن النصر من عند الله عز وجل وحده وأن المتنصر من نصره الله، وأن من نصره الله عز وجل فلن يغلبه أحدٌ مهما كان، وأن من يخذله الله عز وجل ويترك معونته ولا يعينه فلن ينتصر أبداً.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ يترك معونتكُمْ ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من هذا الذي ينصركم ويعينكم، وقد حرمكم الله المعونة والنصر ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فليعتمد المؤمنون على ربهم عز وجل، وليسألوه النصر فالنصر من عنده وحده دون من سواه، والتمكين من عنده وحده دون من سواه وقد دلت على ذلك أدلة كثيرة منها:

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤، ٥].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ فَوِشَةٌ لَا فِي غُرُورٍ﴾

[الملك: ٢٠]

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ

عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[الأنفال: ١٠].﴾

وكذلك التمكين من الله عز وجل:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: ٤١].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾

[القصص: ٥٧]

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا﴾.

[الكهف: ٨٤]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ...﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً

وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥، ٦] إلى غير ذلك من

الآيات.



النهى عن الغلول وبراءة الأنبياء عليهم السلام منه وبعدهم عنه

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ فيه تبرئة لأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام مما قد يظنه بهم بعض الناس والمعنى والله أعلم: ما كان لنبي أن يأخذ لنفسه شيئاً من الغنيمة قبل القسمة، فالغلول ليس من صفات الأنبياء، ولا يكون نبياً من غل. فمعنى ﴿يَغُلَّ﴾: يخون، أي يخون أصحابه فيأخذ شيئاً من الغنيمة خفية قبل قسمتها، فالغلول الأخذ من الغنيمة قبل القسمة، وإن كانت الغنائم لم تحل لأحد قبل نبينا محمد ﷺ.

ومن العلماء من قال يغل يخفى شيئاً من الوحي ويكتمه ولا يبلغه. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لأهل العلم فيه قولان: **الأول:** أن من غل يوافي يوم القيامة بوزر ما صنع ويلاقي جزاء ما صنع، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]. **الثاني:** أن من غل (أي: سرق شيئاً من الغنيمة) يأتي حاملاً هذا الذي سرقه على ظهره يوم القيامة، والله تعالى أعلم.

هذا، وقد وردت عدة أحاديث في ذم الغلول منها حديث رسول الله ﷺ: «لا

يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره قال: «لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حممة يقول: يا رسول الله أغني فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، وعلى رقبته بعر له رغاء يقول: يا رسول الله أغني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت ^(١) فيقول: يا رسول الله أغني فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، أو على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله أغني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك» ^(٢).

وأخرج البخاري أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو، قال: كان على ثقل النبي ﷺ رجل يقال له كركرة، فمات فقال رسول الله ﷺ: «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها ^(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم خير أقبل نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد وفلان شهيد حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد؟ فقال رسول الله ﷺ: «كلا إني رأيته في النار في بردة غلها - أو عباءة» ثم قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون» قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ^(٤).

وأخرج الطبري رحمه الله من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث سعد ابن عبادة مصدقاً، فقال: «إياك يا سعد أن تجيء يوم القيامة ببيعير تحمله له رغاء» قال: لا آخذه لا أجيء به فأعفاه ^(٥).

(١) الصامت: الذهب والفضة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٧٤).

(٤) أخرجه مسلم، وأحمد (٣٠ / ١).

(٥) أخرجه الطبري «التفسير» (٨١٦٣)، وفي رواية عنده: أن سعداً قال: قد علمت يا رسول الله أني أسأل فأعطي فأعفني. فأعفاه.

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إلي قال: «فهلا جلس في بيت أبيه - أو بيت أمه - فينظر أيهدي له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر» ثم رفع يده حتى رأينا عفرة إبطيه «اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت ثلاثاً»^(١). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي تأخذ كل نفس جزاء ما عملته من الحسنات أو السيئات، وهم لا يبخسون شيئاً من حقوقهم. قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا أُوتِيَ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، حاصل معناه أفمن اتبع الطريق الذي يرضي الله عز وجل عنه فلم يغل كمن رجع وهو غال فنال سخط الله عز وجل عليه فقوله: ﴿بَاءَ﴾ أي رجع، ﴿وَمَا أُوتِيَ جَهَنَّمَ﴾ أي مأوى الذي رجع وقد سخط الله عليه، مسكنه ومصيره الذي يصير إليه جهنم، وبئس المسكن الذي يسكنه، والمأوى الذي يأوى إليه ومن العلماء من قال: أفمن اتبع رضوان الله وتبع رسول الله ﷺ يوم أحد من المؤمنين كمن خالف أمره ونكص على عقبيه ورجع من المنافقين.

وقيل: إن الآية أعم من ذلك ففحواها لا يستوي الصالح مع الطالح، والله تعالى أعلم.



(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٧)، وأخرجه مسلم (١٨٣٢).

تفاوت الناس في الدرجات يوم القيامة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾، معناه، والله أعلم. هو ذو درجات عند الله، والمراد: أن أهل الإيمان متفاوتون في الدرجات، وأهل الكفر متفاوتون في الدرجات كذلك. أما كون أهل الإيمان متفاوتين في الدرجات. فلقول النبي ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(١). ولقوله عليه السلام: «إن أهل الجنة ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء»^(٢). ولقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥]. ولقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ⑦ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑧ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑨ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّيِّقُونَ ⑩ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪.

[الواقعة: ٧ - ١١]

أما كون أهل النار درجات فعليه أدلة، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفِيقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

(٢) أخرجه أحمد «المسند» (٣/ ٢٦) وفي «الفضائل» (١٦٦).

وقوله تعالى في الذين كفروا بعد نزول المائدة: ﴿وَإِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ .
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ييصر عملهم ويراه ومن ثمَّ فإنه يحاسبهم عليه.



فضل الله على المؤمنين

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

[آل عمران: ١٦٤]

المراد بالمؤمنين هنا عموم المؤمنين، وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي من البشر ومن العلماء من قال إنهم المؤمنون من العرب، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ والمعنى، لقد تفضل الله عز وجل على أهل الإيمان، وأنعم عليهم وأحسن إليهم، ببعثة النبي محمد ﷺ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ يقرأ عليهم آياته، ﴿وَزَكَّيَهُمْ﴾ يطهرهم من الذنوب والشرك، وذلك بما يأمرهم به من معروف وما ينهاهم به عن المنكر.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسنة، فالحكمة هنا المراد بها السنة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ﴾، بعثة النبي ﷺ إليهم ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لفي جهلٍ وغيٍّ وبعد عن طريق الصواب ظاهر واضح فكلمة ﴿مُبِينٍ﴾ قد تأتي بمعنى بائن، أي ظاهر وواضح وقد تأتي بمعنى مظهر وموضح، أي لمن تأوله وراه. كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي مدفوق أو متدفق. والله أعلم.



بيان بعض ما جرى وكان يوم أحد وذكر بعض الحكم والغايات من ذلك

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْعَةِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَقُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝

لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ سبب نزول أخرجه الإمام أحمد وغيره ^(١) بسند حسن من حديث عمر رضي الله عنه وفيه: فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكسرت ربايعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه، وأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ [آل عمران ١٦٥] بأخذكم الفداء.

(١) أحمد (١/٣٠).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنَا هَذَا أَقْلٌ هُوَ مِنَّا عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ﴾ فالمعنى أو لما نزل بكم من البلاء ما نزل يوم أحد، وقد نصركم الله يوم بدر، ﴿قُلْتُمْ﴾ لما نزل بكم البلاء ﴿أَنَّنَا هَذَا﴾ من أي وجه حدث لنا هذا، ونحن مؤمنون ومعنا رسول الله ﷺ يأتيه الوحي من السماء وديننا دين الحق، وعدونا كافر بالله مكذبٌ بلقائه؟! فالمصيبة التي أصيب بها المؤمنون فهي قتل سبعين منهم يوم أحد، وشج رأس نبيهم ﷺ.

أما المثالان اللذان أصابهما المؤمنون، ففيهما قولان:

القول الأول: وهو قول الجمهور أن المراد أنه كما قتل من المسلمين يوم أحد سبعون، فقد قتلوا هم يوم بدر سبعين وأسرُوا سبعين من المشركين.
القول الثاني: أنهم انتصروا يوم بدر، وانتصروا أيضًا يوم أحد في أول المعركة. والقول الأول أقوى، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنَّا عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ﴾ قل يا رسول الله لهؤلاء المتعجبين مما حدث لهم، وهم مؤمنون، إنكم أنتم المتسبيون فيه لأنفسكم بما ارتكبتموه من معاص، وبما فعلتموه من مخالفة أمر نبيكم ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وما كنتم تصابون به إلا وقد قدره الله عز وجل عليكم، وربى قادر على نصركم وعلى فعل أي شيء يريد سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أي وما أصابكم يوم أحد، يوم أن التقى المشركون بالمؤمنين ﴿فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ بقدر الله عز وجل، ولم يكن ليحدث إلا بإذن الله، والإذن هنا هو الإذن الكوني القدري كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَكَارَيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وقد يأتي الإذن بالمعنى الشرعي الديني كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ أي أمر الله أن تعظم ويذكر فيها اسمه بالصلاة فيها والتلاوة والذكر.

وبمزيد من الإيضاح أقول، إن قوله تعالى: ﴿فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أي بقدر الله عز وجل، فهذا قد قدره الله، ولم يأذن الله للكفار أن يقتلوا المؤمنين، أي لم يأمرهم بالكفر ولا بقتل أهل الإيمان ففارق بين الإذن الكوني القدري، وبين الإذن الشرعي الديني.

ونحوه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فهذا القضاء شرعي ديني، بمعنى أمر ربكم ألا تعبدوا أحداً سواه ولكن قد يكون هنا من لا يعبد الله، ولا يمثل أمره.

أما القضاء الكوني القدري فكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ ليس المعنى أمرناهم، بل قدرنا ذلك والله أعلم.



لن يتسلط قوم على قوم إلا بإذن الله

ويؤخذ من الآية الكريمة أنه لن يتسلط قومٌ على قومٍ إلى إذا سلطهم الله، ولن ينكف أذى قوم عن قومٍ إلا إذا كفهم الله عز وجل، والأدلة على ذلك كثيرة منها:
قوله الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ يَوْمَ التَّلَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذَنْ أَلَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[آل عمران: ١٦٦]

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنْتُكُمْ﴾ [النساء: ٩٠].
وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ
أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: ١١].
وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر: ٦].

أما الأحاديث فكثيرة نذكر منها:

قصة سارة عليها السلام لما دخلت على جبار من الجبابرة (وقد قيل له ها هنا رجل معه امرأة من أحسن النساء، فأرسل إلى إبراهيم عليه السلام فجاء به وبها... الحديث) ومد يديه لتناولها فقالت: اللهم كف يد الكافر، فأخذ. فقال لها: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق^(١).. الحديث.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام،

ومنها: الغلام (الذي ورد ذكره في قصة الملك والراهب والساحر وأصحاب الأخدود) أخذوه ليلقوه من فوق شاهق فرجف الجبل بهم وأنجاه الله، وأخذوه ليلقوه في اليم فرجف بهم البحر فأغرقهم الله وأنجاه ^(١).

ومنها: قول النبي ﷺ لعمر في شأن ابن صياد: «إن يكن الذي ترى -أي: الدجال - فلن تستطيع قتله» ^(٢).

ومنها: محاولة الدجال قتل الرجل الذي هو من خيار الناس (أو خير الناس) فلا يستطيع قتله ولا يُسلط عليه ^(٣).

فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أناه، فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأتي بها فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت وأطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر.

قال: «فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف، فقال لها: مهيم، قالت: خيرًا كف الله يد الكافر وأخدم خادمًا».

قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

والحديث أخرجه البخاري مختصرًا مرفوعًا (٥٠٨٤) ومطوّلًا موقوفًا (٣٣٥٨).

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٢٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فمررنا بصبيان فيهم ابن صياد، ففر الصبيان وجلس ابن صياد، فكأن رسول الله ﷺ كره ذلك، فقال له النبي ﷺ: «تربت يداك أتشهد أني رسول الله؟» فقال: «لا بل تشهد أني رسول الله» فقال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذرني يا رسول الله حتى أقتله فقال رسول الله ﷺ: «إن يكن الذي ترى فلن تستطيع قتله».

(٣) أخرجه البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري، قال: حدثنا رسول الله ﷺ يومًا حديثًا طويلاً عن الدجال، فكان فيما يحدثنا به أنه قال: «يأتي الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - أو من خيار الناس - فيقول أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ، فيقول الدجال: أرايتم إن

ومنها: حديث جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، قال: عنده أعرابي فقال: «إن هذا اخترط على سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله ثلاثاً» ولم يعاقبه وجلس ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل معناه وليرى إيمان من آمن، وقيل المراد بالعلم هنا الذي ينبي عليه الثواب والعقاب، وإلا فالله عز وجل يعلم الأمور قبل وقوعها، وعند وقوعها وبعد وقوعها.

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أي وليرى الذين نافقوا، ويظهر أمرهم، وليعلم العلم الذي ينبنى عليه الثواب والعقاب، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنِطْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ أي وليعلم الذين قيل

«قتلت هذا ثم أحبيته هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه».

وفي رواية لمسلم من حديث أبي سعيد أيضاً مرفوعاً: «يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل من المؤمنين، فتلقاه المسالحي مسالحي فيقولون له: أين تعمد، فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج، فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا، فيقول: ما برنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه، قال: فينطلقون به إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال: فيأمر الدجال به فيشج، فيقول: خذوه وشجوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول أو ما تؤمن بي؟ قال: فيقول أنت المسيح الكذاب، قال: فيؤمر به فيؤشر بالمشار من مفرقه حتى يفرق بين رجله، قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذ الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيحسب الناس أنها قذفه في النار وإنما ألقي به في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين».

^(١) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (ص ١٧٨٦ حديث ٨٤٣).

لهم تعالوا قاتلوا لإعلاء كلمة الله ﴿أَوْ أَدْفَعُوا﴾ فيها أقوال: كثروا سواد المسلمين.

رابطوا في الثغور دفاعاً عن ديار المسلمين.

قاتلوا دفاعاً عن أعراضكم وحریمكم وأموالكم إن لم تروا القتال في سبيل الله. والله أعلم.

﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبَعَنَّاكُمْ﴾ معناه: لو نعلم أنه يجري اليوم قتال ما أسلمناكم لعدوكم ولا تركناكم له.

وقيل: المعنى: لو نحسن القتال لقاتلنا معكم.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَا فَوَهِيمٌ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أما الذي يقولونه بأفواههم فهو نطقهم بالإيمان، وبيان أنهم أنصار الله، أما الذي تضره قلوبهم فهو الكفر وعداوة الله ورسله والمؤمنين. والله أعلم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي يكتُمونه في صدورهم وقلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ فهذا في المتخلفين عن الجهاد ولغير عذر قالوا لأهل النفاق من إخوانهم وأمثالهم عن الذين قتلوا في سبيل الله لو أطاعونا فيما دعوناهم إليه من التخلف عن الجهاد ما قتلوا ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء القاعدين عن الجهاد اللائمين إخوانهم الذين قتلوا في سبيل الله، قل لهؤلاء القاعدين ﴿فَادْرَأُوا﴾ أي فادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فالمعنى والله أعلم: إن كنتم تظنون أن القعود يسلم به الشخص وينجو به من الموت أو القتل، فادفعوا عن أنفسكم الموت، وردوه عنكم إن كنتم صادقين، ولكن الموت لا بد وأنه آت إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة.



بيان شيء من فضل الشهداء في سبيل الله والتذكير بمواقف أهل الصدق والإيمان والحث على الثبات

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤) ﴿إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]؟.

يوضح معناه ما أخرجه مسلم عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل

معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا^(١): أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا.

ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا^(٢).

قلت: فقله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ أي لا تظن أن المقتولين في حرب الكفار لإعلاء كلمة الله، لا تظن أنهم موتى كسائر الأموات ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، بل يكرمهم الله عز وجل بحياة خاصة بهم وهم عنده سبحانه وتعالى يرزقهم ويكرمهم ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الرزق الواسع والنعيم المقيم ورضوان الله عليهم ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون ويسرون ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي أنهم سعداء بالمقاتلين في سبيل الله الذين هم على قيد الحياة لكونهم سيقتلوا في سبيل الله فينالوا من الكرامة مثل ما نالوه، ويبشرونهم ببشارة ألا وهي ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف عليهم مما هو آت ولا يحزنون على ما فات.

قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: يعني بذلك تعالى ذكره: يفرحون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء في الدنيا على مناجهم من جهاد أعداء الله مع رسوله لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم صاروا من كرامة الله إلى مثل الذي صاروا هم إليه، فهم لذلك مستبشرون بهم فرحون أنهم إذا صاروا كذلك ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني بذلك: لا خوف عليهم

(١) قال النووي رحمه الله (٥ / ١ / ٣٣): قوله ﷺ: «فقال لهم الله تعالى هل تشتهون شيئاً» هذا مبالغة في إكرامهم وتنعيمهم، إذ قد أعطاهم الله ما لا يخطر على قلب بشر، ثم رغبهم في سؤال الزيادة، فلم يجدوا مزيداً على ما أعطاهم، فسألوه حين رأوه أنه لا بد من سؤال أن يرجع أرواحهم إلى أجسادهم ليجاهدوا ويبدلوا أنفسهم في سبيل الله تعالى ويستلذوا بالقتل في سبيله تعالى. والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٨٨٧).

لأنهم قد آمنوا عقاب الله وأيقنوا برضاه عنهم، فقد آمنوا الخوف الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا ونكد عيشها للخفص الذي صاروا إليه والدعة والزلفة.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: أي: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم.

أما وجه استبشارهم ففيه ثلاثة أقوال ذكرها ابن الجوزي رحمه الله وهي:

الأول: أن الله تعالى لما أخبر بكرامة الشهداء أخبر الشهداء بأنهم قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم فاستبشروا وعلموا أن إخوانهم سيحرصون على الشهادة. قاله سعيد بن جبير.

الثاني: يستبشرون بإخوانهم الذين يرجون لهم الشهادة يقولون: إن قتلوا نالوا ما نلنا من الفضل. قاله قتادة.

الثالث: أن الشهيد يؤتي بكتاب فيه ذكر من تقدم عليه من إخوانه وأهله، وفيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا فيستبشر بقدمه، كما يستبشر أهل الغائب به، قاله السدي.

هذا، وللآية الكريمة سبب نزول ورد من حديث ابن عباس ^(١) رضي الله عنه، وفيه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتهوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب شربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم»، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

(١) أخرجه أحمد (١/٢٦٥).

جملة من الأحاديث في فضل الشهداء

وقد وردت في فضل الشهداء والشهادة في سبيل الله عدة أحاديث منها.
عن المقدم بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «للسهيد عند الله ست خصال^(١): يغفر له في أول دفعة^(٢)، ويرى مقعده من الجنة ويجار^(٣) من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر^(٤)، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفع في سبعين من أقاربه»^(٥).

عن البراء رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد. فقال: يا رسول الله، أقاتل أو أسلم؟ قال: «أسلم ثم قاتل» فأسلم ثم قاتل فقتل. فقال رسول الله ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً»^(٦).

(١) قال المباركفوري «تحفة الأحوذى» (٣٠٣/٥): قوله: «للسهيد عند ربه ست خصال» لا يوجد مجموعها لأحد غيره.

(٢) أي: الدفقة من الدم.

(٣) يجار: أي: يُحفظ ويأمن من عذاب القبر.

(٤) قال القاري: فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَخْزُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، قيل: هو عذاب النار، وقيل: العرض عليها، وقيل: هو وقت يؤمر أهل النار بدخولها، وقيل: ذبح الموت فيأس الكفار من التخلص من النار بالموت، وقيل: وقت إطباق النار على الكفار، وقيل: النفخة الأخيرة، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

[النمل: ٨٧]

أعاذنا الله من ذلك كله برحمته وفضله، ورزقنا الشهادة في سبيله آمين يا سمیع یا مجیب.

(٥) أخرجه الترمذي (١٦٦٣) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه حديث (٢٧٩٩).

(٦) أخرجه البخاري (٢٨٠٨) ومسلم (١٩٠٠) من حديث البراء رضي الله عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن^(١) الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»^(٢).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أم الربيع بنت البراء - وهي أم حارثة بن سراقة - أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب^(٣) - فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء^(٤)، قال ﷺ: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»^(٥).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن عمرو بن أقيش كان له رباً في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا:

(١) في رواية «انتدب» قال الحافظ ابن حجر (١/٩٣): أي: سارع بشوابه وحسن جزائه، وقيل: بمعنى

أجاب إلى المراد، إلى آخر ما ذكره رحمه الله.

(٢) رواية البخاري لهذا الحديث مفرقة، جزء في موطن وآخر في موطن، والحديث أخرجه البخاري (٣٦) وفي غير موضع، ومسلم (١٨٧٦).

(٣) قال الحافظ: «سهم غرب» أي: لا يعرف رامي، أو لا يعرف من أين أتى، أو جاء على غير قصد من رامي.

(٤) قال الخطابي: أقرأها النبي ﷺ على قولها: «اجتهدت عليه في البكاء» فيؤخذ منه الجواز، وتعقبه الحافظ بقوله: كان ذلك قبل تحريم النوح فلا دلالة فيه، فإن تحريمه كان عقب غزوة أحد، وهذه القصة كانت عقب غزوة بدر.

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٠٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد. فلبس لأمته ^(١) وركب فرسه، ثم توجه قبلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا ياعمرؤ، قال: إني قد آمنت. فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ فقال لأخته: سليه حمية لقومك أو غضبًا لهم أو غضبًا لله؟ فقال: بل غضبًا لله ولرسوله فمات فدخل الجنة وما صلى الله صلاة ^(٢).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ فقال: «أخذ الراية ^(٣) زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له». وقال: «ما يسرنا أنهم عندنا» قال أيوب: (أحد رجال الإسناد): أو قال: «ما يسرهم أنهم عندنا» ^(٤) وعينه تذر فان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بخير بعدما افتتحوها، فقلت: يا رسول الله أسهم لي، فقال بعض بني سعيد بن العاص ^(٥): لا تسهم له يا رسول الله. فقال أبو هريرة: هذا قاتل ابن قوئل. فقال ابن سعيد بن العاص: واعجبًا لو بر تدلي علينا من قدوم ضأن ينعي عليّ قتل رجل مسلم أكرمه الله على يدي ولم يهني على يديه ^(٦). قال: فلا أدري أسهم له أم لم يسهم له ^(٧).

(١) أي: درعه وسلاحه.

(٢) أخرجه أبو داود بإسناد حسن (حديث ٢٥٣٧)، وهو موقوف، لكن لا يقال من قبيل الرأي، وانظر كتابنا «الصحيح المسند من فضائل الصحابة» (ص ٣٦٧).

(٣) وذلك في عزوة مؤتة. والحديث أخرجه البخاري (٣٠٦٣)، والنسائي (٤ / ٢٦).

(٤) قال الحافظ في «الفتح» (١٧ / ٦): «ما يسرهم أنهم عندنا» أي: لما رأوا من الكرامة بالشهادة، فلا يعجبهم أن يعودوا إلى الدنيا، كما كانوا من غير أن يستشهدوا مرة أخرى.

(٥) هو: أبان بن سعد.

(٦) قال الحافظ في «الفتح»: المراد منه قول أبان: أكرمه الله على يدي ولم يهني على يديه، وأراد بذلك أن أن النعمان استشهد بيد أبان فأكرمه الله بالشهادة، ولم يقتل أبان على كفره فدخل النار، وهو المراد بالإهانة، بل عاش أبان حتى تاب وأسلم وكان إسلامه قبل خير بعد الحديبية، وقال ذلك بحضرة النبي ﷺ وأقره عليه.

(٧) والحديث أخرجه البخاري (٢٨٢٧)..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة»^(١).

عن أنس رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ أقوامًا من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم فإن أمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ، وإلا كتتم مني قريبًا فتقدم فأمنوه، فبينما يحدثهم عن النبي ﷺ إذ أو مأوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلًا أخرج صعد الجبل، قال همام: وأراه آخر معه، فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ أنهم لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم، فكنا نقرأ: (أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)، ثم نسخت بعد^(٢)، فدعا عليهم أربعين صباحًا، على رعل وذكوان وبني لحيان وبني عصىة الذين عصوا الله ورسوله^(٣).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جيء بأبي إلى النبي ﷺ وقد مثل به^(٤) ووضع بين يديه فذهبت أكشف عن وجهه فنهاني قومي، فسمع صوت نائحة فقيل: ابنة عمرو - أو أخت عمرو - فقال: «لم تبكي؟! أو لا تبكي، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها»^(٥).

قلت لصدقة (القائل هو البخاري): أمنه حتى رفع؟ قال: ربما قاله. أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وإسناده حسن.

(٢) أي: نسخ تلاوة، ولكنه باقٍ حكمًا.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) الذي يمثل به هو من تقطع أجزأه أو بعضها كأن يجدع أنفه أو تقطع أذنه أو مذاكيره أو تشق بطنه أو أو غير ذلك.

(٥) قال الحافظ في «الفتح» (١٦٣/٣): فهذا الجليل القدر الذي تظله الملائكة بأجنحتها لا ينبغي أن يبكي عليه بل يفرح له بما صار إليه.

قلت: والبكاء بدون نوح ولا صياح ولا عويل أمر جائز، وقد ذرفت عينا رسول الله ﷺ لما جاءه خبر قتل زيد وجعفر وابن رواحة رضي الله عنهم.

* عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته بينانه. قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلى آخر الآية. أخرجه البخاري ومسلم.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عيناً، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري - جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فانطلقوا حتى إذا كان بالهدأة^(١) - وهو بين عسفان ومكة - ذكروا الحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفة^(٢) وأحاط بهم القوم فقالوا: انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموه بالنبل فقتلوا عاصمًا في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله لا أصحابكم، إن لي في هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - وجرروه وعاجلوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه، فانطلقوا

(١) هو مكان على بعد سبعة أميال من عسفان. قاله ابن إسحاق.

(٢) الفدفة: الموضع المرتفع. قاله ابن كثير.

بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً، فأخبرني عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته، فأخذ ابناً لي وأنا غافلة حتى أتاه قالت: فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد بمكة، وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيياً. فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين. ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتهما، اللهم أحصهم عدداً:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرئ قتل صبراً، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر النبي ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا. وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حيث حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبعث على عاصم مثل الظلة^(١) من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدرُوا على أن يقطعوا من شيئاً^(٢).

* عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل

(١) قال الحافظ «الفتح» (٧/ ٣٨٤): الظلة بضم المعجمة: السحابة، والدبر بفتح المهملة وسكون الموحدة: الزناير، وقيل: ذكور النحل، ولا واحد له من لفظه.

قال: وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكن من نفسه ولو قتل، أنفة من أن يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة فإذا أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن.

(٢) أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي.

الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر». ثم قال رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟». قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك»^(١).

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا عز وجل من رجل غزا في سبيل الله عز وجل فانهزم - يعني أصحابه - فعلم ما عليه فرجع حتى أهرق دمه، فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي حتى أهرق دمه»^(٢).

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً قال: أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟ قال: «في الجنة». فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قتل^(٣). أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث رسول الله ﷺ بسيسة^(٤) عيناً^(٥) ينظر ما

(١) قال النووي رحمه الله (٥ / ١ / ٢٩): فيه هذه الفضيلة العظيمة للمجاهد وهي تكفير خطاياها كلها إلا حقوق الآدميين، وإنما يكون تكفيرها بهذه الشروط المذكورة وهو: أن يقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر. ثم قال النووي رحمه الله: وأما قوله ﷺ: «إلا الدين» ففيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين، وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين، وإنما يكفر حقوق الله تعالى. قلت: وهذا ما يؤيده الحديث التالي.

والحديث أخرجه مسلم والترمذي، وهو صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود بإسناد حسن.

(٣) قال النووي رحمه الله «شرح مسلم» (٥ / ١ / ٤٣): فيه ثبوت الجنة للشهيد، وفيه المبادرة بالخير وأنه لا يشتغل عنه بحفظ النفس.

(٤) قال النووي رحمه الله (٥ / ١ / ٤٤): وهو بسيس بن عمرو، ويقال: ابن بشر من الأنصار من الخزرج، يقال: حليف لهم.

(٥) عيناً: أي متجسساً ورقياً.

صنعت عير^(١) أبي سفيان فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ قال: أدري ما استثنى بعض نسائه قال: فحدثه الحديث قال: فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: «إن لنا طلبة^(٢) فمن كان ظهره^(٣) حاضراً فليركب معنا»، فجعل رجال يستأذنونهم في ظهورهم في علو المدينة، فقال: «لا إلا من كان ظهره حاضراً» فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يتقدم من أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض. قال: «نعم». قال: بخ، بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ»، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل^(٤).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لولا أن رجلاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما

(١) هي الدواب التي تحمل الطعام وغيره من الأمتعة. قال النووي. وقال: قال في المشارق، العير هي الإبل والدواب تحمل الطعام وغيره من التجارات، قال: ولا تسمى عيراً إلا إذا كانت كذلك. وقال الجوهري في الصحاح: العير: الإبل تحمل الميرة وجمعها عيرات بكسر العين وفتح الياء.

(٢) أي: شيئاً نطلبه.

(٣) الظهر: الدواب التي تتركب.

وفي قوله عليه السلام: «إن لنا طلبة»: استحباب التورية في الحرب وأن لا يبين الإمام جهة إغاراته وإغارة سراياه، لئلا يشيع ذلك فيحذرهم العدو، ذكر ذلك النووي رحمه الله.

(٤) قال النووي رحمه الله (٥/ ١ / ٤٦): فيه جواز الانغمار في الكفار والتعرض للشهادة، وهو جائز بلا كراهة عند جمهور العلماء.

والحديث أخرجه مسلم وأحمد.

تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل»^(١).

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قاتل في سبيل الله عز وجل من رجل مسلم فواق ناقة وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل من عند نفسه صادقاً ثم مات أو قتل فله أجر شهيد، ومن جرح جرحاً في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها كالزعفران، وريحها كالمسك، ومن جرح جرحاً في سبيل الله فعليه طابع الشهداء»^(٢).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»^(٣).

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتي بالرجل من أهل الجنة، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك. فيقول: أي رب خير منزل. فيقول: سل وتمن. فيقول: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات، لما يرى

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح.

(٣) في رواية للبخاري (٢٨١٧) «... فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة».

قال ابن بطال: هذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة، قال: وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد، فذلك عظم فيه الثواب.

وقال النووي «شرح مسلم» (٥ / ١ / ٢٤): هذا من صرائح الأدلة في عظيم فضل الشهادة، والله المحمود المشكور.

وأما سبب تسميته شهيداً: فقال النضر بن شميل: لأنه حي، فإن أرواحهم شهدت وحضرت دار السلام وأرواح غيرهم إنما تشهدها يوم القيامة. وقال ابن الأنباري: إن الله تعالى وملائكته عليهم الصلاة والسلام يشهدون له بالجنة، وقيل: لأنه شهد عند خروج روحه ما أعده الله تعالى له من الثواب والكرامة. وقيل: لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فيأخذون روحه.

وقيل: لأنه شهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله، وقيل: لأن عليه شاهداً بكونه شهيداً وهو الدم. وقيل: لأنه ممن يشهد على الأمم يوم القيامة بإبلاغ الرسل الرسالة إليهم، وعلى هذا القول يشاركهم غيرهم في هذا الوصف. والحديث أخرجه البخاري ومسلم.

من فضل الشهادة^(١).

* عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بي الشجرة وأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل لم أر قط أحسن منها، قال: أما هذه الدار فدار الشهداء^(٢)».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين»^(٣).

وأخرج أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، وفي قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيًا»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يستبشر الشهداء، يسعدون ويفرحون ويُسَرُّون لإخوانهم الذين سيقبلون عليهم ولما سينال هؤلاء من فضل الله ونعمته.

فالاستبشار الأول السرور لإخوانهم الذين يقاتلون من خلفهم وأنهم سيلحقونهم والاستبشار الثاني: السرور لما سينال إخوانهم من نعمة الله عز وجل وفضله، فبعض أهل العلم يقولون إن النعمة هي الثواب والجزاء، والفضل هو

(١) أخرجه أحمد والنسائي بإسناد صحيح.

(٢) هذا الحديث جزء من حديث طويل في رؤيا للنبي ﷺ رآها ثم قصها على أصحابه بعد صلاة الفجر، وقد أخرجه البخاري في مواضع من «صحيحه» منها آخر كتاب التعبير (حديث ٧٠٤٧) ومسلم والنسائي. وفي هذا القدر فضيلة ظاهرة للشهداء، وعلو منزلة دارهم وحسنها.

(٣) أخرجه مسلم.

قال القرطبي رحمه الله: قال علماءنا: ذكر الدين تنبيه على ما في معناه من الحقوق المتعلقة بالذمم كالغصب، وأخذ المال بالباطل، وقتل العمد وجراحه وغير ذلك من التبعات، فإن كل هذا أولى ألا يغفر بالجهاد من الدين فإنه أشد، والقصاص في هذا كله بالحسنات والسيئات حسبها وردت به السنة الثابتة.

(٤) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وكأن الشهداء: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم: من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهي سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك ويغذى عليهم برزقهم هناك ويُراح. والله أعلم.

الزيادة وبعضهم يقول النعمة والفضل هي الرحمة والرزق، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا يبطل جزاء أعمالهم، ولا يضيع ثوابهم.

هذا، وفي الآية الكريمة لفتة طيبة، ألا وهي حب الشهداء الخير لإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، فالشهداء لا يريدون الاستئثار بالفضل لأنفسهم، إنما يتمنون الخير لإخوانهم ونحوه في التنزيل قول المؤمن المذكور في سورة يس ﴿يَلَيْتَ قَوِّمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) ﴿يَمَا غَفَرَلِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٧) ﴿يس: ٢٦، ٢٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي الذين أجابوا رسول الله ﷺ لما دعاهم إلى ما أمرهم الله به من الجهاد بعد غزوة أحد وقد أصابهم من الجراح والقتل ما أصابهم، فلم يمنعهم ذلك من معاودة الإجابة لله ورسوله، للذين أحسنوا من هؤلاء بطاعتهم الله عز وجل واستجابتهم نداء رسول الله ﷺ واتقوا ربهم خافوا غضبه وعقابه وخافوا من معصيته، لهؤلاء أجر عظيم.

وهؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع هم الذين ساروا مع رسول الله ﷺ الغد من يوم أحد حمراء الأسد^(١) لما دعاهم النبي ﷺ إلى الخروج إليها لملاقاة عدوهم على ما بهم من ألم الجراح.

وكان منهم: أبو بكر والزبير رضي الله عنهما كما ورد في «صحيح البخاري» من حديث عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

(١) وأكثر الروايات الواردة في هذا الباب - رغم ما بها من مقال - تفيد أنها حمراء الأسد، ومن العلماء من قال: إن هذه الاستجابة من الصحابة كانت من العام المقبل حيث تواعد أبو سفيان ورسول الله ﷺ موسم بدر للقاء فيه، وت خلف أبو سفيان وسميت بدر الصغرى، أو بدر الموعد، ولم أفق لهذا على إسناد صحيح، والوارد فيه ضعيف.

واختار ابن كثير رحمه الله أن الصحيح أن السياق نزل في شأن حمراء الأسد، وكذلك اختاره الطبري أيضًا، وحمراء الأسد موطن، وسيأتي ذكره في سبب النزول.

مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٧٢]، قالت لعروة: يا ابن أخي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: من يذهب في أثرهم فانتدب منهم سبعون رجلاً منهم أبو بكر والزبير (١).

هذا، وقد وردت لهذه الآية الكريمة أسباب نزول لكنها ليست بسالمة من العلل فقد ورد عند ابن أبي حاتم (كما عزاه إليه ابن كثير في التفسير)، أثر من طريق عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتهم بئسما صنعتم، ارجعوا؛ فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمون فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد - أو بئر أبي عيينة (٢) فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ فكانت تعد غزوة، فأنزل الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢]. وقد اختلف في وصله وإرساله (٣).

وأشار الحافظ ابن حجر إلى أن الصواب إرساله (٤).

هذا، وقد يطرح ها هنا سؤال حاصله: أليس كل الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع قد أحسنوا؟ فلماذا قيل في الآية الكريمة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢]؟.

وجوابه: إذا كان المراد أنهم أحسنوا في استجابتهم للرسول ﷺ لما دعاهم وقد أصابهم القرع فنعم كلهم قد أحسنوا في ذلك وتكون (من)، في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، للتبيين.

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨).

(٢) الشك من سفيان (أحد الرواة).

(٣) فرواه محمد بن عبد الله بن يزيد عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن عكرمة مرسلاً، ورواه محمد بن منصور عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس متصلاً.

(٤) قال الحافظ ابن حجر «فتح الباري» كتاب التفسير (٧٧/٨): ورجاله رجال الصحيح إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس.

ولكن قد يقال: إن من هؤلاء المستجيب لله والرسول قومًا محسنين معروفين بالإحسان قبل الغزوة أصلاً، ومتقين كذلك، فأضيف إلى إحسانهم وتقواهم استجابة لنداء رسول الله ﷺ فاستجابوا له مع ما بهم من قرح، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. فيه بيان لحال هؤلاء المجاهدين مع رسول الله ﷺ وبيان لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن، فهؤلاء المجاهدون لم يخشوا عدوهم ولم يلتفتوا إلى أراجيف المرجفين من المنافقين، بل ثبتهم الله على الإيمان ورزقهم حسن الاعتصام به وحسن التوكل عليه، فلما قال لهم الناس، الذين هم أهل النفاق، قالوا لهم ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾. أي الكفار قد جمعوا لكم الجموع وأعدوا لكم العدد ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ فاحذروهم وخافوهم ولا تقاتلوهم فإنه لا طاقة لكم بهم، لم يلتفتوا إلى قول هؤلاء المرجفين المنافقين ولكن من الله عليهم بالثبات ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ وزادهم هذا القول الذي قيل لهم ثباتاً على دينهم وعلى جهادهم مع رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا﴾ قال أهل الإيمان ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ كافينا وحافظنا هو الله عز وجل، ونعم الوكيل الذي نعتمد عليه ونكل إليه أمورنا، وهو الله عز وجل نعم من توكلنا عليه واعتمدنا عليه ولجأنا إليه.

﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي فرجع هؤلاء المؤمنون إلى ديارهم سالمين، رجعوا في عافية وسلامة من أذى عدوهم لهم، ورجعوا بعزة نفس، ورجعوا بربح ومزيد من الثواب ﴿لَمْ يَمَسَّ سَمُّهُمُ سُوءٌ﴾ لم يصابوا بأذى ولا مكروه، ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي ورجعوا وقد من الله عليهم برضاه عنهم فلما رضى عنهم رزقهم فعل ما يرضيه عنهم، وقول ما يرضيه عنهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ يتفضل على من يشاء من عباده بعظيم الفضل، ومن أجل ذلك وأعظمه أن يوفق العبد لفعل ما يرضى الله عنه ولقول ما يرضى الله عنه.



ذكر بعض الفوائد من الآيات السابقة

هذه، وفي الآيات المتقدمة من الفوائد ما يلي:

أولاً: أدلة على زيادة الإيمان ونقصانه وذلك من قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾.

ثانياً: أن الذي يكف أذى الكفار هو الله، وهي نعمة عظيمة ألا وهي كف أيدي الظالمين عن أهل الإيمان، فلما اعتمد المؤمنون على ربهم وأحسنوا التوكل عليه رجعوا ولم يمسسهم سوءٌ ولما يُصابوا بأذى.

ومن الفوائد الأصولية أن العام قد يطلق في القرآن ويُراد به الخاص، ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فالناس عامة لكن أريد بها هنا الخصوص، فالمقول لهم ناس (وهم رسول الله ﷺ والمؤمنون)، والقائلون ناس (وهم إما أهل نفاق أو بعض الأعراب)، والذين جمعوا لهم ناس (وهم المشركون آنذاك أبو سفيان وأصحابه)، ومثال آخر قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

[النساء: ٥٤]

فالمحسودون ناس وهم رسول الله ﷺ، والحسَد ناس وهم أهل الكتاب والمنافقون وأهل الشرك والله تعالى أعلم.

ومن الفوائد التذكير بما يقوله العبد إذا خاف قومًا وهي قوله: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد ورد في الصحيح من حديث^(١) ابن عباس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

[آل عمران: ١٧٣]

ومن الأذكار في هذا الباب أيضًا:

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٨٣] وَقَالَ مُوسَىٰ يَقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ [٨٤] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٨٥] وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٣-٨٦].

ومن هذه الأذكار أيضًا: قول: (اللهم اكفنيهم بما شئت)^(٢).



(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

وفي رواية أخرى للبخاري (٤٥٦٤) عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار «حسبي الله ونعم الوكيل».

(٢) فقد قالها الغلام الذي ورد ذكره في حديث الملك والساحر والراهب والغلام وأصحاب الأخدود أخرجه مسلم (١٨ / ١٣٠).

وتم حديث آخر في هذا الباب، وفيه كلام وهو حديث: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم».

الحث على الثبات والشجاعة وعدم الخوف إلا من الله عز وجل

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ذهب فريق من أهل العلم يقول: إن المراد بالشیطان: الشیطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتشیط.
وقيل: المراد بالشیطان باعتبار ما يلقيه على لسان أتباعه من المنافقين فيتكلمون به لتشیط المؤمنین.

وقيل: المراد بالشیطان هنا شیطان من شياطين الإنس، قيل: إنه نعيم بن مسعود.

والقول الأول أعم، والله تعالى أعلم.
 وقوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ فيه أقوال:
 يخوفكم بأوليائه^(١) كقوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] أي: لينذر ببأس، وكقوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ الْتَلَاقٍ﴾ [غافر: ١٥] أي: لينذر بيوم التلاق.
والمعنى: أن الشیطان يوهمكم أن أولیاءه ذوو قوة وبأس شديد، وذوو عددٍ وعُدَدٍ ليرهبوهم وتتركوا حربهم.
ومنها: يخوفكم من أولیائه.

وقيل: يخوف أولیاءه المنافقین ليقعدوا عن قتال المشرکین، والله تعالى أعلم.
 وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي لا تخافوا يا أهل الإيمان من أولیاء الشیطان ﴿وَخَافُوا﴾ واخشوني وأخشوا عذابي، وامثلوا أمري واجتنبوا نهیي فأنا الذي أحفظكم وأنا الذي أسلمكم ﴿إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقین بوحدانيّتي وقدرتي وقوتي وحفظي، وإن كنتم مصدقین بما أخبرتكم به. والله أعلم.

(١) صح عن قتادة (عن ابن جرير الطبري في «التفسير» ٨٢٥٦) أنه قال: يخوف الله المؤمن بالكافر ويرهب المؤمن الكافر.

النهى عن ذهاب النفس حشرات على أهل الكفر وبيان أنهم لن يضرُوا الله شيئاً

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّ نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ^(١٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(١٧٦) المراد، والله أعلم لا تُفْرِط في الحزن على كفر الكافرين ومعصية العصاة، أي لا تبالغ في الحزن على ذلك، كما قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾^[فاطر: ٨]، وكما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^[الشعراء: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسُكَ عَلَىٰ عَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^[الكهف: ٦].

وَتَمَّ قَوْلٌ آخَرٌ وَهُوَ: أن المعنى لا تخف أن يضررك كفر الكافرين ولا كيد الكائدين. والله أعلم.

أما الذين يسارعون في الكفر ففيهم أقوال، منها:
أنهم المشركون، ومسارعتهم في الكفر تتمثل في تسارعهم في الأعمال المقوية للكفر كالتهيو لقتال النبي ﷺ ومحاربة دينه وشرعه.
وقيل: إنهم المنافقون شهدوا بالستهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم سارعوا في الردة إلى الكفر بعد إيمانهم.

وقيل: هم قوم من اليهود كتموا صفة محمد ﷺ.

قلت: ولا يمتنع أن يدخل كل المذكورين في الآية، والله تعالى أعلم.

وسبب مسارعتهم في الكفر، والله أعلم.

طمعهم في الدنيا، وقبل ذلك إرادة الله عز وجل ألا يجعل لهم حظًا في الآخرة، فلذلك خذلهم الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي يريد الله ألا يجعل لهم نصيبًا من الثواب فيها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم يوم القيامة عذابٌ عظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معنى كونهم اشتروا الكفر بالإيمان، أي ارتدوا عن إيمانهم بعد دخولهم فيه. ومن المعاني أيضًا رضوا بالكفر ورفضوا الإيمان لعرض زائل من أعراض الحياة الدنيا، فهؤلاء لن يضرروا الله شيئًا بكفرهم وارتدادهم، إنما يضررون بذلك لكونهم جلبوا لها عقاب الله عز وجل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ مٌوجعٌ.



بيان أن تأخير عقوبة الكفار ليس عن رضى عنهم

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُؤْمِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُؤْمِلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

الإملاء هو التأخير والإطالة في العمر والأجل .

ومنه قول آزر لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي طويلاً، وقول عمر في شأن جبريل في حديث الإسلام والإيمان والإحسان ثم انطلق فلبثت ملياً. ومعنى الآية الكريمة، والله أعلم.

لا يظن هؤلاء الكفار أن تأخيرنا لهم في هذه الحياة الدنيا خيرٌ لهم، ولكن تأخيرنا لهم وإطالتنا أعمارهم في هذه الحياة الدنيا؛ ليكتسبوا معاصي فيزدادوا آثاماً مع آثامهم ويحملوا أوزاراً مع أوزارهم، والله تعالى أعلم.



حتمية الابتلاء

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

لأهل العلم في بيان المخاطب بالآية الكريمة أقوال:

منها: أن المخاطب هم المشركون، والمعنى: ما كان الله ليترك أهل الإيمان على ما أنتم عليه يا أهل الكفر من كفر وشقاق وعداوة النبي ﷺ حتى يُفَرِّق بين المؤمن والمنافق بما يلقيه من ابتلاءات ومحن وشدائد وقتل وجراح.

ومنها: أن المخاطب هم المؤمنون، والمعنى: ما كان الله ليذركم يا أهل الإيمان على ما أنتم عليه من اختلاط بالمنافقين حتى تأتيكم المحن فيفريق بينكم وبين أهل النفاق وتعلموا - بما يسوقه الله من ابتلاءات - المؤمن الصابر من المنافق الفاجر، والله تعالى أعلم.

وثم قول آخر: أن الخطاب للمشركين، والمعنى: ما كان الله ليذر ما في أصلابكم ممن كتب الله له الإيمان في أصلابكم حتى يفصل بينكم وبين أولادكم المؤمنين الموجودين في أصلابكم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾، معناه، والله أعلم.

أن الله عز وجل أراد أن يخبركم بأهل الإيمان منكم وأهل النفاق، وجرت حكمته وسنته ألا يطلع أحداً على الغيب فيقال له: هذا مؤمن وهذا منافق (إلا من

اجتباهم من الرسل) فأراد الله عز وجل أن يطلعكم على أهل الإيمان وأهل النفاق بطريقة غير الاطلاع على الغيب، وهذه الطريقة هي الابتلاءات والمحن التي بها تتعرفون على مؤمنكم من المنافق الموجود معكم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبَىٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال بعض العلماء إن المراد بالاجتباء هنا: الاجتباء بالاطلاع على بعض الغيب فيختار الله عز وجل بعض رسله لإطلاعهم على بعض غيبه بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾

[الجن: ٢٦، ٢٧]

وقال آخرون: إن المراد بالاجتباء: اختبار من يشاء من الرسل لتفضيلهم على غيرهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيه، والله أعلم.

إرشاد إلى التصديق وعدم التشوف إلى علم الغيب، والمعنى - والله أعلم -: لا تشتغلوا بما لا يعينكم من محاولة معرفة الغيب والاطلاع عليه، فليس لكم سبيل إلى ذلك، ولكن اشتغلوا بما يعينكم من الإيمان والتصديق، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن آمنتم بالله واتقيتموه بفعل ما أمركم به، والانتها عما نهاكم عنه ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة في جنات النعيم.



مصير البخلاء بالواجب عليهم

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾.

حاصل معناه: والله أعلم: لا يحسبن البخيل أن جمعه المال وبخله بإخراج الواجب عليه فيه ينفعه، بل هو مضرة عليه في أخره، بل وفي دنياه أيضًا. والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يوضحه ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا أقرع له زبيتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٨٠] إلى آخر الآية»^(١). وكما أسلفت فأكثر العلماء على أن المراد بالبخل هنا البخل بالمال الواجب على الإنسان إخراج، ومن منع ما ليس بواجب عليه فليس ببخل يستحق الوعيد الشديد الوارد في الآية الكريمة.

وبعض أهل العلم يقول: إن المراد بالبخل هنا: البخل بالعلم؛ إذ العلم فضل أيضًا كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فاليهود كتموا صفة النبي ﷺ.

والقول الأول أقوى وعليه الأكثر، ويؤيده قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، وما ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك وسيأتي إن شاء الله.

(١) البخاري (٤٥٦٥).

آيات وأحاديث في ذم البخل

وقد وردت عدة آيات وعدة أحاديث في ذم البخل، لا ينبغي أن يخلو المقام من التذكير ببعضها، منها:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالى: ﴿هَآأَنَآ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعَقَبَهُمُ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.﴾

[التوبة: ٧٥، ٧٧]

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَغْنَى﴾ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى﴾ (٩) فَسَنَسِرُهُ لِّلْعُسْرَى.﴾

[الليل: ٨ - ١٠]

ولما انطلق أصحاب الجنة متخافتين يقولون: ﴿لَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾

[القلم: ٢٤] أصبحت قريتهم كالصرير.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

أما أحاديث النبي ﷺ فكثيرة في هذا الباب، منها:

قوله عليه الصلاة والسلام: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون»^(٢).

وقال النبي ﷺ: «وشر ما في رجل شح هالع وجبن خالع»^(٣).

وقال النبي ﷺ: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جتان من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه»^(٤)، وتعفو أثره^(٥). وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع»^(٦).

وقال رسول الله ﷺ: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قلنا: جدُّ بن قيس على أنا نبخله. قال: «وأي داءٍ أدوأ من البخل؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح»^(٧).

(١) أخرجه البخاري (مع «الفتح» ٣/ ٣٠٤)، ومسلم (٧/ ٩٥ مع النووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٤)، والحاكم في «المستدرک» (٢/ ٤٩٩) بإسناد حسن من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٢)، وأبو داود (٣٥١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٤) أي: تكون طويلة حتى تغطي أصابعه.

(٥) أي: تكون طويلة حتى تلحق بالأرض وتمحو أثر خطاه.

(٦) أخرجه البخاري (مع «الفتح» ٣/ ٣٠٥) ومسلم (٧/ ١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٧) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» حديث (٢٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً، وإسناده صحيح. وقد رواه الحاكم في «مستدرکه» (٣/ ٢١٩)، (٤/ ١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، لكن فيه: «بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور».

وقوله: «أي داءٍ أدوأ من البخل» أخرجه البخاري في «صحيحه» (مع «الفتح» ٩/ ٩٥) موقوفاً على أبي بكر رضي الله عنه.

وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية، وكان يولم عن رسول الله ﷺ إذا تزوج.

وقال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إن تبذل الفضل خيرٌ لك وإن تمسكه شرٌّ لك ولا تُلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى»^(١).

وثبت في عدة أحاديث أن النبي ﷺ كان يتعوذ من البخل^(٢).

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قلبكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٣).

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني..» الحديث، وفيه: «يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمتك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي...» الحديث^(٤).

(١) أخرجه مسلم (١٢٦ / ٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) منها حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه كان يأمر بهؤلاء الكلمات ويحدثهن عن النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من البخل وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر» أخرجه البخاري (١١ / ١٧٨ مع «الفتح»)، ومسلم (٨ / ٢٥٦ مع النووي).

ومنها: حديث أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من البخل» أخرجه البخاري (١١ / ١٧٩)، ومسلم (مع النووي ٢٩ / ١٧).

ومنها: حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها». أخرجه مسلم (مع النووي ١٧ / ٤١).

(٣) أخرجه مسلم (١٦ / ١٣٤ مع النووي).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (مع النووي ١٦ / ١٢٥).

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو

وقال النبي ﷺ: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»^(١).

وقال النبي ﷺ: «لا يأتي رجل مولى له يسأله من فضلٍ عنده فيمنعه إلا دعي له يوم القيامة شجاع أقرع يتلمظ فضله الذي منع»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «يكون كنز أحدهم يوم القيامة شجاعا أقرع يفر منه صاحبه فيطلبه ويقول: أنا كنزك، قال: والله لن يزال يطلبه حتى يبسط يده فيلقمها فاه»^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «إذا ما رب النعم لم يُعط حقها تسلط عليه يوم القيامة فتخبط وجهه بأخفافها».

وقال رسول الله ﷺ: «من ترك بعده كنزا مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه فيقول: من أنت ويلك، فيقول: أنا كنزك الذي خلفت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبع سائر جسده»^(٤).

وقد تقدمت بعض الأحاديث في هذا الباب في أوائل هذه السورة المباركة فراجعها إن شئت.

أما الآثار، فمنها:

عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال أعرابي: أخبرني

=عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

(١) أخرجه البخاري (مع «الفتح» ٢٦٨ / ٣)، والنسائي (٣٩ / ٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.
(٢) أخرجه الإمام أحمد «المسند» (٥ / ٥)، والنسائي (٨٢ / ٥) من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعا، وإسناده حسن.

(٣) أخرجه البخاري (مع «الفتح» ٣٣٠ / ١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

(٤) صحيح وقد أخرجه أبو يعلي رحمه الله (نقلا من تفسير ابن كثير ١ / ٤٣٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه مرفوعا.

عن قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] قال ابن عمر رضي الله عنهما: «من كنزهما فلم يؤد زكاتها فويل له إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهرًا للأموال»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ قال: شجاع يلتوي برأس أحدهم^(٢).

وعن الأحنف بن قيس قال: (جلست إلى ملاٍّ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم، ثم قال: بشر الكانزين برضفٍ يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من غض كتفه ويوضع على غض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل ثم ولى فجلس إلى سارية، وتبعته وجلست إليه وأنا لا أدري من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلت، قال: إنهم لا يعقلون شيئاً، قال لي خليلي، قال قلت: من خليلك؟ قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر أتُبصر أحداً؟» قال فنظرت إلى الشمس ما بقي من النهار وأنا أرى أن رسول الله ﷺ يرسلني في حاجة له، قلت: نعم قال: «ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير» وإن هؤلاء لا يعقلون، إنما يجمعون الدنيا، لا والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله)^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَحَنُ الْوَارِثُونَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه أموركم، ولا يخفى عليه بخلكم.



(١) أخرجه البخاري (مع «الفتح» ١٣ / ٢٧١)، وابن ماجه (١٧٨٧).

(٢) أخرجه الطبري (٧ / ٤٣٦) بإسناد صحيح إلى ابن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري (مع «الفتح» ٣ / ٢٧١)، ومسلم (٩٩٢).

بيان بعض جرائم اليهود وسوء أدبهم وشدة تكذيبهم وعنادهم

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلاَ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بِلِّي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝١٨٤﴾.

يُخبر الله عز وجل نبيه ﷺ والخلق أنه سمع قول اليهود القائلين، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، فقد كان اليهود يقولون ذلك، ويستدل لذلك بعض الحمقى منهم والجهلة بقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فمن ثم قال الجهلة وأهل الغباء منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال الله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي سنكتب قولهم الذي قالوه عن الله عز وجل وسنحاسبهم به يوم القيامة وكذلك فسنتب قتلهم الأنبياء بغير حق، وتقول لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ذوقوا النار المحرقة الملهبة.

﴿ ذَٰلِكَ ۖ الْعَذَابُ ۖ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ۖ ﴾ بما اقترفتموه من الجرائم والذنوب السالفة، والافتراءات على الله وقتلكم لرسول الله الكرام عليهم الصلاة والسلام.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۖ ﴾ أي وما ظلمكم الله بل جازاكم بما تستحقونه وعمومًا فإن الله لا يظلم أحدًا من العباد، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ ﴾ ولقد حرم الله عز وجل الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً.

ثم بين الله عز وجل أحوال هؤلاء اليهود وأنهم لن يؤمنوا مهما جاءتهم الآيات والمعجزات فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا ۖ لَآ نُؤْمِنُ ۖ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۖ ﴾ كذا قالوا، قالوا إن الله نهانا أن نصدق برسالة أي رسول حتى يأتينا بقربان، أي بشيء من البر الذي يتقرب به إلى الله عز وجل وقد يكون هذا حلياً، أو متاعاً أو نحو ذلك لا نؤمن لرسول حتى يأتي بمثل هذا وتنزل نارٌ من السماء فتأكله كذا قال اليهود، وهل هم صادقون في هذا الذي نقلوه عن الله عز وجل، فأقول، وبالله التوفيق.

الذي نستطيع أن نجزم به أن هذا العهد، وإن وجد لا يتطرق إلى نبينا محمد ﷺ، وقد قال النبي ﷺ: «وأحلت لي الغنائم»، ثم بعد ذلك نقول: إن بعض أهل العلم قال: هذا كذب من اليهود في دعواهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا ۖ لَآ نُؤْمِنُ ۖ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ومنهم من قال: إن ذلك كان ثابتاً في التوراة لكنه كان مثبتاً فيها باستثناء عيسى ومحمد عليهما السلام فأخفى اليهود هذا الاستثناء والله تعالى أعلم^(١).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ۖ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۖ ﴾.

قل يا رسول الله هؤلاء الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، قل لهم قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات، وهي الدلالات الواضحات والحجج والبراهين القاطعات الدالات على صدقهم ونبوتهم،

(١) سيأتي قريباً إن شاء الله.

وجاءوكم أيضًا بالقرايين التي تأكلها النار ومع ذلك قتلتموهم، فلما قتلتموهم إن كنتم صادقين.

وهذا وقد أخرج البخاري ومسلم^(١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجلٌ ملك بضع امرأة وهو يريد أن يني بها ولما بنى بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقفوها، ولا آخر، اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحُبست حتى فتح الله عليهم فجمع الغنائم فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلواً فليبا يعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يدُ رجل بيده فقال: فيكم الغلول فليبا يعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول فجاءوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها فجاءت النار فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ فيه تصريحٌ للنبي ﷺ، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وقد ورد عن الخنساء أنها قالت:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يكون مثل أخي ولكن أعزي النفس معهم بالتأسي

أما في الآخرة فلا ينفع الاشتراك في العذاب، فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتَكْمُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وقوله: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

أي أن الرسل، ومع أنهم جاءوا بالبينات، وهي الدلالات على صدقهم والزبر، وهي الكتب المتلقاه من السماء، والكتاب المنير، أي والكتب الواضحات الجليات المضيئات المبصرات، ومع مجيء الرسل بذلك كله، فقد كذبت الرسل.

(١) البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

التذكير بالموت والتحذير من الافتتان بالدنيا

قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ١٨٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي لا بد وأن تموت، وهي كقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧﴾

[الرحمن: ٢٦، ٢٧]

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ أبعد عنها ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

فاز بمطلوبه وهو الجنة، ورضوان الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ قال جمهور المفسرين ما

حاصله: إنه ما يتمتع به الإنسان ويتنفع به ثم يزول ولا يبقى والغرور قيل: هو

مصدر من قول القائل: غرني فلان فهو يغرنى غرورًا بضم الغين، وأما إذا فتحت

الغين من الغرور فهو صفة الشيطان الغرور الذي يغري ابن آدم حتى يدخله في معصية

الله فيما يستوجب به عقوبته. قاله الطبري، وقال أيضًا: ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ يقول

إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل الذي لا حقيقة له عند الامتحان ولا صحة له عند الاختبار فأنتم تتلذذون بما متعكم الغرور من دنياكم، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره، يقول تعالى ذكره: ولا تركزوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها فإنما أنتم منها في غرور تمتعون ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون.

وجاءت في الغرور أقوال مختصرة منها: الغرور: الباطل، ومنها: أن العيش فيها يغر الإنسان بما يمينه من طول البقاء.

وذكر بعض المفسرين عن سعيد بن جبير أنه قال: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من يشتغل بطلب الآخرة فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منها. والله أعلم.



التذكير بالابتلاء وأنه سيكون

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦).

حاصل معنى الآية الكريمة لتختبرن في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من اليهود والنصارى ومن المشركين أذى كثيرًا وإن تصبروا على ذلك فإن صبركم من صواب التدبير وحسن التدبير، وصبركم من أرشد الأمور وأحسن التصرفات، فاثبتوا على الإيمان يا أهل الإيمان ولا تنصرفوا عنه للأذى الذي يلحقكم من هؤلاء.

وبشيء من التفصيل أقول، وبالله التوفيق.

(اللام) هي الموطئة للقسم، فقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ قال عدد من العلماء معناها والله لتختبرن ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.



بعض صور الابتلاءات

أما عن صور الابتلاء في المال فمنها:

ذهابه ونقصانه.

ما فرض الله فيه من الزكوات والحقوق هل تؤدي إلى أهلها أم لا؟
ماذا من وراء هذا المال هل من ورائه البطر والأشر وكفران النعم، أم من ورائه
الشكر والحمد؟.

أما صور الابتلاء في النفس فتتمثل في:

المصائب أو الجراح والقتل.

ما فرض على الشخص من عبادات وجهاد وكلمة حق ونحو ذلك.
الأمراض والأسقام.

المصيبة بالأحباب والعشائر والأقربين، والله أعلم.

أما عن صور الأذى التي يسميها المؤمنون من أهل الكتاب ومن الذين أشركوا
فمنها:

قول اليهود: عزيز ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، وقولهم: إن الله فقير ونحن
أغنياءن وقولهم - مع النصارى - : نحن أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ذلك، وكذلك
يسمعون من النصارى قولهم: المسيح ابن الله، وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة،
وقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وطعن هؤلاء وأولئك في رسول الله ﷺ.

ومن صور الأذى التي تسمع من الذين أشركوا: قولهم في رسول الله ﷺ:
(ساحر - شاعر - مجنون - كذاب) إلى غير ذلك من الافتراءات، وطعنهم في
أزواجه ﷺ وطعنهم في أصحابه كذلك.

وقد ورد في هذا الباب حديث أسامة بن زيد ^(١) رضي الله عنه وفيه أنه قال: إن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فذكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد ابن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا فسلم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذينا به في مجلسنا ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفّضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عباد فقال له النبي ﷺ: «يا سعد ألم تسمع ما قال أبو خباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا»، قال سعد بن عباد: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطاح أهل هذه البُحيرة على أن يتوجه فيعصبونه بالعصاة فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فلذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصطبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَسَّمْعُكُم مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم فلما غزا رسول

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (مع النووي ١٢ / ١٥٧).

الله ﷻ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين: هذا أمرٌ قد توجه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ المراد بالصبر فيه أقوال لأهل العلم، فمنهم من قال إن المراد بالصبر هنا ترك المؤاخذه والمقابلة بالإساءة، فيمر المؤمن باللغو مرور الكرام ويسمع أذاه بأذنه ويتغاضى عن ذلك؛ لأنه أقرب إلى دخول المخالف في الدين، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وكما قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الباقية: ١٤]، وكما قال سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وكما قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] إلى غير ذلك.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالصبر هنا: الصبر على مجاهدتهم والإنكار عليهم، والصبر على التمسك بدينكم رغم طعن الطاعنين فيه، والله تعالى أعلم.



التذكير بالميثاق المأخوذ على أهل الكتاب والتحذير من كتمان العلم

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمْنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧).

المعنى والله أعلم، واذكر يا رسول الله ما صدر من هؤلاء اليهود والنصارى، وما فعلوه فإنهم، وخاصة اليهود، أهلٌ للغدر وعدم الوفاء، وأهل لكتمان العلم. اذكر فقد أخذنا العهد عليهم على لسان أنبيائهم أن يبينوا للناس ما في الكتاب بين التوراة والانجيل وأن يبينوا صفة النبي ﷺ التي عندهم في الكتابين التوراة والانجيل، وأكدنا عليهم العهد بذلك ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي طرحوا الكتاب وأهملوه وتجاهلوه وجعلوه خلف الظهور وطرحوا العهد وراء ظهورهم ولم يلتفتوا إلى ما عاهدوا الله عليه ﴿وَأَشْرَوْا بِهِ مُمْنًا قَلِيلًا﴾ اشتروا بالعهد وبالكتاب ثمناً قليلاً.

والمعنى: أنهم أخفوا الحق وكتموه حفاظاً على جاههم ورئاستهم فخشوا إن أظهروا صفة محمد ﷺ أن تنتقل الرئاسة منهم إلى غيرهم وأن تذهب دنياهم ووجاهتهم فيها، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي فبئس ما فعلوه من بيع العهد والمواثيق بثمان قليل وعرض زائل من أعراض الحياة الدنيا.

أي: فيا قبح ما فعلوه، يا قبح ما صنعوه.

هذا، والميثاق المأخوذ، مأخوذٌ على أهل العلم عموماً سواءً كانوا من اليهود

والنصارى أو كانوا من علماء هذه الأمة أيضًا، وهذا قول أكثر أهل العلم. وأخرج الطبري بإسناده إلى قتادة رحمه الله قال في هذه الآية: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئًا فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم فإن كتمان العلم هلكة ولا يتكلفن رجل ما لا علم له به فيخرج من دين الله فيكون من المتكلفين^(١)، كان يقال: (مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه، ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب) وكان يقال: (طوبى لعالم ناطق وطوبى لمستمع واع) هذا رجل علم علمًا فعلمه وبذله ودعا إليه ورجل سمع خيرًا فحفظه ووعاه وانتفع به.



(١) أخرجه الطبري (٨٣٢٤) بإسناد حسن إلى قتادة وقوله: كان يُقال لا يُدرى من قائله.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

لهذه الآية الكريمة سبب نزول أخرجه البخاري^(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٨]. وقال ابن عباس: ما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كذلك حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

والمعنى: لا تظن أن صنيع هؤلاء اليهود سينجيهم من عذاب الله لا تظن أن ما يصنعونه من كتمان العلم وإخفاء صفة النبي ﷺ، ولي السننهم بالطعن في رسول الله ﷺ كقولهم: «السام عليك يا محمد» ويوهمونه أنهم يثنون عليه ويسعدون بذلك، يسعدون لكونهم كتموا العلم وأوهموه أنهم صادقون، يسعدون لكونهم طعنوا في رسول الله ﷺ وأوهموه أنهم يسلمون عليه ويثنون عليه، ومع ذلك يحبون أن يحمدهم الناس على صنيعهم مع ما فيه من غش وكذب وتدليس، فلا تظن أن صنيعهم هذا سينجيهم من عذاب الله، فقوله: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ أي بمنجاة من عذاب الله لا بل سيعذبون ولهم عذاب أليم مؤلم موجه.

(١) البخاري (٤٥٦٧).

وبمزيد أقول، وبالله التوفيق.

إن قومًا من اليهود كانوا يفرحون بما أتوه من أنواع الخبث والغش والتلبيس على ضعفة المسلمين ويحبون أن يُحمدوا بأنهم أهل برٍّ وتقوى وصدق وديانة وعفاف.

أنهم يحرفون نصوص التوراة ويفسرونها بتفسيرات باطلة، ويروجونها عند الرعاع، ويحبون أن يحمدوا من الرعاع على ذلك. وانظر ما سيأتي من أسباب نزول الآية الكريمة.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ولا مانع أن تكون الآية نزلت في كل ذلك أو نزلت في أشياء خاصة، وعمومها يتناول كل من أتى بحسنة ففرح بها فرح إعجاب وأحب أن يحمده الناس ويشنوا عليه بما ليس فيه، والله أعلم.

هذا، وعن معنى ﴿أَوْتُوا﴾ وعن الذين أتوه أقول، وبالله التوفيق.

﴿أَوْتُوا﴾ معناها فعلوا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٦]

والذي أتوه فيه جملة أقوال منها:

أنه كتمانهم ما عرفوا من الحق.

تبديلهم التوراة.

إيثارهم الفاني من الدنيا على الثواب.

إضلالهم الناس.

اجتماعهم على تكذيب رسول الله ﷺ.

نفاقهم بإظهار ما في قلوبهم ضده.

اتفاقهم على محاربة رسول الله ﷺ.

تخلفهم عن الغزوات.

هذا، وقد ورد في هذا الباب باب حب الشخص أن يشن عليه بأمور لم يفعلها

قول رسول الله ﷺ: «من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة»^(١) والثاني قوله ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيها كيف يشاء ويفعل فيها ما يريد ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



(١) أخرجه مسلم (ص ١٠٤) من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه مرفوعاً وكذلك أخرجه البخاري (٦٠٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢١٩) ومسلم (٢١٣٠) من حديث أسماء رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن لي ضرة فهل علي جناح أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟ فقال رسول الله ﷺ: «المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور» وله طرق أخرى عن النبي ﷺ.

خواتيم سورة آل عمران وبيان صفات أولى الأنبياء وأعمالهم وأجورهم وما أعد لهم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۝١٩٥﴾ لَا يَغْرُنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٩٦﴾ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَمَا

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ
 بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا
 وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

هذه الآيات «أواخر سورة آل عمران» قرأها النبي لما استيقظ لصلاة الليل،
 ففي «الصحيحين» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه بات عند ميمونة - وهي خالته -
 قال: فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ في طولها حتى
 انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، ثم استيقظ رسول الله ﷺ فجلس يمسح
 النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر آيات خواتيم سورة آل عمران ^(١) ثم قام إلى شنٍّ
 معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي... الحديث ^(٢).

وعن معنى الآيات، فقله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فيه توجيه الأنظار إلى ما يستدل به أصحابها على
 قدرة الله عز وجل ووحدانيته وغناه عن خلقه، ومن ثمَّ يوحدونه ويعظمونه
 ويعبدونه ويسألونه، فقله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في اتساعها ورفعها
 بغير عمد تُرى وكونها جعلت مستوية ومحفوظة من السقوط ومحفوظة من
 الشياطين، وكونها زينت «أي السماء الدنيا» بمصابيح، وهي النجوم والكواكب
 السيارات، وكذا ما فيها من شمس وقمر وكذا ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بما فيها من جبال
 وهضاب وسهول ووديان وبحار وأنهار وأشجار ونباتات وزروع وثمار ومعادن

(١) في بعض الروايات نص عليها فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٧١/٣) مع «الفتح» ومسلم (مع النووي ١٧/٣٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ودواب وغير ذلك، وأيضًا ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ في هذا يطول وذاك يقصر، ويعكس الأمر في بعض شهور السنة ويستويان أحيانًا وأيضًا كون الليل جُعل باردًا غساقًا، وكون النهار جُعل حارًّا وكذا كون الليل جعل مظلمًا والنهار مضيئًا فهذا الليل سكنٌ، وذلك النهار للمعاش إلى غير ذلك من الآيات في ذلك كله ﴿لَا يَنْتَ﴾ لدلالات وعبر يستدل بها ويهتدي أصحاب العقول النيرة الرشيدة على وحدانية الله وقدرته وغناه فينبغي أن نتفكر وأن نتدبر فإن فيها ﴿لَا يَنْتَ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول النيرة الرشيدة.

ثم بين الله عزَّ وجلَّ صفات أولَى الْأَلْبَابِ، أصحاب العقول النيرة الرشيدة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي يداومون على ذكر الله عزَّ وجلَّ في كل أحوالهم، وهم قيام وهم قعودٌ وعلى جنوبهم، وحتى وإن أصابهم المرض فإنهم يصلون قِيَمًا إن استطاعوا وإن عجزوا صلوا قُعُودًا وإن عجزوا صلوا على جنوبهم.

فمن صفات أولَى الْأَلْبَابِ كثرة الذكر وذكرهم الله على كل حال.



ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ

واستدل بالآية الكريمة على جواز الذكر مضطجعا، وعلى ذلك أدلة أخر، منها قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] ^(١).

وقول النبي ﷺ: «صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب» ^(٢).

وقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه) ^(٣).
وقول النبي ﷺ: «من تعار ^(٤) من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي - أو دعا - استجيب، فإن توضأ قبلت صلاته» ^(٥).

ومن صفات أولى الألباب التدبر والتفكر في خلق السموات الأرض، فلم، قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قائلين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، يا ربنا ما خلقت السموات الأرض إلا لحكمة تعلمها، ما خلقتهم عبثا ولا لهوا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا

(١) أخرج الطبري (٨٣٥٥) بإسناد ثابت إلى قتادة قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وهذه حالاتك كلها يا ابن آدم فاذكره وأنت على جنبك يسرا من الله وتخفيا.

(٢) أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائما...» الحديث.

(٣) أخرجه مسلم (٦٨ / ٤) مع النووي.

(٤) التعار: هو اليقظة مع صوت، وذكر البعض أنه الاستيقاظ، وذكر آخرون أنه التقلب على الفراش ليلا مع كلام.

(٥) أخرجه البخاري (٣ / ٣٩) مع «الفتح» من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا.

بِالْحَقِّ ﴿١﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٢﴾ وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ ﴿٣﴾، بل خلقهما الله عز وجل بالحق وللحق ﴿وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿٤﴾، ﴿لَيُجْزَىٰ الَّذِينَ أَسْتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيُجْزَىٰ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿٥﴾.

وقول أولى الألباب: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي تنزهت يا ربنا عن اللهو وعن العبث، وتنزهت يا ربنا عن أن يكون لك شريك، وتنزهت يا ربنا عن العجز والضعف وتنزهت يا ربنا عن كل العيوب والنقائص، وتنزهت يا ربنا عن الند والمثيل والشبيه والنظير والصاحبة والولد. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فاصرف عنا يا ربنا عذاب النار. وفي الآية الكريمة ثناء على الله عز وجل وتنزيهه عن العيوب والنقائص بين يدي الدعاء فهو نوع من أنواع التوسل المشروع.

ثم يواصل أولوا الألباب مناجاتهم لربهم عز وجل فيقولون ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ أهنته وفضحته وأذلته، وأظهرت خزيه أمام الجمع الأعظم جمع الأولين والآخرين يوم القيامة.

وقولهم: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ أي وما لأهل الظلم، والمراد به هنا، والله أعلم الشرك من أنصار ينصرونهم من دون الله أو يدفعون عنهم عذاب الله عز وجل. ثم يواصل أهل الإيمان، أولوا الألباب مناجاتهم لربهم عز وجل فيقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أي يا ربنا إننا سمعنا رسولك يدعونا إلى الإيمان ويحثنا عليه ويأمرنا به فامتثلنا كل ذلك، فيا ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

فسألوا ربهم مغفرة الذنوب وتكفير السيئات والوفاة مع الأبرار أما الغفران فهو الستر والتغطية، والتكفير: كذلك هو التغطية، فالمعنى اللغوي للغفران والتكفير قريب جدًا، بل قد يتحد، أما ما هو وجه دعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] فللعلماء فيه أقوال:

منها: أنهما بمعنى واحد وهو طلب محو الخطايا، والتكرير إنما هو للإلحاح في الطلب وللتأكيد عليه، فالمقام مقام دعاء، ويستحب الإلحاح في الدعاء.

الثاني: أن المراد بالذنوب هنا: الكبائر، والمراد بالسيئات: الصغائر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَايَرًا مَّا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

الثالث: المراد بالذنوب: هي الذنوب التي تقدمت وسلفت، والمراد بالسيئات: هي الذنوب التي ستأتي.

الرابع: أن المراد بالغفران ما يزول بالتوبة والاستغفار، والمراد بالكفران ما تكفره الطاعة العظيمة.

الخامس: أن الذنب ما ارتكبه الشخص مع علمه بكونه معصية، والسيئة هي التي فعلت مع الجهل بكونها معصية وذنبا.

أما قولهم: ﴿وَتَوْفَقْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فالأبرار أولا قيل: هم الأنبياء والصالحون، ومعنى قولهم: توفنا مع الأبرار: اقبضنا إليك إذا قبضتنا في عداد الأبرار واحشرنا معهم، وقيل: ألحقنا بالصالحين، وقيل: وفقنا للعمل بأعمالهم حتى نحشر معهم، والله تعالى أعلم.

وكلمة الأبرار قد تأتي أحيانا بمعنى واسع وتأتي أحيانا بمعنى أخص، قد تأتي بمعنى المقربين، الذين هم أهل الدرجات العلى من الجنة، وقد تأتي أحيانا بمعنى أصحاب اليمين.

والأبرار هنا في دعاء أولى الألباب بمعنى الصالحين أو جمع (بر) وهم الذين برؤا الله تبارك وتعالى بطاعتهم إياه وخدمتهم له حتى أرضوه فرضي عنهم، وأحيانا تأتي بمعنى أضيق وهم أنهم أصحاب اليمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، كما قال سبحانه: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.

[المطففين: ٢٧، ٢٨]

فالأبرار هنا هم أصحاب اليمين يشربون من كأس ممزوجة (مخلوطة) من تسنيم، والتسنيم يشربها المقربون، فالمقربون يشربون من التسنيم صرفاً (خالصة) وتمزج هذه العين لأصحاب اليمين مزجاً، والله أعلم.

ثم يواصل أولوا الألباب دعاءهم سائلين الله عز وجل فيقولون ﴿رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ يا ربنا وأعطنا ما وعدتنا على السنة رسلك عليهم الصلاة والسلام.

وتم قول آخر وهو: ربنا وآتانا ما وعدتنا على الإيمان برسلك، والله أعلم.

وقولهم ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ولا تفضحنا يوم القيامة ولا تُهنا ولا تذلنا بين خلقك بإدخالنا النار أو بتوبيخنا، أو بعدم تكليمنا، أو بعدم النظر إلينا، أو بغير ذلك من صور الخزي، عياداً بالله ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فقد وعدتنا يا ربنا وعوداً طيبة إذا نحن آمننا وصدقنا فيا ربنا أنجز لنا ما وعدتنا. ولأهل العلم مزيد تفصيلات في توجيه قول أهل الإيمان ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، منها:

الأول: أن الله عز وجل أعلمهم على السنة رسله عليهم السلام أنه ناصرهم ومعزهم ومعلي دينه وكلمته فسألوا ربهم عز وجل أن ينجز لهم ما وعدهم عاجلاً غير آجل، فكأنهم قالوا: قد علمنا أنك لا تخلف وعدك من النصر ولكن لا صبر لنا على حلمك فعجل خزيهم وانصرنا عليهم.

الثاني: أنهم قالوا: إنك لا تخلف الميعاد من باب سؤال الله عز وجل بصفاته وأفعاله كما يقول القائل: اشفني أنت الشافي.

الثالث: أنهم دعوا بهذا الدعاء على جهة العبادة والخضوع، كما قال: ﴿قَلَّ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحق.

الرابع: أن الله سبحانه وعد من آمن بالجنة فسألوا أن يكونوا ممن وعد بذلك دون الخزي والعقاب.

وقريب منه ما ذكره الطبري حيث قال: قال بعضهم: ذلك قول خرج مخرج

المسألة ومعناه الخبر، قالوا: وإنما تأويل الكلام ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] لتؤتينا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، قالوا: وليس ذلك على أنهم قالوا: (إن توفيتنا مع الأبرار فأنجز لنا ما وعدتنا)؛ لأنهم قد علموا أن الله لا يخلف الميعاد، وأن ما وعد على السنة رسله ليس يعطيه بالدعاء، ولكنه تفضل بابتدائه ثم ينجزه.

والذي اختاره ابن جرير نحو القول الأول الذي قدمناه، أي: لا صبر لنا على أناتك وحلمك عنهم فعجل لهم خزيهم ولنا الظفر عليهم.. والله أعلم. هذا، وفي الآية توسل إلى الله عز وجل بالإيمان به واتباع رسوله ﷺ وذلك من قولهم ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ فيا ﴿رَبَّنَا﴾ لإيماننا بربنا وإجابتنا رسولنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

والناظر المتدبر للآيات يرى أن أهل الإيمان سألوا ربهم عز وجل مسائل وتعوذوا به من أشياء فقد جمعت الآيات أصول المسائل التي يدعو بها الشخص وهي أربعة أشياء:

خيرٌ حاصل تُرجى المحافظة عليه ويُرجى بقاءه ودوامه.

شرٌّ قائم تُرجى إزالته.

خيرٌ يُرجى الحصول عليه.

شرٌّ يُرجى عدم حدوثه.

فهذه أصول المسائل في أبواب الدعاء.

وقد جمعتها أدعية أولى الألباب.

أما الخير الذي يُرجى بقاءه وترجى المحافظة عليه فهو ما من الله به على أهل الإيمان من الهداية والتوفيق فيسألون الله أن يحفظه لهم ويتوفاهم مع الأبرار.

فهذا من قولهم ﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي ثبتنا على الإيمان الذي رزقنا إياه ولا تنزعه منا، واجعلنا نموت عليه.

أما الشرُّ القادم الذي تُرجى إزالته فالذنوب التي ارتكبت والسيئات التي اجتُرحت واقتُرِفَت فيرجى إزالتها، وهذا في قولهم: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

أما الخير القادم الذي يُرجى الحصول عليه ويُرجى تحقيقه فمن قولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾.

أما الشر الذي يُرجى عدم حلوله بهم فمن قولهم: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وقولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

فالناظر إلى عموم الأدعية يراها تدور بين هذه المسائل، وإن كان من العلماء من يطلق على الأدعية بصرف الشر التعوذات وكذا يطلق على الدعاء بصرف الشر الحاصل الواقع تعوذات وكمزيد إيضاح فأقول، وبالله التوفيق.

إذا قال العبد اللهم ارزقني، فهذا خير يُرجى حصوله.

وإذا قال اللهم احفظ علينا نعمك فهذا دعاء ببقاء الخير وعدم تحوله.

وإذا قال اللهم إني أسألك الفردوس، فكذا خير يُرجى حصوله.

وإذا قال اللهم اصرف عني عذاب النار فهذا دعاء بصرف الشر القادم.

وإذا قال اللهم اشفني فهذا دعاء بصرف الشر القائم بالشخص. والله أعلم.

وأعود إلى تفسير الآيات المباركات، فأقول وبالله التوفيق:

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي فأجابهم ربهم وأعطاهم ما سألوه،

وأعلمهم بقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَن نَّيُّ﴾ أي لا أذهب بثواب

عمل عمله أحدكم متبعاً فيه كتابي وسنة رسولي مُخلصاً في عمله لوجهي سواء كان

العامل ذكراً أو أنثى، وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ فيه أقوال:

رجالكم مثل نسائكم في ثواب الطاعة.

بعضكم من بعض في الموالاة والنصرة في الدين كما قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ثم فصل الله عز وجل تفصيلاً فقال: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى رسولي لنصرته وإقامة ديني ونصرة شريعتي ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وطرّدوا من بلادهم وأجبروا على الخروج من ديارهم، لا لشيء فعلوه، إلا لكونهم آمنوا بي واتبعوا رسولي وأرادوا نصرتي وأرادوا أن تكون كلمتي هي العليا ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي تعرضوا للأذى ولحقهم الأذى لكونهم أرادوا نصرتي وأن تكون كلمتي هي العليا وتمسكوا بشريعتي، بل وبذلوا أنفسهم لذلك ﴿وَقَتَلُوا﴾ أعداء الله ﴿وَقَتَلُوا﴾ في سبيلي. ﴿لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لا أمحون عنهم ما عملوه من السيئات التي سَطَّرت عليهم ولا أؤاخذهم بها ﴿وَلَا دُخِلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ﴾ حدائق وبساتين ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري خلالها الأنهار، وقيل تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ جزاء حسناً من عند الله ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي والله يجازي أحسن الجزاء، ويكرم أحسن الإكرام.

هذا، وقد ورد في هذا الباب حديث أخرجه الطبري^(١) رحمه الله من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ثلثة تدخل الجنة الفقراء المهاجرين الذين تُتقى بهم المكاره، إذا أُمرُوا سَمِعُوا وأُطَاعُوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض حتى يموت، وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة، فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقتلوا، وأودوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: (ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا، فيقول الرب جل ثناؤه: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأودوا في سبيلي)، فتدخل الملائكة عليهم من كل

(١) الطبري (٨٣٧٠).

باب ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٦٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١﴾ أي لا تغتر يا رسول الله ولا تغتر أيها المؤمن بما عليه أهل الكفر وما هم فيه من النعم وسلامة الأسفار والتنقل من بلدة إلى بلدة في أمان وسعة رزق وعافية وتقلدهم المناصب وأرباحهم في التجارات واستمتاعهم بديارهم فهذا الذي هم فيه متاعٌ قليل زائل وبعد ذلك مصيرهم الذي يصيرون إليه ومأواهم الذي يأوون إليه جهنم وبئس المهاد الذي يُتمهد والفراش الذي يُفترش.

فالمهاد وهو فراش الطفل الذي ينام عليه، والمراد هنا الفراش الذي يُفترش عموماً لفراش أهل الكفر في الآخرة هو النار، وكذا غطاؤهم الذي يغطون به، قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي وما أقبحه وما أشده شراً وضرراً.

هذا، وقد دلت على معنى الآية الكريمة آياتٌ كثيرة أخر منها:

قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ﴾ (٥٥) سَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴿[المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى: ﴿مَا يَجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾.

[غافر: ٤]

وقال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْعِمُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْعِمُهُمْ

لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٦) مَتَّعَ فِي

الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ إِنَّا مَرَجَعْنَاهُمْ إِلَىٰ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾

[يونس: ٦٩، ٧٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٣﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وقال سبحانه - عن قارون -: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ أَلْمَنَصَرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٧٩-٨١].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَعْنَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمُ رُؤُوسُهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّنَعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص: ٦١].

وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢].

هذا، وبعد بيان حال الأشرار ومآلهم يُبين الله عزَّ وجلَّ حال الأبرار ومآلهم، وهذا أحد أسباب إطلاق كلمة ﴿مَّثَانِي﴾ ﴿على القرآن، وذلك أنه يبين حال أهل الجنة ثم يُعقب بذكر حال أهل النار.

فيقول تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴿١﴾ جَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَذَابِ رَبِّهِمْ وَقَايَةً ﴿٢﴾ بِتَوْحِيدِهِمْ لَهُ، وَبِخَشْيَتِهِمْ مِنْهُ وَبِعَمَلِهِمْ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَتَرْكِهِمْ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ وَبِاسْتِعْدَادِهِمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكُلُّ هَذِهِ وَقَايَاتٌ يَتَّقُونَ بِهَا عَذَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴿٣﴾ هُمُ ﴿٤﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٥﴾ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿٦﴾

لا يتحولون عنها ولا يريدون التحول عنها كما قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾^١ وقوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: إكرامًا وحسن ضيافة ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ من متاع الدنيا الزائل الفاني.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾ الذي تبرروا إلى الله وتقربوا إليه بطاعته وبأعمال البر التي عملوها فرضًا كانت أو نفلًا وكذا باتقاء المناهي التي نهاهم عنها. ثم أخبر الله عز وجل أن من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فئة تؤمن بالله واليوم الآخر، فهو لاء يا رسول الله سيؤمنون بك وبما أنزل إليك خاشعين لله خائفين منه وجلون.

فيقول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدق بوحدانيته ويقرُّ بالهيته وربوبيته وحده لا شريك له ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يؤمنون بالقرآن والتوراة والإنجيل ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين لله خائفين منه موقرين له ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يعتاضون عن الإيمان بشيء لا يؤثرون الدنيا على الآخرة مقابل عرض زائل قليل، لا يقبلوا وجاهة ويضيعوا آخرتهم، بل لا يعدلون بتوحيد الله ولا بالإيمان به وبرسله وكبته شيء من متاع الحياة الدنيا الزائل الفاني ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ له ثواب أعمالهم عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يعجزه حساب خلقه بل يحاسبهم ويكافؤهم ويجازيهم في الوقت الذي يريده لا يعجز عن ذلك.

هذا، وقد وردت جملة آيات تفيد أن من أهل الكتاب طائفة مؤمنة تؤمن بنبيها وبرسولنا محمد ﷺ من هذه الآيات ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

[الأعراف: ١٥٩]

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِرَتْ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام، والنجاشي، وعدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه وغيرهم.

ثم يحث ربنا عز وجل أهل الإيمان على الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله لعلهم يفوزون بالمطلوب وينجون من المرهوب، وأعظم مطلوب هو رضوان الله عليهم وإدخالهم جنته، وأعظم مرهوب هو سخط الله عز وجل ودخولهم النار. فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا﴾ ففيه أقوال منها:

اصبروا على دينكم ولا تدعوه لشدة ولا لرحاء، فلا تدعوه لخوف ولا لفقر

ولا لجوع ولا لنقص في الأنفس والثمرات ولا يطغيكم الغنى كذلك فتتصرفوا عن دينكم، ويلتحق بهذا الصبر على فرائض الله عز وجل وأوامره.

ومنها: (اصبروا) على البلاء والأمراض.

ومنها: (اصبروا) على لقاء العدو.

والذي يظهر لي أن كل هذا يدخل في قوله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا﴾، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي: صابروا عدوكم فغالبوهم في الصبر على شدائد الحروب ولا تهنوا في ابتغائهم.

وقيل: صابروا عدوكم أي: نازلوهم وقتلوهم.

فإن قيل: فهذا المعنى يدخل في قوله: ﴿أَصْبِرُوا﴾ فيجاء بأن هذا من باب عطف الخاص على العام كما قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

أما قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: المرابطة هي المرابطة على الثغور لدفع شر الأعداء وحفظ بيضة المسلمين.

وقيل: إن المراد بالمرابطة: انتظار الصلاة بعد الصلاة لحديث: «... وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»^(١).

وقيل: إن المراد بقوله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا﴾ كل ما يتعلق بك وحدك من صبر على التكاليف وصبر على البلاء وصبر على الجهاد و﴿وَصَابِرُوا﴾ كل ما كان مشتركاً بينك وبين غيرك.

﴿وَرَابِطُوا﴾ المرابطة: الاحتراز عن الأخلاق الذميمة، والمحافظة على

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» وفي رواية: «فذلكم الرباط فذلكم الرباط».

الأخلاق الحميدة.

وقال البعض: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء والضراء، وربطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء؛ لعلكم تفلحون في دار البقاء، والله تعالى أعلم.

والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب وأعظم مطلوب هو رضوان الله وجنته، وأعظم مرهوب هو سخط الله عز وجل والنار.

وقد وردت في فضل المراقبة جملة أحاديث عن رسول الله ﷺ منها.

قول رسول الله ﷺ: «كل الميت يختم على عمله إلا المراط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر»^(١).

وقول رسول الله ﷺ: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»^(٢).

وقول النبي ﷺ: «طوبى لعبدا أخذ بعنة فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة ففي الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع»^(٣).

وقول النبي ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»^(٤).

وعن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه قال: إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين فأطنبوا^(٥) السير حتى كانت عشية فحضرت صلاة عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فارسي فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا

(١) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه مسلم والنسائي من حديث سلمان رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً.

(٥) أطنبوا أي: أسرعوا السير فتعبت بعض الإبل، من قوله: أطنب في الكلام إذا بالغ فيه.

أنا بهوازن عن بكرة^(١) آبائهم بظعنهم^(٢) ونعمهم^(٣) وشائهم^(٤) اجتمعوا إلى حنين فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله» ثم قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله، قال: «اركب» فركب فرساً له وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا نغرن (ولا يغرن)^(٥) من قبلك» فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاة فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه فثوب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يُصلي وهو يلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم فقال: «أبشروا فقد جاء فارسكم» فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلم وقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» قال: لا، إلا مُصلياً أو قاضياً حاجة^(٦)، فقال له رسول الله ﷺ: «قد أوجبت^(٧) فلا عليك أن لا تعمل بعدها»^(٨).



(١) أي: جاءوا جميعاً لم يتخلف منهم أحد.

(٢) الظعن: المراد بهن النساء.

(٣) النعم: المراد بها الإبل.

(٤) جمع شاة.

(٥) أي: لا يأتينا العدو من ناحيتك على غفلة أو غرة.

(٦) المراد بالحاجة هنا: البول أو الغائط.

(٧) أي: لا ضرر عليك ولا جناح عليك في ترك العمل النفل بعد هذه الحراسة، لأنها تكفيك لدخول الجنة (أي: مع الفرائض الأخرى). والله أعلم.

(٨) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث سهل ابن الحنظلية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفهرس

- بيان الآيات المحكمات والمتشابهات والموقف منها وسؤال أهل الإيمان
- ٨ الثبات
- ١٥ بعض سبل الرسوخ في العلم
- ٢٠ هزيمة أهل الكفر وعدم انتفاعهم بأموالهم وأولادهم
- تزيين حب الشهوات للناس، وبيان أعظم هذه الشهوات والتذكير بما هو
- أفضل من ذلك مما أعدّه الله لعباده الصالحين وبيان بعض صفات أهل
- ٢٤ الصلاح
- بعض صفات أهل الصلاح وأعمالهم
- ٣٢ شهادة الله عزّ وجلّ لنفسه بالوحدانية وشهادة الملائكة وأولي العلم بذلك
- وبيان أن الدين المقبول هو الإسلام
- ٣٤ بعض الأدلة على عموم رسالة النبي ﷺ
- ٣٧ الوعيد الشديد لأهل الكفر وقتلة الأنبياء وقتلة الأمرين بالقسط من الناس
- رفض فريق من اليهود التحاكم إلى التوراة وبيان أن المعتقد الفاسد يجرّ إلى
- عمل فاسد
- ٤٠ بيان أن الملك لله عزّ وجلّ يؤتیه من يشاء وينزعه ممن يشاء وبيان شيء من
- قدرة الله عزّ وجلّ
- ٤٢ النهي عن موالة الكفار والأمر بطاعة الله ورسوله وموالة أهل الإيمان
- والتذكير بمراقبة الله عزّ وجلّ
- ٤٥ اصطفاء الله عزّ وجلّ بعض أنبيائه ورسله من بين الخلق
- ٥٠ المراد بـ الآل
- ٥٣ قصة حمل امرأة عمران بمريم عليها السلام وولادتها وكفالتها وشيء من
- فضل الله عليها
- ٥٦ أهل الإيمان يعملون الصالحات ويسألون القبول
- ٥٧ تعويذات للصبيان (بنين أو بنات)
- ٦٠ شيء من قصة زكريا عليه السلام وتبشيره بيحيى عليه السلام
- ٦٣ الأمر بالإكثار من ذكر الله عزّ وجلّ وشيء من فوائد الذكر
- ٦٩ جواز تكليم الملائكة بني آدم
- ٧٢ عودٌ إلى قصة مريم عليها السلام وتبشيرها بعيسى ﷺ
- ٧٣

- ٧٦ النعم تستلزم شكرا -
- ٧٨ بعض دلائل النبوة -
- ٧٩ الأدلة على جواز القرعة في المشكلات -
- ٨١ بعض من تكلموا في المهدي -
- ٨٤ ذكر شيء من شأن عيسى عليه السلام وقصته وشيء من فضل الله عليه -
- مكر أهل الكفر بعيسى عليه السلام وحفظ الله عز وجل له ، وسلامته من مكرهم ورفعهم إلى الله عز وجل -
- ٨٩ قدرة الله عز وجل على خلق ما يشاء وقد خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم والمثل المضروب لخلق عيسى عليه السلام قال الله عز وجل : ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ -
- ٩٦ آية المباهلة -
- ٩٧ دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد -
- ١٠٠ توجيه اللوم إلى أهل الكتاب لجدالهم بالباطل في شأن إبراهيم عليه السلام والبيان عن كون إبراهيم عليه السلام كان مُسْلِمًا -
- ١٠٢ التنبيه على أن الأنبياء كانوا مسلمين -
- ١٠٤ رغبة طائفة من أهل الكتاب في إضلال المؤمنين -
- ١٠٦ نداءات لأهل الكتاب فيها توبيخ لهم وبيان بعض طرائقهم لإغواء الناس وإضلالهم -
- ١٠٨ مزيد بيان لأحوال أهل الكتاب -
- ١١٢ النبي لا يدعي الربوبية ولا يأمر بها -
- ١١٨ أخذ الميثاق على الأنبياء عليهم السلام أن يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ إذا بعث وهم أحياء -
- ١٢٠ الأمر بالإيمان بالله عز وجل والإيمان بالكتب المنزل من عند الله كلها وكذا الأمر بالأنبياء جميعهم -
- ١٢٣ بيان أن الدين المقبول عند الله هو الإسلام وأن الخاسر من ابتغى دينًا غيره واستبعاد هداية الكفار الجاحدين عن علم وعمد إلا بإذن الله وبيان عقوبتهم وفتح باب التوبة لهم -
- ١٢٥ فتح باب التوبة للمذنبين -
- ١٢٩ دفع إشكال -
- ١٣٢ لن تقبل فدية من أهل الكفر يوم القيامة -
- ١٣٣ -

- إحياء أعمال من ماتوا على الكفر..... ١٣٣
- الرد على اليهود وبيان كذبهم وافتراءهم..... ١٣٧
- بيان أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس وبيان فرضية الحج على العباد المستطيعين..... ١٤٠
- عتاب أهل الكتاب وتوبيخهم على كفرهم وصددهم الناس عن سبيل الله وتحذير المسلمين من اتباعهم وطاعتهم والأمر بتقوى الله عز وجل..... ١٤٥
- الأمر بالاعتصام بالتمسك بالكتاب العزيز والسنة المباركة والاجتماع على ذلك، والنهي عن الفرقة والاختلاف والحث على الدعوة إلى الله عز وجل وبيان بعض مصائر الخلق التي يصيرون إليها يوم القيامة..... ١٤٨
- الحث على الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ١٥٤
- خيرية هذه الأمة لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها بالله وبيان بعض مخازي وجرائم أهل الكتاب..... ١٥٩
- وجود طائفة مؤمنة من أهل الكتاب قبل مبعث النبي ﷺ..... ١٦٤
- بيان عدم انتفاع أهل الكفر بأموالهم وأولادهم يوم القيامة..... ١٦٨
- التحذير من اتخاذ الكافر مستشارين وبيان عداوتهم للمسلمين ورغبتهم في إضلالهم..... ١٦٩
- ذكر شيء من غزوة أحد..... ١٧٣
- شيء من ذكر غزوة بدر..... ١٧٥
- قتال الملائكة يوم بدر..... ١٧٩
- عود إلى التذكير بشيء حدث يوم أحد..... ١٨٣
- التحذير من أكل الربا والوعيد الشديد لأكليه..... ١٨٥
- الحث على المسارعة إلى الخيرات وبيان بعض صفات المتقين..... ١٨٩
- التذكير بأن الأيام دول بين الناس وبيان حتمية الابتلاء والحث على الصبر..... ١٩٩
- الحث على الصبر والإيمان والثبات والتذكير بأهل الفضل والصلاح..... ٢٠٤
- النهي عن تمنّي الموت..... ٢٠٥
- الحث على تمنّي الشهادة في سبيل الله..... ٢٠٧
- التحذير من طاعة أهل الكفر فيما يدعون إليه من باطلهم..... ٢١٥
- التذكير ببعض ما كان يوم أحد وبيان أن المعاصي سبب للهزيمة..... ٢١٧
- مزيد من التذكير بما كان يوم أحد..... ٢٢٠
- استئلال الشيطان العباد ببعض معاصيهم..... ٢٣٠
- النهي عن التشبه بالكفار في اعتراضهم على القدر والحث على الإيمان بالقدر..... ٢٣٢

- بيان شيء من فضل الله عز وجل على نبيه ﷺ والحث على الرفق واللين
- والخلق الكريم ٢٣٥
- الحث على الشورى ٢٣٦
- بعض فوائد التوكل على الله ٢٤٠
- البيان الواضح عن أن النصر من عند الله عز وجل ٢٤١
- النهي عن الغلول وبراءة الأنبياء عليهم السلام منه وبعدهم عنه ٢٤٣
- تفاوت الناس في الدرجات يوم القيامة ٢٤٦
- فضل الله على المؤمنين ٢٤٨
- بيان بعض ما جرى وكان يوم أحد وذكر بعض الحكم والغايات من ذلك ٢٤٩
- لن يتسلط قوم على قوم إلا بإذن الله ٢٥٢
- بيان شيء من فضل الشهداء في سبيل الله والتذكير بمواقف أهل الصدق
- والإيمان والحث على الثبات ٢٥٦
- جملة من الأحاديث في فضل الشهداء ٢٥٩
- ذكر بعض الفوائد من الآيات السابقة ٢٧٢
- الحث على الثبات والشجاعة وعدم الخوف إلا من الله عز وجل ٢٧٤
- النهي عن ذهاب النفس حشرات على أهل الكفر وبيان أنهم لن يضرروا الله
- شيئاً ٢٧٥
- بيان أن تأخير عقوبة الكفار ليس عن رضى عنهم ٢٧٧
- حتمية الابتلاء ٢٧٨
- مصير البخلاء بالواجب عليهم ٢٨٠
- آيات وأحاديث في ذم البخل ٢٨١
- بيان بعض جرائم اليهود وسوء أدبهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ٢٨٦
- التذكير بالموت والتحذير من الافتتان بالدنيا ٢٨٩
- التذكير بالابتلاء وأنه سيكون ٢٩١
- بعض صور الابتلاءات ٢٩٢
- التذكير بالميثاق المأخوذ على أهل الكتاب والتحذير من كتمان العلم ٢٩٥
- خواتيم سورة آل عمران وبيان صفات أولى الألباب وأعمالهم وأجورهم وما
- أعد لهم ٣٠٠
- ذكر الله على كل حال ٣٠٣
- الفهرس ٣١٧